أليخاندرو كاسونا

البيت ذو الشرفات السبع

و

سيمفونية دون ختام

مسرحية عالمية



مسرحيات عالمية

ترجمة

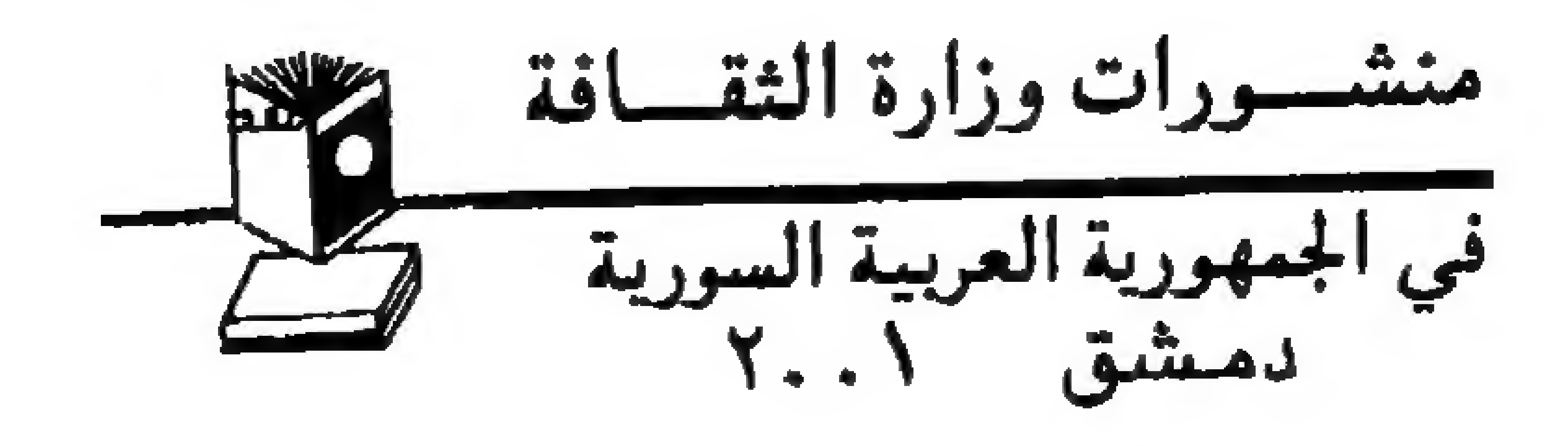
علي إبراهيم أشقر

أليخاندرو كاسونا

البيت ذو الشرفات السبع
و
سيمفونية دون ختام

مسرحية عالمية

مقدمة بقلم ف.ك.س. روبلس
ترجمة :علي ابراهيم أشقر



العنوان الأصلي للكتاب:

ALEJANDRO CASONA

Casa de Siete Balcones

Prólogo de F.C.Sainés Robles

SINFONIA INACABADA

F.STAMPA DE VIDA ROMANTICA, EN TRES ACTOS (EL TERCERO, DIVIDIDO EN TRES CUADROS)

البيت ذو الشرفات السبع = Casa de Siete Balcones؛ سيمفونية دون ختام = Sinfania Inacabada/ أليخاندرو كاسونا؛ مقدمة ف.ك. روبلس؛ ترجمة علي إبراهيم أشقر ٠- دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠١ ٠- ٣٠٤ص؛ ٢٠ سم ٠- (مسرحيات عالمية؛ ٦٢).

١- ٨٦٢ك ا س ب ٢- العنوان الأول ٣- العنوان الموازي (١) ٤- العنوان الثاني ٥- العنوان الموازي (٢) ٦- كاسونا ٧- أشقر ٨- السلسلة

مكتبة الأسد

الإيداع القانوني: ع-٨٣٣/ ٥/ ٢٠٠١

مسرحيات عالمية

« ٦٢ »

البيت ذو الشرفات السبع

مسرحية بثلاثة فصول

مقدمة

الإطار العام:

هي بلدة صغيرة يستطيع كل امرىء أن يدعوها كما يشاء. بلدة صغيرة تقع شمالي إسبانية قريباً من البحر؛ جدّ قريبة حتى إذا صعد المرء أحد مرتفعاتها أمكن له رؤية البحر بدقة ناظراً إليه بعين الرغبة وليس بعين الجسد. لكن البحر ينبسط بعيداً في هدوئه الأبدي الذي يُظهره البُعد بغير مظهره. بحر وبلدة، وريف وغابة تتاخم، وتنفصل عن بعضها، وتجعلنا ندرك دون صعوبة أنها تنتمي إلى أستورياس مسقط رأس أليخاندرو كاسونا. يختار مؤلّفنا الدرامي بين حين وآخر لأعماله أماكن وبيئات ومناخات أخر. لكنه سرعان ما يعود على شكل محتوم إلى تلك الأماكن الحميمة عنده، والألصق به. يعود إليها في الوقت الملائم حين يكون بصدد موضوع يشتبك فيه الواقع بالأحلام، موضوع ينبغي للنثر فيه أن يبلغ مذاقات وآثاراً شعرية. أستورياس بلد أليخاندرو كاسونا- هي ونظيرتها غليشية- خير مناطق إسبانية حيث يمكن أن يحدث الذي لا يُحتمل الحدوث، حيث الذي لا يُحتمل الحدوث يكتسب قيمة إنسانية عظمى، حيث القيمة الإنسانية العظمى

يمكن أن تتاخم جغرافياً وميتافيزيقياً حدود المعجزة. أجواء أستورياس حيث يُلمح البحر لمحاً، مشحونة دائماً بالنذر المنبئة وكأنها معدّة بقلق لملامسة ما فوق الطبيعي، وإن يكن على شكل عار. فالضباب الكثيف والسحب المنخفضة الكبيرة، والرطوبة الدائمة التي تتسرّب حتى لبّ العظام، والأشجار المعمّرة الضخمة الجليلة التي يشكل المطر والريح في تيجانها طباقاً لحنياً من أجل قصص الأشباح والأرواح المعذّبة ولمّا تفارق أجسادها، كل ذلك يتطلّب مخلوقات على استعداد لأن تواجه تشنّجاتها الروحية ونقائصها العاطفية، يقتضي مواضيع يجب البحث عن حلّ لها فيما وراء ما هو عادي ومبتذل.

المكان:

في البلدة الصغيرة التي أشرت إليها بيت كبير فسيح ومقر نبلاء ريفي، شرفاته السبع تشبه سبعة أجفان مسهّدة تقوم على حراسة أرجاء ينبثق منها في أقلّ الأوقات توقّعاً، الشعر الغنائي أو المأساة صريحة قاسية. يُفترض أن هذا البيت مندمج اندماجاً تاماً مع ما يحيط به من منظر طبيعي ومناخ وبيئة. فلونه الرمادي المائل إلى الخضرة، وعمقه المخيف وزواياه هي من صنع أشباح طيبة أو أهواء خبيثة. في هذا البيت يُسمع صوت الغياب، وتخفق الذكريات ويبعث على الاضطراب الصمتُ، وعلى القلق الترقّب، وعلى الإخلال بالتوازن الظلال، وتنام

فيه الأضواء. في هذا البيت تُكمُّ الرغبة دائماً، وتذوي أجنحة الأمل تحت وطأة الرطوبة والضباب. إنّنا نجهل تاريخ بيت النبلاء من الداخل، لكنّا بالنظر إلى ما يحدث فيه، وبفضل مقاربة كاسونا الشعرية، نستطيع التخمين مع قليل من الخوف من الوقوع في الخطأ. إنها سلسلة من الحيوات تتابع دون أصداء، ولا يتحقق في أيّ منها القول المأثور الرهيب الذي يُعزى إلى لوثيانوده ساموساتا: «من يعشْ، يجعل الألم ضرورة ومنطقاً».

أحسب أني كتبت ما يكفي حول السيناريو والوسط والمناخ الذي أعده كاسونا لهذه الدراما. لكن، من يعيش هذه الأحداث... من يدخل هذا السيناريو ومن يخرج منه؟ وهو سيناريو معدّ بأناة تكاد تكون مَرَضية، وخاضع لدرجة حرارة حمّى وسط الصقيع. من هم شخوص هذا العمل الدرامي الذي هو، إلى هذا الحدّ أو ذاك، قطعة من حياة غير مبتذلة ولاعادية؟ فلنقدّمهم.

الشخوص:

هذا هو رامون رأس العائلة - كما تذكر اللوائح أو السيد «الأفندي» كما تقضي العادة في هذه الأراضي القديمة التي تحمل أصداء من عصور الإقطاع. هو مايزال شاباً وقوياً وقاسي الملامح، «لكن على شكل طبيعي ينقذه من كل فظاظة؛ هو ببساطة فجّ فجاجة حصان جميل». يلبس بزّة ثمينة من المخمل

ذات أزرار من فضّة، وقميصاً مموّجاً وحذاء ركوب ومهاميز. فقد منذ سنوات عدّة زوجه وريثة البيت البكر، التي رزق منها ابناً يدعى أوريبل يحبّه على جهله عنه كل شيء، وتثير الغضب والكبرياء فيه عقدة النقص هذه.

هذا هو أوريبل الذي أتم الثامنة عشرة. وهو جميل شاحب وحزين وأخرس أصمّ. لكنه، بيده الصناع وخياله المجنّح يشقّ طرقاً لسعادة ليست في هذه الحياة. إن لم يكن أوريبل قاسياً ولا عنيفاً ولا شهوانياً كأبيه، فمن يشبه إذاً؟ إنه يشبه أمه وجدّه لأمه. وهما كائنان فذّان تمتّعا بحساسية مرهفة هشة وحلوة كأنها ثمرة من ثمار أيلول؛ وعرفا أن يربطا بهدوء سعادتهما في هذا العالم بكلمة: لا! انطقابها في مواجهة الخسّة وفساد الخلق والجبن والأنانية. آه! وليت أوريبل يتعلّم النطق بكلمة لا فحسب كما ترغب في ذلك الخالة خينوبيبا. فلو تعلمها أو نطق بها لربّما بلغ قمة السعادة المبينة.

هذي هي الخالة خينوبيبا. في الأربعين من عمرها. هي خالة أوريبل. وفي نظر هذا أمه إن بالتضحية ونكران الذات، أو بالتعاليم الساحرة، وقد سلّمت أمرها للقلق والابتسام. فمنذ أن رحل خطيبها المحبوب إلى بلد بعيد، صمّمت على أن تحوّل عنوستها إلى مقدّمة لبشائر عجيبة. فهي مادامت تعرف أن تنتظر دون يأس، فلن تمرّ عليها السنون ولا الفصول. وهي الوحيدة التي تستطيع النفاذ دون استئذان إلى عالم أوريبل السرّي. يكفيها أن تتبادل النظرات معه. أيوجد شيء أعجب

وأبسط؟ ذلك بأن الحبّ هو المفتاح الوحيد الذي يفتح عوالم الأرواح المجهولة، الأرواح الشديدة القلق والمنطوية على نفسها. أوريبل والخالة خينوبيباليسا بحاجة إلى لغة الأيدي، ولا إلى القراءة بواسطة الشفاه. هما، كما قلت سابقاً، تكفيهما النظرات إلى درجة يُسمع فيها لتلك النظرات صوت.

هذي هي آماندا امرأة جميلة وشهوانية ولا تعرف أن تحلم. وهي متشبّثة بالواقع بشراسة ذئبة وأنانية أنثى. منذ سنوات عدّة تقوم في هذا البيت بدورين: دور السيدة المشرفة على البيت- وخدين رامون في السرّ... نسبياً. وكان عليها أن تكافح كل الوقت شبح السيدة الأولى، الحلو والطاغي. هي تكره الخالة خينوبيبا. ولم تستطع أن تشفق على أوريبل. ربما لأن أوريبل يتجاهلها، ولأن الخالة خينوبيبا تحتقرها، وتحاول أن تمنع عنها إغراءات فراديس محالة.

هذا هو دون خيرمان، في السبعين من عمره. وهو طبيب البلدة وسيد محترم لا غبار عليه. وهو لطيف بقوة، وقوي بلطف. يحب خينوبيبا وأوريبل حباً يمتدّ إلى أمّ هذا الأخير وأجداده لأمه، وسادة البيت الكبار كلهم. نعم، دون خيرمان يعرف أن يحلم. لكنه، بصفته طبيباً، لا مناص له من أن يشخّص الأحلام على أنها من علل الخيال أو الروح التي لا تقبل الشفاء. علل تثير الكوارث في هذا العالم السفلي.

هذه هي روسينا. في السابعة عشرة من عمرها، وهي فتاة ريفية هبطت من الجبل حديثاً، وما تزال تحمل طراوة هواء أرضها العالية. إنها حلوة وهلوع. تؤمن بالأحلام والأشباح بدافع من الإيمان فقط. وتعجب بالخالة خينوبيبا وتحب أورييل بعاطفة غير محددة حتى في عين ذاتها، وتبكي في الزوايا وتتأوّه في كل مكان.

هذا هو آنطون بن أنطونا ساعي البريد الريفي. أهميّته هائلة، لأنه هو الذي سيحمل ذات يوم رسالة أمريكة إلى الخالة خينوبيبا، رسالة الخطيب المحبوب الذي أشاعت عنه ألسنة السوء أنه تزوّج هناك منذ سنين ولذلك لن يكتب الرسالة التي تنتظرها على أحر من الجمر ودون يأس، العانس ذات البكاره المصونة.

ثمّ ها هم الجدّ والأم وآليثيا. جدّ أورييل لأمه كان جندياً شجاعاً. وأمه كانت مخلوقاً شاحباً فائق الجمال والعذوبة. آليثيا كانت صديقة أورييل الوحيدة، وهي صبيّة شقراء حالمة مؤثّرة ومطيعة كأوفيليا في مسرحية هاملت. العاطفة التي كانت تربط أورييل بآليثيا، لربما كانت تجسّدت في المستقبل حباً لا محالة.

لكن آليثيا والأم والجدّ ماتوا جميعاً منذ مدّة... وإن لم يكونوا كذلك في نظر أورييل. لأن أورييل المحاصر بخرس يملأ عزلته بالضوضاء، ما يكاد يشعر بالقلق والاضطراب حتى يدعوهم، فيهرعون إليه «بهدوء طبيعي» لتقديم النصح له ومواساته.

الموضوع:

موضوع «البيت ذي الشرفات السبع»، يشتمل على ثلاثة عوالم مختلفة عن بعضها اختلافاً مطلقاً، وإن كان بالإمكان العثور على بعض التماسّ والتقاطع بين عالمين منها، وهما عالما أورييل والخالة خينوبيبا. العالم الثالث هو عالم رامون وآماندا، وروسينا ودون خيرمان. بين هذا العالم وذاكما العالمين لا توجد إمكانية للتقارب أو التماثل. هذا العالم الثالث هو عالم الواقع العادي والمؤيس دائماً، والتعيس والضاغط والمبتذل. عالم خالٍ من الدهشة والألحان. عالم الولادة والعيش كما يُستطاع، والموت متى شاء الله ذلك. هو عالم الخطايا السبع ونقيضاتها الفضائل السبع المنقذة منها. عالم محصور بين حدّين، حدٌّ أمثل وهو الموسوم بالغبطة والسعادة الدنيوية. وحدّ أسوأ وهو الذي يحطّم القاعدة الشرعية والعرف الاجتماعي.

في هذا العالم لا تستطيع آماندا ورامون ودون خيرمان وروسينا أن يصنعوا شيئاً آخر غير ما يلي: رامون فخور بزواجه بالوريثة البكر، وبابنه العجيب الذي رزق به منها؛ أو بلقب «الأفندي». وهو يكافح وسط نارين: شهوانيته الدائمة، وعوزه الذي يهدّده بالإفلاس. آماندا ترغب في الزواج برامون والتحدّث إليه ليس كخادم حظيّة، وإنما كسيّدة بيت، والحجر على الخالة -خينوبيبا- موضوع الاتهام الدائم، في مشفى؛ وعلى أورييل في مدرسة للمعاقين. والسيطرة أخيراً على مركز

الصدارة الشاغر في البيت ذي الشرفات السبع. على دون خيرمان أن يتذكّر الأزمنة الجميلة، ودون أن يتطلّع بوجهه إلى مستقبل يراه مشؤوماً لا يرجى صلاحه. وعلى روسينا أن تشفق على أوربيل بعاطفة غامضة تراوح بين أمومة لا إرادية وشباب في طور التفتح، والرغبة في مجيء يوم العيد لتطلّ، وقد طار لبُّها فرحاً، من نافذة عليّتها و«تغنّي بقوة ليُسمع صوتها من بعيد».

العلامة الوحيدة الغير عادية «للاواقع» في هذا العالم الواقعي المحض الذي ينغمس فيه رامون وآماندا ودون خيرمان وروسينا، هي ملاحظة هذه الشابّة الساذجة: فهي وحدها ترى الكلمات التي يتبادلها أوربيل وخينوبيبا وحيدين جاعلين من عيونهما الحزينة فمين مبتهجين. وهي ملاحظة دقيقة كخيط من حرير أو قطعة متخلّفة من ضباب خاطرت بمواجهة الشمس.

عالم الخالة خينوبيبا ليس عالماً واقعياً. لأن الخالة في رأي المخلوقات الواقعية مجنونة. ليست مجنونة تستحقّ الربط، وإنما الحجر عليها لتجنيبها بدافع الشفقة، سخرية تنهال عليها من أولئك الذين هم بكامل عقولهم كما يبدو. الخالة خينوبيبا سعت برجلها وراء هذا العالم فعلاً، لكنها لم تخلقه، ولم يكن من صنعها. لأن هذا العالم موجود قبلها، وما يزال موجوداً وسيظل موجوداً دائماً. إنه عالم الخيال الذي لا يدخله من يشاء. لا. وإنما يدخله بمشيئة الله، من يستطيع الحصول على جواز مرور حرّ بثمن مرتفع جداً. وكأن هذا الثمن يُدفع ألماً كبيراً. ألماً كبيراً لا مناص من أن يطرق الدماغ حنقاً، ويعصر

القلب غيظاً؛ وأيّ ألم أقوى وأشدّ من الألم الذي يسببه حبّ مخفق كبير؟ الخالة خينوبيبا محبّة بنقاء، ومثيرة للشجن. خانها رجل ما. وهذه الخيانة هي التي منحتها جواز سفر صالح للعبور من عالم الواقع إلى عالم تزدهر فيه الأوهام. ولو عادت خينوبيبا إلى عالم الواقع، لربما كرهت المحبّ الخائن، أو نسيته على الأقل. لكنّ أسطورة حب المخلوقة الساحرة تظلّ تحمل دائماً في عالمها اللاواقعي، ذات الاسم وذات الوجه، ولن تفقد سحرها الشاعري، ولا إمكانية تحقّقها واقعياً.

عالم أورييل مختلف جداً عن عالم الخالة خينوبيبا. في الحقيقة ما كان أورييل يميل إلى الخروج من عالم الواقع. ما كان يرغب فيه أورييل، أن يتمكن من تحقيق أحلامه في العالم الواقعي على وجه طبيعي تام: بإبعاد الأحقاد، والعواطف الوسخة، ومعايشة أنواع الحب الحلوة، وسيادة ما هو شاعري في الفكر وفي السلوك، وفعالية الحنان والصوت الخفيض. لكنه، لمّا أدرك استحالة تحقيق أحلامه في الواقع، عزم على تغيير عالمه. لكنه لم يترك عالمه ليدخل عالماً آخر خيالياً، أو ربّما سحريّاً، كعالم خالته خينوبيبا. وإنما يترك عالم الواقع، ليعيش، أو ليتابع حياته في عالم آخر، ليس أقل واقعية من الأول، عالم حيث تتحقّق الأمجاد دون قاعدة ما، ودون حدٍّ يحدّ، حيث تُمكن الحياة تحت دغدغة شمس فرح أبدية. عالم مجيد مدخله الوحيد هو الخوف منه، ألا وهو الموت. لذلك يدعو أورييل أمه وجدّه وآليثيا بعذوبة، لكن بعناد، ويدعوهم

ليحضهم كيما يرشدوه إلى السبيل إلى هذا العبور العظيم العجيب. أمامهم يتشكّى الشاب الشاحب: «أصبحت لا أستطيع التحمّل. فكلّ أشياء هذا العالم تؤذيني كأنها قطع من زجاج، سواء الظالمة والقاسية والجبانة منها... لا أريد أن أبلغ مبلغ الرجال. في عالمكم الأبيض هذا كل شيء يتمّ بسهولة. لكننا هنا... أتعلمون معنى اليأس المقلق بشعورك مختلفاً؟ قولوا لي الحقيقة! لا يفصلنا عن بعضنا غير شيء شفّاف! وربما كان لوحاً من بلور. قولي لي يا أمي ما ينبغي لي أن أصنعه لكي أعبر إلى جانبك...» وتجيبه الأم: «لا يوجد غير سبيل واحد هو الانتظار».

الانتظار! ما كان أوريبل يطمح إلى التفلسف. وإنما يرغب في فضائل وخصال ممكنة التحقق في عالم واقعي، كالصمت والسلام والشفقة والفهم والحب؛ ما كان يريد الكفاح، وليست لديه القوى لكفاح يعلمه قاسياً عنيفاً. يخمن أحياناً أن هذه الـ(لا) التي تحاول خالته خينوبيبا أن تعلّمه النطق بها، ستكون كلمة السرّ الرهيبة التي قد تفتح له باب العالم الآخر الواقعي أيضاً، لكنه نهائي ويسوده سلام دائم. غير أنه لم يصل إلى فهم خالته خينوبيبا فهماً كاملاً. لما سألها لمَ ينبغي له أن يصرخ بـ لا اكتفت باجابته كعرّافة: «القول نعم، يخفض المرء رأسه، ولقول لا! يرفعه. لأنّ لا! كلمة العائلة كلها. جدّ جدّي الوريث البكر كان بإمكانه الحصول على ثروة بتوقيع بعض الأوراق القذرة، فقال: لا! وجدك قُتل في الحرب لأنه

كان له من الشجاعة أن يقول: لا ! و لما أرادوا إقناعي بأن خطيبي تزوج بامرأة أخرى من ذلك البلد البعيد، قلتُ أيضاً: لا! لذلك يُقال عني: غريبة الأطوار. كل أهلنا عرفوا النطق بهذه الكلمة بملء الفم. والآن، ينبغي لك أن تبدأ بها. ردّد معي: لا! لا! لا!» وأورييل ينكر: «لا أريد العيش هنا. لا أريد الخضوع إلى ماضي أبي وآماندا الوسخ، وماضي ناسٍ آخرين أعرفهم، لا أريد أن أبغض. لا أريد أن أكافح وأجرح أحداً. أيكفي ترديد لا، حتى يُفتح لي الممر الذي يقود إلى عالم أمّي وجدّي وآليثيا؟».

عالم خينوبيبا إذاً، هو ببساطة نفي للواقع، لكن، دون أن يُرخي الواقع من قبضته على فريسته. محاولات الهروب من عالم الواقع بواسطة الخيال والوهم، لابد لها بالضرورة من أن تستسلم هامدة، لسطوة الواقع. في هروب خينوبيبا العارض جنونها، وفي عودتها إلى عالم الضرورة اليومية تعقّلها. لكن العالم الذي يبحث عنه أورييل ويطمح إليه لاصلة له بالعالم الذي يضمّ الأحياء الفانين بل عالم الأحياء الباقين.

أكّدت من قبل أن عالم الواقع لايمكن له أن يتماسّ أو يتقاطع مع عالمي خينوبيبا وأورييل. ويُفهم ذلك بوضوح شديد إذا فكرنا أن خلود عالم أورييل منسلخ عن كل حادث أو عمل فانٍ. إنه عالم تيولوجي محض. لكن، كيف يمكن لعالم خينوبيبا، عالم «لحظة النشوة الخيالية المحضة»، لمفارقته الواقع

والعـودة إليـه، أن يكون على صلة بذلك العـالم؟ ذلك أن صاحب الخيال والأحلام يظل إنساناً حقيقياً واقعياً. لكنه، إذا تخيّل وحلم ازدوج في نسخة طبق الأصل من ذاته. نسخة طبق الأصل ذات استقلال كامل، ما استطاعت الحفاظ على الحلم أو الخيال حياً. وإذا فقد هذان تلاشت الصورة المطابقة للأصل. فالواقع لا يستطيع السيطرة أبداً على لعبة التشابه هذه.

في مسرحية البيت ذي الشرفات السبع، يلعب أليخاندرو كاسونا بهذه العوالم الثلاثة، ويتصرّف بها حتى الكمال، ويبقيها في مناخاتها الملائمة لها، ويستخلص من التناقضات بمدى صحيح، القيمة الذاتية للإنسان والشعر الخالد بفعاليتهما القصوى. لكن كاسونا يجعلنا ندرك بوضوح الترتيب الذي يعنيه من هذه العوالم. وهو التالي: اللاواقع، لكنه ذو حقيقة مطلقة وهو عالم أورييل؛ اللاواقع، لكن دون حقيقة ممكنة في العقل، وهو عالم خينوبيبا؛ ثم عالم الروزنامة والخطيئة والتوبة ثم العودة إلى الخطيئة. ربما كان يعنيه أكثر من ذلك أن يظلّ أبطال هذه العوالم أوفياء مخلصين دون هوادة ولا انحراف، لعوالمهم النموذجية، وهذا يعني أن أورييل لن يتأثر بالأوهام الباطلة، ولا الرغبة في «خبزنا كفاية يومنا»؛ وأن الخالة خينوبيبا لن تهتم ذات مرة واحدة بمطالب الواقع الذي تفرّ منه على شكل متقطّع، ولا تريد، أولا تستطيع-

بلوغ هذه المنطقة الضبابية التي يسعى إليها أورييل انطلاقاً من الواقع؛ وأن رامون وآماندا لن يشغلا نفسيهما مطلقاً في فهم «هذا الجانب الآخر» الذي يحسبانه موجوداً في حياتي العانس والشاب الشاحب، ويصفانه على شكل مبتذل، بكره البشر عند هذا، وبالجنون عند تلك.

أدرك أن نجاح كاسونا الفائق، نجاح هذا (المايسترو) المسرحي الكبير ليس في أنه استطاع الفصل بوضوح بين هذه العوالم الثلاثة، وجعل كلاً من أبطالها مخلصاً للعالم الذي ينتمي إليه، وإنما في جَعْلِ هذه المخلوقات تتجاور، وتتحاور، وتتنابز، وتتبادل التهديد، وتتحابّ، وتتباغض وتتضام للحفاظ على موقف حيوي وتقديمه لنا محمّلاً بأصداء وآثار من تلك العوالم المتنافرة جداً: التوق إلى حياة واقعية أكثر وضوحاً ونقاء؛ وشاعرية فانتازيا مريضة؛ وقوة نثر تقوم على مبدأ الضرورة والحاجة. يُخيل إليّ أن كاسونا حرصاً منه على أن يكمل عملُه الدرامي رسالتَه على خشبات المسارح ويثير المشاعر- انطلاقاً من الواقع- ويشغل الذهن- في البحث عن الخلود، ويبدع عاطفياً بالفانتازيا، رأى من اللازم أن يلتقي ممثّلو هذه العوالم الثلاثة في مكان «منظور وملموس وملائم»، حيث يستطيعون التعبير عن أنفسهم بانسجام لا يعدو كونه مؤقّتاً ريثما تنتظم الأمثولة التي ينشدها الكاتب، عن طريق تقديم التنازلات الضرورية.

إن عرض هذه المخلوقات الموحية والمحافظة على عوالمها بسلّماتها وامتيازاتها، عرضاً فذاً، لا يكفي برأيي لمنح هذا العمل القيمة الضخمة التي أوليه إيّاها. أوريبل يتوق ببساطة إلى أن يفتح باباً... ويخرج. والخالة خينوبيبا تتوق ببساطة إلى أن تطفىء الأضواء... وتحلم. أما آماندا ورامون فيتوقان ببساطة إلى أن يعيشا... متشبّثين بنزواتهما وبالخيرات المادية. ماذا تعني هذه الرغبات المتباينة؟ ولِمَ يتحتّم أن يجتمع الذين يحسون بها ويرعونها في مكان واحد، وأن يتقاسموا مناخاً واحداً، ويهاجموا بعضهم بعضاً ويزدروا بعضهم البعض؟ ما هو قصد مؤلفنا الدرامي وما هو المغزى الذي يريد أن يستخلصه من ذلك؟ ذلك أن المخلوقات البشرية في كل مكان وفي كل عصر كانت وما زالت وستظل تحدوها الرغبة إما في تجاوز حيواتها، أو التمرّغ في أحضان هذه الحياة والتمتع بملذّاتها. فما إن تحتكّ هذه الفئات الثلاث مع بعضها، وقد احتكت وما زالت وستظل تحتك على شكل محتوم ـ حتى تتنافر وتتفرّق باتجاه مصائرها، وتمثّل رموزاً كما في مسرح ديني، وهي على التوالي: الروح والخيال والجسد، القوى الثلاث المتصارعة دون كلل فيما بينها، وكل منها يحدوه دافع شرس: الجسد يسير مولياً ظهره الموت؛ والروح تسير في مواجهة الموت؛ والخيال يسير بعيداً عن الموت. والحقيقة هي

أن مقدّمات هذه العوالم الثلاث لا توجد في حيّز جغرافي فقط وإنما بالإمكان داخل الشخص ذاته، إضافة إلى حتمية تباعدها باتجاه سيطرة عالم منها على العالمين الآخرين سيطرة ضرورية إن لم تكن استبدادية. ولا يمكن لهذه العوالم أن تغيب عن هذه الحياة أو أية حياة أخرى. العالم الأول يوجد عن خطة وتصميم؛ والعالمان الآخران بالولادة والفطرة. وإمّا لا، فسيكون انتقاصاً من عملِ الله تعالى. وأرى الآن أن القضيّة التي يطرحها كاسونا في البيت ذي الشرفات السبع هي قدرة الإنسان على تجاوز بؤس طينه، إمّا بواسطة الفانتازيا المشعّة ـ الشعر ـ وإما برغبة نبيلة في الخلود ـ بواسطة إيمان غير محدود. وإنّ في سيادة ـ عالم الروح أو عالم الشعر على عالم الوقائع سرّ السعادة الحقيقية أو السعادة المبتكرة على التوالي.

إذا تحدّثنا عن أيّ عمل من أعمال كاسونا لا ضرورة للتأكيد على إتقانه طرح الموضوع، والعرض والحلّ. ولا على جمال الوسط والمناخ جمالاً مدهشاً -بالرسم والتلوين- ولا على مصداقية كل شخصيّة مصداقية كاملة. في مسرحية البيت ذي الشرفات السبع، كما في معظم أعمال المؤلف نرى الشخوص والموضوع والوسط والحوار ملوّنة ومشبعة بغنائية مؤثرة سرعان ما تنتقل إلى القارىء أو المشاهد، وتغمره وتهزّ مشاعره وتعيّن له درباً تذكّره بالخلود على شكل مثالي.

المسرحية كلها مفعمة بصور جد أصيلة كما هي موحية. وغنائيتها تحتٌّ من نتوءات قد تبرز في موضوع مملوء بالقلق المزعج. «حيث يسود ضباب كثيف، كل يوم مشمس عطلة»، تقصّ خينوبيبا على أورييل: «الواحد اسم الله؛ والثلاثة الثالوث المقدّس. الخمسة جراح المسيح. السبعة آلام العذراء. والاثنا عشر الحواريون. وهي الأعداد الحقيقية وحدها».

يسأل أورييل شبح آليثيا: «كيف العبور إلى جانبك؟ كيف يُحطّم هذا الزجاج؟ ألم يحظروا عليك أن تقولي لي السر؟ لابدّ من وجود ممرّ مخفيّ، باب سرّي ... شيء ما!»

فديريكو كارلوس سايِنس روبلس

شخوص المسرحية

خينوبيبا

آماندا

الأم

روسينا

آليثيا

رامون

أورييل

دون خيرمان

الجد

أنطون

الفصل الأول

الطابق الأول في البيت ذي الشرفات السبع، وهو بيت نبلاء وسط بلدة صغيرة في شمالي إسبانية. في الجانب الأيسر باب كبير ذو ألواح يطلّ على الخارج. في الجانب الأيمن بابان يطلان على الداخل. في الجانب الأيسر من الخلفيّة مدفأة جدارية على شكل جرس مع حلّة من النحاس فوق النار. في الزاوية الواقعة بين المدفأة والباب الكبير، مقعد طويل ورفوف تتلألأ فوقها آنية نحاسية وخزفية ثمينة، ودلو خشبي أو جرّة لحفظ الماء. في الجانب الأيمن من الخلفية درج له درابزين مصقول ينثني ثم يضيع باتجاه الغرف العليا. منضدة من البلّوط وبعض الكراسي والمقاعد الخشبية.

دون خيرمان وآماندااوروسينا وأوريبل. دون خيرمان طبيب ريفي في السبعين من عمره وذو تجربة مستقرّة يجلس إزاء فنجان من القهوة ناظراً بإمعان إلى أوريبل المغرق في انشغاله عنهم والجالس مبتسماً على الأرض وقد قاربَ أن يفرغ من ضبط أشرعة قارب كبير وأمراسه حتى صار أكثر من مجرد لعبة، بل هو عمل حرفيّ متقن. بين حين وآخر يرفع قاربه وينظر إليه راضياً ويتابع عمله في صمت غائباً عمّا

يحيط به غياباً كاملاً. هو فتى شاحب اللون في الثامنة عشرة من عمره. آماندا امرأة جميلة في أوج شبابها. ثيابها دون ثياب سيدة، وفوق ثياب خادم. تنظر مرة إلى دون خيرمان ومرة إلى أوريل في صمت. روسينا شابّة ريفية هبطت حديثاً من الجبل ذي الهواء النقي، تلمّع آنية نحاسية جالسة عند النار. لحظات سكون طويلة ينظر أثناءها دون خيرمان إلى أوريل وآماندا إلى دون خيرمان.

آماندا: يقيناً بردت مرة أخرى. (**صمت**). دون خيرمان! ... (**تدنو منه**).

خيرمان: أكنت تنادينني؟

آماندا: أقول بردت قهوتك مرة أخرى.

خيرمان: لا تهتمّي! هي جيدة هكذا.

آماندا: والغليون المُطفأ، أهو جيد هكذا أيضاً؟

خيرمان: هو كذلك.

آماندا: أو تظنّ أنك ستجني شيئاً من إمعانك في النظر إليه؟

خيرمان: آمل دائماً أن أرى ما يدور داخل هذا الفتى بإدامة النظر إليه مرة بعد أخرى.

آماندا: ثقْ بأنك لن تجد شيئاً. هو حجرة فارغة.

خيرمان: على العكس من ذلك، ربما كان عالماً قائماً بذاته جدّ بعيد وجد مختلف عنا! كيف يمكن لإنسان مثله يملك كل الأفكار ولا يستطيع النطق بكلمة واحدة؟

آمـانـدا: أتسألني أنا؟

خيرمان: أسأل نفسي.

آمـانـدا: كثيرون يولدون هكذا دون قدرة على النطق.

خيرمان: ليسوا سواء. بعضهم لا يتكلم ولكنه لا يفكر أيضاً. لكن آرييل، نعم، يفكّر على شكل عجيب.

آمـانـدا: وكيف تعرف ذلك؟

خيرمان: من نظرته. إذا فكر في شيء جـمـيـل، تزداد عـيناه الزرقاوان زرقة.

آمـانـدا: على كونك طبيباً، أنت مسرف في الأوهام.

خيرمان: الخالة خينوبيبا تـفـهـم كـل شيء منـه بمجرد النظر إلى عينيه.

آمـانـدا: وهي الأخـرى تفيض أيضـاً بالأوهام. أمـا أنا الثابـتة القدم في الأرض، فلم أستطع فهمه قطّ.

خيرمان: طبيـعي! أنـت لا تحبينه. ولـو كـان الأمـر في يدك، لما ظلّ هنا منذ أمد بعيد.

آمـانـدا: إذا كنت لا تستطيع صنع شيء نافع له، أفلا توجد في العاصمة مدارس من أجل هذه الحالات؟

خيرمان: لا، يا آمـاندا. وعليك أن تألفي هذه الفكرة، مـهـمـا تبدُلك غريبة: أوريبل ليس من أولئك الفتيان الذين

يحتاجون إلى تعلّم القراءة بالشفاه والكلام بالأيدي. هذه حالة لا يفيد فيها طبيب ولا مدارس.

آماندا: ما هي، إذاً؟

خيرمان: هي شيء أشد عمقاً وإقلاقاً. هي سرّ.

آماندا: بالأسرار لا يمكن الحصول على نتيجة. أطباء العاصمة يعلمون عن هذه الحالة أكثر مما تعلم.

خيرمان: شكراً لك.

آماندا: معذرة! لم أقصد الإساءة إليك. أقول: عندهم كتب أكثر مما عندك.

خيرمان: لم تسيئي إليّ. أنا طبيب هذه البلدة منذ بداية مهنتي. وقمت بتوليد أبنائها واحداً بعد الآخر، وضمّدت جراحهم، وشهدت موت موتاهم جميعاً. وأقسم لك إنّ من شهد ولادة أفراد بلدة وحضر موتهم، لن يجد في الكتب غير النزر اليسير.

آماندا: وإن يكن كذلك. فإذا كان الفتى لن يخرج من خرسه، وإذا كان الأب غنياً وقادراً، أليس من الخير له أن يُرسل إلى هناك؟

خيرمان: لا، يا آماندا، لا. ربما كان من الخير لك أنت لو أُرسل. وهذا أمر مختلف.

آمـانـدا : أنا؟ ماذا تريد بقولك؟

خيرمان : (ينهض . بصوت أصم) . ألا يكفيك؟ أينبغي لي أن أضيف إنه يقف عائقاً أمامك؟ ألن تشعري بالسعادة لو رأيتـه يغـادر البيت إلى أحـد تلك المآوي البـاردة حيث يقضي كثير من الفتيان من أمثاله غماً منكمشين ناظرين إلى بعضهم البعض بصمت؟ !

آمـانـدا : غير صحيح !

خيرمان : بـــل صـحـيح . فـوق ذلـك، أتريـدين أن أقــول لك السبب؟

آمـانـدا : (تتماسك، وتهز كتفيها) . مـــالك ولـي، دون خيرمان! وبعـد كـل شيء لستُ هنا كيما أريـد . أنـا هنا للشغل .

خيرمان : (بجفاف .) إذاً، لا تتركي شغلك من أجلي .

آمـانـدا : لابـأس عـلـيـك! (لروسـينا وهي تسـير باتجـاه باب الجانب الأيمن) . قومي على خدمة السيد إن احتاج إلى شيء .

روســينا : سأفعل، سيدة آماندا .

خيرمان : (ناظراً إلى ساعته) . في أيــة ســاعـة يرجع السيـد رب البيت؟

آمـانـدا : رامون؟

خيرمان : أنا قلت رب البيت .

آماندا : (**بجفاف أيضاً**). ولِمَ عليَّ أن أعرف ذلك؟ أم لعل السيد رب البيت يطلب مني إذناً في الدخول والخروج؟ (**تخرج. يتلمّس دون خيرمان جيوبه ليشعل الغليون. تهرع روسينا بقبس من النار، أو بعود ثقاب**).

خيرمان : شكراً لك، يا روسينا. (**يشعله ممسكاً بيدها**). ماذا بكِ؟ أتشعرين بالبرد؟

روسينا : لا، يا سيدي.

خيرمان : (**يرفع يده عن يدها التي ماتزال تمسك بعود الثقاب المشتعل**). إذاً، لِمَ ترتعد يدك؟

روسينا : لا أدري! لعله الخوف.

خيرمان : خوف؟

روسينا : لا، ليس خوفاً أيضاً. بل شيء كالبرد يخترق جسمي.

خيرمان : لكن، ماذا جرى لك؟

روسينا : أنا جديدة في هذا البيت ولم آلفه بعد. أنا أحبّ أوريبل وخينوبيبا حباً جماً؛ ومع ذلك، هما مختلفان جداً عن سائر سكان البيت، حتى يثيرا فيّ شيئاً غريباً أو خوفاً غريباً كالخوف الذي يثيره الليل.

خيرمان : اطمئنّي. أي خوف يمكن لهذا الفتى أن يثيره فيك؟

روسينا: أفكر فيما يعانيه أن يرى نفسه على هذا الوضع.

خيرمان: ولِمَ؟ انظري إليه: ما أسعده بقاربه!

روسينا: لكنه لا يستطيع الكلام. وإذا كان لا يستطيع الكلام، فكأنما يعيش وحيداً دائماً. أأنت واثق بأنه لا يعاني في داخله؟

خيرمان: آمل ذلك.

روسينا: أو يستطيع التفكير مثلنا؟

خيرمان: ربما خيراً منا وبصفاء أكبر.

روسينا: كان في قريتي شاب مثله لا يتكلّم، لكنه ماكان يفكر؛ كان على عينيه ما يشبه الغشاوة. وإذا شرب كان يتزلق الماء من بين شفتيه.

خيرمان: أورييل مختلف عنه اختلافاً تاماً. كوني مطمئنة.

روسينا: أليس مريضاً؟

خيرمان: أتعرفين حفيد الحداد؟

روسينا: ذاك الذي يفتقد ذراعاً؟

خيرمان: ومع ذلك، لا تسمينه مريضاً، أليس كذلك؟ حفيد الحداد صبيّ سليم البدن سلامة تامة، وإن كان دون ذراع. وأورييل سليم الروح تمام السلامة، وإن كان ينقصه الكلام.

روسينا : صبيّ قريتي كانت العجائز يلمسنه بأطراف أناملهن إذا مررْنَ به، كما يلمس جرن الماء المبارك في الكنيسة، ثم كنّ يقبّلن أناملهن. **(تخفض صوتها، مقتربة من أورييل وناظرة إليه كأنما يستطيع أن يسمعها)**. يقال إن الذين يولدون هكذا أقرب إلى الصلاح من الآخرين، لكنهم يموتون قبل أن يصبحوا رجالاً. أحقاً ذلك؟

خيرمان : ربما!

روسينا : أوتؤمن به؟

خيرمان : لا، لا أؤمن. إنما يسرّني أن أحترم ما يؤمن به الآخرون. أهذا مصدر خوفك كله؟

روسينا : لا، هناك شيء أخطر... شيء غامض يجعلني لا أنام. أورييل لا يكلّم أحداً. لا يكلّم أباه، ولا آماندا ولا يكلّمني... لا يكلّم أحداً كلمة واحدة. لكنه، نعم، يكلم الخالة خينوبيبا.

خيرمان : من حكى لك هذه السخافة؟

روسينا : لا أحد، بل رأيتهما بعيني.

خيرمان : **(فزعاً)**. أنت...؟ **(يدنو منها)**. أأنت رأيت أورييل يكلّم الخالة خينوبيبا؟

روسينا : افهمني: هو لا يكلمها بالمعنى الكامل للكلام، لا. لكنهما يتحادثان دون حاجة إلى الكلمات.

خيرمان : (يهدأ روعه). آه! أهذا هو كل شيء؟ ظننتك اكتشفت شيئاً جديداً.

روسينا : أكنت تعلم ذلك، يا سيدي؟

خيرمان : إذا ارتبط شخصان اثنان برباط وثيق من الحب الصادق، فليسا بحاجة إلى الكلمات. تكفيهما لغة العيون.

روسينا : لكن، لا يا سيد خيرمان، ليس كما تقول، بل هو أبعد من ذلك. إنهما يلعبان الورق ويضحكان معاً، ويقصّان على بعضهما كل شيء. وإذا اغتمّ أحدهما، ظل الآخر ينظر إليه وينظر وينظر إلى أن ينقلبا ضاحكين. إنهما يتحادثان يا دون خيرمان! وأقسم إنهما يتحادثان سراً إذا لم يجدا أحداً.

خيرمان : أعلم ذلك. وهي نفسها بيّنت لي الأمر.

روسينا : أبيّنته لك؟

خيرمان : أمّا ما لا أعرفه، فهو هذا المقدار الهائل من الحب اللازم لتحقيق هذه المعجزة. لكنّ الخالة خينوبيبا ترى كل ما يختلج في داخله، وكأنها تنظر إلى ما وراء زجاج، وتسمعه أيضاً إذا ما استغرقه التفكير وكأنه يفكّر بصوتٍ عالٍ.

روسينا : أويمكن سماع التفكير؟

خيرمان : هي تسمعه؟

روسينا : وأبوه؟ والآخرون؟ وأنا؟

خيرمان : لا يسمعه أحد سوى الخالة خينوبيبا .

روسينا : إذاً، هي معجزة؟

خيرمان : ولم لا؟

روسينا : لكن السيد الكاتب يقول بعدم وجود معجزات ، وهو رجل درس كثيراً .

خيرمان : لم يدرس دراسة كافية .

روسينا : وأنت، أتؤمن بحصول معجزات في يومنا هذا؟

خيرمان : أجيبيني أولاً : كم عمرك؟

روسينا : سبعة عشر عاماً .

خيرمان : أنت وحيدة، أليس كذلك؟

روسينا : لو لم أكن وحيدة لما عملت خادماً .

خيرمان : متى تستيقظين؟

روسينا : عند صياح الديك الثاني ، أي قُبيل شروق الشمس .

خيرمان : وماذا تعملين؟

روسينا : وماذا تتوقع منّي؟ أعمل الأشياء المعروفة : الترتيب ، والكنس والغسل وتنظيف الإسطبل وجلب الحطب، وغيرها .

خيرمان : وبعد العمل؟

روسينا : بعد العمل؟ أظل أعمل.

خيرمان : أقصد أيام الأحد والأعياد... أخيراً، إذا وجدت ساعة واحدة حرة، وجدت نفسك وحيدة، ماذا تصنعين؟

روسينا : حينئذ، يتملكني فرح كبير جداً فأهرع إلى غرفتي وأفتح النافذة وآخذ بالغناء بقوة حتى يسمع صوتي من بعيد. لم تسألني؟

خيرمان : لا لشيء! (يرفع وجهها بين يديه.) كنت أرغب في معرفة شكل وجه معجزة ناظراً إليها من قريب. (يربّت على وجنتها. وينظر مرة أخرى إلى ساعته. ينفض غليونه ليحفظه ويستعدّ للخروج). إذا جاء معلمك، قولي له إنني لم أستطع الانتظار أكثر مما انتظرت. (تظهر الخالة خينوبيبا في الباب متألقة. هي امرأة ذات جمالٍ ذاوٍ، لكنها مملوءة سحراً وبسمات، وانعدام صبر شديد. تلبس ثياباً فاتحة اللون جميلة، وطرحة بيضاء مخرّمة بخيوط الحرير أو خيوط من فضة. وتضع في شعرها دبوساً كبيراً، وتحمل في يدها سبحة وكتاب قداس ومروحة صغيرةً من الصدف، أورييل الذي كان حتى تلك اللحظة غائباً غياباً مطلقاً ينهض سعيداً حين يراها مقبلة، ويريها قاربه).

المذكورون سابقاً وخينوبيبا

خينوبيبا : دون خيرمان، يا غالي!

خيرمان : عزيزتي خينوبيبا! أراك اليوم أجمل مما أنت عليه في أي وقت آخر.

خينوبيبا : لِمَ تقول من أي وقت آخر؟

خيرمان : عفواً! أعني، أنت جميلة دائماً.

خينوبيبا : ماذا جرى لك أخيراً، حتى تجفونا هذه الجفوة؟ لعلّ ما جاء بك اضطرارك لعيادة مريض في هذه الأنحاء؟

خيرمان : أنا أقطن بعيداً جداً، وأعيش وحيداً.

خينوبيبا : لهذا السبب أسألك. أيوجد بيت أخصّ بك من هذا البيت؟ عزيزي أوريبل! (**يصل الشاب ويريها فخوراً عمله المنجز.**) أأنجزته تماماً؟ ما أروعه! هو مدهش! (**تأخذ القارب وتبدي إعجابها ناظرة إليه من كل الجوانب**). أتنبّهت؟ صنعه وحده دون نموذج يقتدي به. هو قارب شراعي، أليس كذلك؟

خيرمان : أظنه فرقاطة.

خينوبينا : وما الفرق؟ سواء أكان قارباً شراعياً صغيراً، أم بساريتين أم فرقاطة أم قادساً، فكلها معدّة للبحر! (**تعيد القارب إلى أوريبل وتحيي تحية عسكرية**

بالمروحة.) بالأمر، سيدي القبطان! القارب الثاني سيكون أكبر، والثالث سنبحر فيه! **(يعود أوريل إلى مكانه ليجمع المقطلة والأمراس... الخ)** أقمتِ بخدمة السيد جيداً؟

خيرمان : لم ألقَ رعاية خيراً من رعايتها. إنها فتاة عظيمة! وقد أحبّتكما كليكما حباً جماً خلال الأسابيع القليلة التي مكثتها هنا.

خينوبيا : **(دهشة بفرح).** أتحبّنا نحن ؟ أو تحب أوريل أيضاً؟

خيرمان : تحبّه على وجه خاص.

خينوبيا : **(تقترب من روسينا).** أو تحبّين أوريل؟

روسينا : لا أدري إن كان ما أشعر به يسمّى حباً. إذا رأيته محدقاً بإمعان أرغب في الاقتراب منه وألمسه بأطراف أصابعي وأقبّل يدي، كما تفعل عجائز بلدتي. يثير فيّ حزناً كبيراً أن أراه بهذا الوضع!

خينوبيا : آه! ولا كل هذا، أنا أمنعك منه! لا، للحزن! نحن- آل البيت ذي الشرفات السبع- لا نطلب شفقة ولا نرضى بها، قولي إنك تحبينه وكفى.

روسينا : أحبّه! **(خاشعة الطرف يكاد يغيب صوتها).**

خينوبيا : أهكذا قلتها له؟

روسينا : له؟ وكيف يمكنني أن أقول له شيئاً ؟

خينوبيبا : لا تبالي! أنا سأقولها له الآن . **(تأخذ بنزع دبابيس الطرحة، وتعود قريباً من السيد دون خيرمان)**.
ليتك رأيت جمال البحر والشمس طالعة عليه!

خيرمان : أكنت في المرفأ؟

خينوبيبا : ذهبت إليه بعد أن حضرت القداس الكبير المرتّل مستمعة إلى الأرغن يعزف هذا المارش الفائق الجمال الذي يُعزف في الأعراس.

خيرمان : أكان عرساً؟

خينوبيبا : لم يكن عرساً. لكنّ عازف الأرغن يعزف هذا المارش احتفاءً بكل يوم مشمس يأتي بعد ضباب كثيف.

خيرمان : وهل أُلقيت موعظة؟

خينوبيبا : أفضل موعظة سمعتها في حياتي.

خيرمان : حول ماذا تدور؟

خينوبيبا : حول الفضائل التيولوجية الثلاث: الأمل، والأمل ثم الأمل.

خيرمان : **(مبتسماً)**. ولا شيء عن الإيمان والإحسان؟

خينوبيبا : يقيناً تحدّث الكاهن عن ذلك، لكنّ ما قاله عن الأمل كان جميلاً جداً حتى لبثتُ متفكرةً ولما أردت التذكر كان قد أنهى خطبته. **(تتجه صوب الفتى)**. أوربيل!

(تضع يديها على كتفيه، وتنظر إليه بإمعان. ويقوم هو بإيماءة ايجابية. يسلمها القارب ويأخذ بدلاً منه الطرحة ودبوس الشعر والسبحة والكتاب ويتجه صوب السلم. توقفه ناقرة بالمروحة على كتفه، وتضيف). انتظر! معذرة، يا روسينا. لقد نسيت. (تنظر مرة أخرى إلى الفتى بإمعان. ينظر أوريل إلى روسينا دهشاً، ويسأل خينوبيبا من جديد بالنظر. وتؤكد له هذه باسمة، يتقدم أوريل حينئذ ببطء نحو الفتاة. تتراجع روسينا بردّ فعل غريزي وسط الانفعال والدهشة. يطلب أوريل مرة أخرى، مشورة خينوبيبا بالنظر. يمدّ يده إلى روسينا). أجيبيه، يا روسينا.

روسينا: (يغيب صوتها). بماذا أجيب؟

خينوبيبا: ألا ترين أنه يقدّم لك الشكر.

روسينا: لي؟ (تمدّ يدها دون أن تعثر على الكلمات، مرددة). شكراً! (أوريل يشد على يدها بقوة بين يديه، ثم يجري سعيداً صاعداً السلم، قافزاً الدرجات درجتين درجتين. ترسم روسينا شارة الصليب خفية وبسرعة. خينوبيبا تتكلم متفكرة دون أن تنظر بينا تجتاز الخشبة لتضع القارب على المقعد في الزاوية).

خينوبيبا : قل لي، سيد خيرمان، إذا تعلّم ذات يومٍ أن ينطق بكلمة واحدة أية كلمة، ألن تصبح الكلمات الأخر أسهل؟

خيرمان : أفترض ذلك، ولمَ؟

خينوبيبا : لأنني آخذة بتعليمه كلمة ... كلمة واحدة، ... كلمة هذا البيت الكبرى. ولابدّ له من أن يتعلّمها! (**تلتفت وكأنها عائدة من غياب**). أين وصلنا؟

خيرمان : عند خروجك من الكنيسة.

خينوبيبا : آه! نعم. الأرغن ومارش الزفاف، ثم المرفأ والشمس.

خيرمان : أكان فيه مراكب كثيرة؟

خينوبيبا : من كل البلدان، رافعة كل الرايات ... كلها ماعدا المركب الذي يجلب الرسائل. لذلك، أحمل مروحة الصدف بدلاً من المروحة الكبرى.

خيرمان : أيوجد فرق بينهما؟

خينوبيبا : لكن، سيد دون خيرمان، ما لهذه الأسئلة التي تطرحها! المروحة الكبرى تصلح فقط لأروّح بها الهواء على نفسي. أما هذه فهي مروحة الانتظار.

خيرمان : معذرة!

خينوبيبا : كيف يمكن لهذا المركب أن يتأخر كل هذا الوقت؟

خيرمان : أمريكة بعيدة جداً .

خينوبيبا : لكنها لم تتزحزح عن مكانها . من قبل كان يحتاج إلى أسابيع كيما يصل . أما هذه المرة فيبدو لي أنه مكث قرناً .

خيرمان : أهذا كل ما انتفعت به من قداسك المشهور عن الأمل؟

خينوبيبا : أنت على صواب ، ومعذرة . أأنت ذاهب؟

خيرمان : مرضاي يحتاجون إليّ (للدردشة) معهم .

خينوبيبا : «للدردشة»؟

خيرمان : صارت الشيء الوحيد الذي أؤمن به . أبدأ العلاج بالمراهم الغالية الثمن أولاً ، ثم أجرّب الأعشاب ، وفي النهاية أكتشف أن الكلمة تظلّ خير دواء . المسألة هي ألا تقفي عائقاً بل اتركي المرضى كي يشفوا بهدوء . وداعاً خينوبيبا .

خينوبيبا : لحظة! أجبنيَ أولاً :

ما شجرة ، ما شجرة ،

ليست صنوبرة ولا تفاحة

ولا فستقاً ولا سروة؟

خيرمان : (ضاحكاً) . أأحاجيّ مرة أخرى؟

خينوبيا : ليست أحاجي، أقسم لك. أجبني من فضلك.

خيرمان : جوزة؟

خينوبيا : قلت لي جوزة عشرين مرة. لكن الجوز من أشجار المنطقة وهذه لا تصلح. لابد من أن تكون شجرة نادرة، جميلة ومن مكان بعيد.

خيرمان : نخلة؟

خينوبيا : أبعد منها.

خيرمان : إيبانوس؟

خينوبيا : إيبانوس، إيبانوس، إيبانوس... في أي بلد الإيبانوس؟

خيرمان : في الحقيقة لست واثقاً تمام الثقة. لكنه ليس من أشجار المنطقة.

خينوبيا : ألا تعرف شجرة أبعد منه؟

خيرمان : الصندل؟

خينوبيا : ولا هذا أيضاً. عبثاً تحاول. الأشجار الثلاثة ثمينة لكن أياً منها لا تصلح. على كل حال، شكراً لك، دون خيرمان. إلى اللقاء متى؟

خيرمان : إلى اللقاء دائماً، يا بنيتي. **(يخرج. تودعه خينوبيا من الباب الكبير ملوحة بمروحتها.**

تعود متفكرة وتسعى إلى وضع المروحة إلى جانب القارب).

خينوبيبا : نخل ... ، وإيبانوس وصندل ... كم يؤسفني ألا تصلح واحدة منها! **(لروسينا التي استأنفت تلميع الحلة النحاسية)**. اتركي هذا الشغل. العمل يوم الأحد خطيئة.

روسينا : أوافقك، يا سيدتي. لكن اليوم جمعة.

خينوبيبا : جمعة؟ من قال لك هذا؟

روسينا : مكتوب في التقويم.

خينوبيبا : ياه! في التقويم أشياء كثيرة. لكنني أكثر إعجاباً بيوم الأحد.

روسينا : وأنا أيضاً يا سيدتي. لكن اليوم جمعة.

خينوبيبا : خلّيها! في البلدان التي يسودها ضباب كبير، كل الأيام المشمسة آحاد. دعي الشغل، واشطبي يوم الجمعة.

روسينا : أشطبه؟ وكيف؟

خينوبيبا : كما شطبته. كل ما هو بشع وفظ غليظ يُشطب، والسلام عليكم. أتسمعين كلمات السيد البذيئة حين يشتمني؟ اشطبي السباب. أترين النساء اللاتي يتغامزن حين أمرُّ بهن؟ اشطبي العيون. وهذه المرأة

التي تعيش بيننا داخل البيت ... هذه المرأة الشريرة ... هذه شطبتها شطباً كاملاً. أتفهمين الآن؟

روسينا : (**تنفي. وتؤكد نفيها بهزّ رأسها بإصرار**). لا، يا سيدتي. (**تتجه خينوبيبا صوب السلم. تتوقف ثم تعود**).

خينوبيبا : انتظري، يا كذابة، انتظري! إذا لم يكن هذا اليوم أحداً فكيف حضرتُ القداس الكبير؟ (**تطأطىء روسينا رأسها دون أن تجرؤ على الرد. تتقدّم خينوبيبا مصمّمة، ثم ترفع رأسها**). لا تخفضي عينيك! أجيبي.

روسينا : لايمكن للسيدة أن تكون حضرت القداس الكبير.

خينوبيبا : آها! ولِمَ؟ إذاً، من أين مُلىء سمعي بمارش الزفاف لما كنتَ في المرفأ.

روسينا : ولا يُعقل يا سيدتي، أن تكوني ذهبتِ إلى المرفأ.

خينوبيبا : ولِمَ لا؟

روسينا : لعدم وجود مرفأ هنا.

خينوبيبا : ألا يوجد؟ ولِمَ لا يوجد مرفأ؟

روسينا : لأننا لسنا على البحر.

خينوبيبا : غير ممكن.

روسينا : نراه فقط من أعلى هضبة بينيا آلتا، لكنه يظلّ بعيداً.

خينوبيبا : ورائحة الطحلب البحري التي تعبق بغرفتي كل ليلة؟ وهذه المراكب العابرة؟

روسينا : هي تعبر عبوراً، لكنها لاترسو ولا تستطيع الرسوّ.

خينوبيبا : إذاً، ليس لدينا مرفأ ولا بحر. لكن، كيف تصل الرسائل المرسلة من أمريكة؟ والرسائل التي كنت أتلقّاها من قبل، أما كان يجلبها أحد المراكب؟

روسينا : أنا أعلم فقط أنها تصل أحياناً، لكنني لا أعرف من يجلبها ولا من أين تأتي.

خينوبيبا : (**ينتابها قلق مباغت**). لا، يا روسينا، لايمكن لذلك أن يكون. إحدانا مخطئة ... ولا مناص من أن تكوني أنت، لأنك ماتزالين شابّة. ألا تدركين أني لو كنت مخطئة لكان أمراً خطيراً؟ ما هذا اليوم؟

روسينا : جمعة!

خينوبيبا : نعم، نعم، أعلم أنه جمعة، لكن، ما هذا الشهر؟ ما هذا العام؟

روسينا : شهر تشرين الأول من عام ألف وثمانمئة وتسعين.

خينوبيبا : ثمانمئة وتسعون! (**تتنهّد مرفّهة عن نفسها**). أرأيت أني لست مخطئة؟ لكن ما أعجب أن ينفذ الوقت

بالانتظار، إذا كنت أكبر منك قليلاً لما رحل خطيبي! فقد أبحر منذ سبعة رسائل فقط. وأنا وُلدت في منتصف القرن تماماً. تاريخ محال أن يُنسى. أتنبّهت؟ في منتصف القرن تماماً. عام ١٨٥٠. (تتوقف فجأة بهلع، دون أن تنظر). في أي عام نحن؟

روسينا : في عام ثمانمئة وتسعين.

خينوبيا : (منقبضة النفس. وبصوت أصم). لا تصلح، اشطبيها. **(تحس روسينا بالدموع تطفر من عينيها. وتهرع ناحية الباب الكبير. توقفها خينوبيا دون أن تتحرك وإنما تأمرها بصوت صارم)**. قفي! إلى أين أنتِ ذاهبة؟

روسينا : إلى أي مكان! سأخرج.

خينوبيا : ولِمَ تريدين الخروج بهذه العجلة؟

روسينا : لأنني لا أستطيع مزيداً من التحمّل، لأنني كنت أريد أن أساعدك، لكني لا أصلح، أنا لا أصلح لشيء.

خينوبيا : على العكس من ذلك. أنت خير من يستطيع مساعدتي. لأنك نشأت في الجبل وتعرفين كل أشجاره. قولي لي!

ما شجرة، ما شجرة،
ليست صنوبرة، ولا تفّاحة
ولا فستقاً، ولا سروة؟

روسينا : سيدتي ...

خينوبيا : أجيبي! **(تبدأ سلسلة من اللاءات كل مرة أسرع وأشد حتى إثارة الغيظ).**

روسينا : كستناء؟

خينوبيا : لا!

روسينا : كرزة؟

خينوبيا : لا!

روسينا : حورة؟

خينوبيا : لا!

روسينا : بلوطة؟

خينوبيا : لا!

روسينا : دردارة؟

خينوبيا : لا!

روسينا : حور أسود؟

خينوبيا : لا!

روسينا : بهشيّة؟

خينوبيا : لا!

روسينا: غار؟

خينوبيا: لا!

روسينا: عرعر، صفصافة ... دبقة؟

خينوبيا: لا، لا، لا! أرضنا مملوءة بهذه الأشجار، ولا تصلح أبداً. اشطبيها! اشطبيها! اقطعيها كلها! هي شجرة غريبة، كبيرة، ومن مكان بعيد.

روسينا: لكن، يا سيدتي، كيف لي أن أعرف أشجاراً لم أرها؟

خينوبيا: عليك أن تعرفي مزيداً منها. تذكريها. ألا ترين أني إذا لم أعرف اسم هذه الشجرة، فلن أتلقّى رسالة من أمريكة؛ ومن غير هذه الرسالة لا أستطيع متابعة الحياة؟ (**تمسك بها من كتفيها وترجّها في نوبة من القلق خانقة صرختها**). اذكري لي كل الأشجار حتى تعثري على شجرتي. هيا! أسرعي! (**تنفجر روسينا باكية**). آه، لا! هكذا، لا! البكاء سهل جداً، وهذا ما قمت به ألف مرةٍ، ولم ينفعني شيئاً. لا أطلب منك دموعاً، وإنما أريد منك أشجاراً فقط. أجيبي، أقول لك! أجيبي! أجيبي! ... (**تظهر آماندا التي تقطع المشهد آمرة**).

المذكورتان سابقاً وآماندا

آماندا: دون فضائح! أصواتكما تُسمع حتى خارج البيت! اتركي الفتاة، واصعدي غرفتك! **(عند ظهور آماندا، تتماسك خينوبيبا وتتخذ مظهراً نبيلاً بارزاً ومترفّعاً بوضوح. تجيب موجهة الكلام إلى روسينا وكأنّ آماندا غير موجودة).**

خينوبيبا: ماذا جرى، يا روسينا؟ أدخل البيت أحد، أم هو هواء الشارع؟

آماندا: ألا تكفيك السخرية التي جعلتنا عرضة لها بلبسك طرحة بيضاء يوم الجمعة، وحملك مروحة صدف في الجبل؟

خينوبيبا: يهب الهواء اليوم صاخباً جداً. سيقلب كل شيء وسنضطرّ إلى العمل بقسوة لإعادة ترتيب البيت كما كان من قبل، أي بوضع كل شيء في محلّه وكل إنسان في مكانه.

آماندا: لا تُفقديني البقية الضئيلة الباقية من الصبر. أتريدين؟ اصعدي غرفتك!

خينوبيبا: ألم أقل ذلك؟ لكن، لا، ليتك تكفّين عن إصدار الأوامر لي في بيت أبي، وبيت جدي، وجد جدي. ألا يوجد رجل يتولّى الأمر هنا؟

آماندا: رامون لديه من المشاغل ما يفيض عنه.

خينوبيبا: رامون؟ منذ متى تدعو الخادمات سيدهم باسمه المباشر (رامون)؟

آماندا: منذ أن أراد هو ذلك، إن كنت راغبة في معرفة الأمر. من دواعي سرور السادة أحياناً أن يطيعوا أيضاً.

خينوبيا: روسينا، ألم تنسي شيئاً ما خارج البيت؟

آماندا: لديها عمل كثير داخل البيت.

خينوبيا: ألم تسمعي؟ قلت لك: اخرجي.

آماندا: وأنا أقول لن تخرج.

خينوبيا: لا أريد لها أن تسمع كلمة أخرى مما يُقال هنا. اخرجي!

آماندا: (آمرة). ابقي مكانك!

خينوبيا: اخرجي!

آماندا: ابقي!

خينوبيا: اخرجي! **(تنظر روسينا إلى واحدة وأخرى متردّدة خائفة. وأخيراً تخرج راكضة. تسير آماندا خلفها بضع خطوات).**

آماندا: روسينا! روسينا!

خينوبيا: **(تتنفس وقد استراحت)**. لابأس عليّ! كما أرى مايزال شيء ما في هذا البيت في مكانه.

آماندا: أتحسبين هذه الجبلية الناشئة بين الماعز أنها ستتعلم منك شيئاً جديداً؟ **(تدنو منها شاتمة)**. أم أنك لا تريدين أن تسمعي؟

خينوبيا: لا تتعبي نفسك معي. لم يبق في جعبتك كلمة قذرة يمكنك أن تقذفيني بها. ألم تلحظي بعد أنك غير موجودة؟ وأني قد شطبتك شطباً كاملاً؟

آماندا: أتستطيعين أيضاً شطبَ اليوم الذي يحوي أربعاً وعشرين ساعة، سلطة الأفندي رب البيت فيها لا تتجاوز ثلاثاً وعشرين ساعة، وتظل ساعة واحدة لم تعرفيها، ولن تعرفيها أبداً تجري فيها الأوامر دون كلمات، وإنما بالأذرع في الظلام وبرائحة الشعور المعوطة؟ أليس هذا ما يؤلم العوانس أن يسمعنه؟

خينوبيا: (بانقباض). كفاك! (تتماسك مرة أخرى). لو أُرسلتِ ذات مرة إلى مدرسة لتعلّمت كيف تتصرفين كسيد محترم.

آماندا: (تضطرب للحظة). كسيد محترم؟

خينوبيا: بالضبط، لأن السادة المحترمين لا يتكلّمون عن بعض الأمور بحضور امرأة. **(تتجه بهدوء صوب السلم. وتلتفت بكبرياء شديدة).** خنزيرة!... **(تصعد مروّحة بالمروحة على وجهها. آماندا تزمجر أسفل السلم).**

آماندا: سأعلّمك كيف يكون الغرور، يا قبيحة! يا عانساً جافة! يا عرقاً ملعوناً من المجانين! **(يصل رامون الذي يرتدي بزة ثمينة من الجوخ أزرارها من فضّة، وقميصاً مموّجاً وحذاء ركوب مع مهاميز. هو قاسي الملامح، لكن على شكل طبيعي ينقذه من الفظاظة. إنه فجّ ببساطة فجاجة حصان جميل).**

آماندا ورامون.

رامون: من كنت تكلّمين؟

آمـانـدا: من سيكون؟ كنت أكلّم أخت زوجك، دوقة فزّاعات الطيور الكبيرة! إلى متى تتحمّل أن تشتمني أمام خادماتك؟

رامون: ياه! ليت هذه التعيسة تعي ما تقول!

آمـانـدا: إذا تحدّثت عن خطيبها وعن أمريكة لا تعي ما تقول. لكنها، خارج ما يخصّها، تتكلّم بطلاقة كما نتكلم نحن. وهي تقول دائماً على شكل صحيح ما تريد قوله.

رامون: دَعيها وشأنها. لا أريد «خناقات» نسائية في بيتي.

آمـانـدا: أقول لك إنها تشتمني، ثم، أهذا كل ما بدا لك؟

رامون: رأسي لا يتسع للمواعظ. هناك أمور جادّة جداً ينبغي لنا تسويتها إن استطعنا تسويتها. **(يجلس متعباً)**. أشعر بجفاف في حلقي.

آمـانـدا: أتبلله «بالجِنّ»؟

رامون: ليكن أبيضَ. **(تجلب آماندا إبريقاً وقدحاً، تقدم الشراب له. ينظر رامون إلى ساعته)**. أجاء دون خيرمان؟

آمـانـدا : كان بانتظارك .

رامون : والولد؟

آمـانـدا : هو فوق .

رامون : فوق، فوق! ماذا يصنع باحتباسه في يوم مشمس كهذا اليوم؟

آمـانـدا : وهل الولد من شأني؟

رامون : إذا أبقيناه بين يديها، فسوف ينتهي نهايتها .

آمـانـدا : هذا شأنك . إنه دمك .

رامون : لا، ليس دمي! في كل قرية من قرى الناحية لي أبناء ... وكلهم أصحّاء أقوياء!

آمـانـدا : لكنك لا تهتمّ بأحد منهم . فَلِمَ ينصبّ اهتمامك على هذا؟

رامون : أوتظنينني أعرف؟ يثير فيّ الحزن والخجل معاً، وأحس به كأنه عار أو لعنة . ومع ذلك، إذا نال منه أحد أقتله دون تردّد . ليت المرء يعلم لماذا يحب ولماذا يُعرض عن الحب .

آمـانـدا : أتريد أن أقول لك السبب دون كلمات كثيرة؟ لأنك مثل سائر الرجال لا يعنيكم سوى الابن الشرعيّ، وإن يكن غير مجرّد قطعة لحم خرساء كهذا الصبي .

رامون: (يضرب المنضدة بقبضته). اسكتي! أنا وحدي صاحب الحق في الكلام عن أورييل، ولا أحد آخر سواي. (يشرب). انزعي المهاميز! (تركع آماندا لتنزع المهاميز وقد أسندت الحذاء إلى تنّورتها).

آماندا: والخالة لِمَ تُبقي عليها في البيت؟ أبدافع الشفقة أيضاً؟

رامون: هي شيء آخر. لديها سرّ أحتاج إلى أن أكشف عنه.

آماندا: (بضحكة مُتكلفة) أحقاً؟ سرّ مجانين مثله مثل أشجار البلدان النائية ورسائل أمريكية. أليس كذلك؟

رامون: لا! هذا السر حقيقة. أنا على شفا الإفلاس وهي تخبّيء ثروة لا يعلم أحد أين. تخبيء عملات قديمة وكل مجوهرات العائلة من أجداد الأجداد. وهو الشيء الوحيد القادر على إنقاذي. لكن، أين خبّأتها، أين؟ ألا يُرجّح أنها نفسها نسيت مكانها؟

آماند: (وهي متجهة لتعليق المهاميز). أنا لم أصدّق قصة هذا الكنز المخفيّ. حتى دون قصة الكنز كنت ستدافع عنها لذات السبب الذي يدفع بك للدفاع عن الصبي. لأنها هي أيضاً جزء من «الشرعية»، إنها بنت النبيل الكبير وأخت الوريثة البكر.

رامون : أحظر عليك ذكرها!

أماندا : ألأنها كانت زوجك؟

رامون : لأنها ميتة. لا تتكلّمي كلمة أخرى عن أهلي. أتسمعين؟ (يشرب).

أماندا : أهلك، ودائماً أهلك! يسرني أن أعلم من أنا في هذا البيت.

رامون : ألا تعرفين من أنت بعد؟

أماندا : أحتاج إلى سماعه منك، بوضوح وبصورة قاطعة. من أنا هنا؟

رامون : أنت من تحوزين على ثقتي وتحملين مفاتيحي. الخادم التي تأمر الخدم الآخرين.

أماندا : ولاشيء آخر؟

رامون : أقلت لك ذات مرة كلمة أخرى؟

أماندا : حسن جداً! على الأقل، ينبغي لي أن أشكرك لأنك قلت لي ذلك بصراحة. إذاً، كل حقوقي تنتهي عند المفاتيح؟

رامون : أما الحقوق، فليس لك أي حق. إذا كنت اصطحبك إلى المهرجان، أو أهدي إليك أقراطاً، فذلك شأني. لا أريد نساء يتمتّعن بالحقوق.

آماندا: كان بإمكانك التفكير في ذلك خير تفكير لما دخلْتَ حجرتي أول ليلة.

رامون: في تلك اللحظة، لا يفكر المرء. وإنما يدخل فحسب.

آماندا: ثم، على المرأة أن تنتظر. أليس كذلك؟ ولنرَ إن كان السيد المحترم الذي يهدي أقراطاً، يهدي إليها ليلة أخرى. **(تدنو منه، ناظرة إليه بإمعان)**. وإذا ثارت كبرياء حاملة المفاتيح وانصرفت؟

رامون: لن تلبث أن تعود.

آماندا: أو تظنني بهذا الخنوع لك؟

رامون: لستُ أنا القائل، وإنما أنت ردّدتِ ذلك على مسمعي مائة مرة، وإذا لم تخنّي ذاكرتي، قلته لي الليلة الفائتة ذاتها.

آماندا: أشكر لك حسن ذاكرتك. لكني أقسم لك إن قول الليلة الفائتة، ستسمعه مني لآخر مرة.

رامون: كفى، يا آماند! لا تصدعي رأسي ولنشرب شرابنا بهدوء. **(يصب ويمدّ لها كأساً)**.

آماندا: ليس بي عطش، يا سيدي.

رامون: لا يهمني العطش. بل هي دعوة. ولا تناديني بسيدي. اشربي.

آماندا: لا أشرب إلا حين أريد أن أشرب، يا سيدي.

رامون: ناديني رامون، واشربي. (**تمسك بالقدح ناظرة إليه مواجهة ثم تقذف بالخمر على صدره. بصوت أصم**).

آماندا: أهكذا؟... (**يظل رامون ساكناً شاحباً ناظراً إليها، لكن دون أدنى حركة أو إشارة. يملأ الكأس من جديد دون أن يرفع بصره عنها ويمدها إليها مرة أخرى عن قرب. بصوت أجش**).

رامون: اشربي! (**تتردد آماندا والكأس في يدها. سكون. وأخيراً تغضّ من طرفها وتشرب ما يكاد يبلغ جرعة واحدة**). هكذا اصنعي! يعجبني من الناس ذوو البوادر والنزق. (**يزداد اقتراباً**). أراك أدركت في المرة الثانية بوضوح أني لن أكون متسامحاً معك. أليس كذلك؟ (**تؤمن على قوله بصمت**)، إذاً، كل شيء كما ينبغي له أن يكون. ناوليني منديلك. (**تتلمّس جيبها لتخرجه**). أريد منديل الصدر!

(تخرج المنديل من صدرها وهي ماتزال مطرقة، وتمده له. يحاول أن ينظف ثيابه). الآن، تستطيعين الذهاب إلى عنبر الحبوب. (تعطيه آماندا الكأس، وتدور على عقبيها لتخرج. تتوقف).

آماندا: ومنديلي؟

رامون: سأعطيكيه في وقت لاحق. ستأخذينه ليلاً. (تتحرك مرة أخرى للخروج). آه! إن كنت تحبين أن تسمعي، فاسمعي: منذ مدّة، لم أر فيك تلك الفتاة الجميلة الشجاعة!

آماند: (بتعب امرأة مهزومة تعباً شديداً). أينبغي لي أن أقدم لك الشكر؟

رامون: لست بحاجة إلى ذلك.

آماند: إذاً، أشكرك، يا رامون. (تخرج. ينظر إليها رامون بينا يتابع تنظيف ثيابه بالمنديل الذي يحتفظ به بعدئذ. يشرب بقية الكأس، ويتناول قبّعته مرة أخرى متأهباً للخروج. ينزل أوربيل دون أن يلحظ وجود والده حتى يصل أسفل السلم. يقف حين يراه ويراوده دافع ليرجع على عقبيه).

رامون وأورييل

رامون: أورييل! **(يتراجع أورييل خطوة وهو ينظر إليه.)** لِمَ تبتعد عني دائماً؟ ادنُ مني! **(يدور أورييل كيما يصعد السلم راكضاً. يدركه والده ويمسك به من ذراعه ويجعله يلتفت بالقوة)**. مكانك! ارفع هاتين العينين وانظر إليّ! من زرع في نفسك هذا الخوف مني؟ **(يضع يديه على منكبيه)**. انظر إليّ كما تنظر إلى الخالة خينوبيبا لأرى إن كنتُ أستطيع قراءة ما في داخلك من خلال عينيك. يسرني أن أجعلك تدرك ... لا أعي ما أقول ... لكن، يخجلني أن أقول هذه الأشياء التي تقولها النساء! ومع ذلك، أحبك. أتعلم ذلك؟ لم لا نستطيع أن نكون صديقين؟ قم بحركة ما! اصنع شيئاً ما! **(أورييل يشيح برأسه عنه)**. لكن، لِمَ ذاك، يا أورييل؟ لم؟ **(يأخذ أورييل بصعود السلم)**. دعك من الصعود! لست بحاجة إليه. ها أنا ذا خارج، ظلّ معها ... ومعها دائماً! **(يلتفت من الباب الكبير وكأنه يريد أن يضيف إلى كلامه شيئاً آخر. لكن أورييل يظل ساكناً مولياً أباه ظهره ومستنداً إلى الدرابزين، يخرج رامون. حينئذ ينزل أورييل الدرج مرة أخرى ويجلس إزاء الجمهور وعيناه تحدقان في البعد، ويخفي**

فجأة رأسه بذراعه فوق المنضدة، وكأنه يكبت بكاءه. تظهر في أعلى السلم خينوبيبا باسمة. تتحدث بفرح وهي نازلة).

خينوبيا وأوريل

خينوبيا : أوريل، أنذهب معاً إلى قمّة الجبل؟ قد نرى مركباً يبحر بعيداً، فقد سمعت صافرته. آخر رسالة وصلتني من أمريكة كانت أيضاً ذات يوم مشمس كمثل هذا اليوم. أنذهب؟ **(تصل إلى جانبه)**. لكن، مابك؟ لنرَ! **(ترفع وجهه بيدها)**. ولِمَ هذا الحزن الشديد؟ **(تجلس إلى جانبه وتضع يديها على منكبيه.)** أجبني، يا حياتي. كان أبوك هنا، أليس كذلك؟ كلما حضر حصل لك الشيء ذاته. كن مطمئناً ولا تقتلْ نفسك غماً. انظر إليّ بإمعان وفكرْ بقوة، كما تفعل في المرات السابقة. أنا لست بحاجة إلى الكلمات. أنا أسمعك وأنت تفكر تمام السمع. فكر بصوت عالٍ يا أوريل ... فكر ... **(يبطىء أوريل قليلاً وكأنما يصعب عليه أن يقطع مع صمته. ثم يتكلم بانطلاقة طبيعية مدهشة مبتدئاً بصوت خفيض أخذ يعلو شيئاً فشيئاً)**.

أوريل : لم تتعبون أنفسكم جميعاً بتعذيبي؟

خينوبيبا: أكاد لا أفهمك، يا عزيزي. فكر بصوت أقوى قليلاً، وأعلى قليلاً، وانظر إليّ. ماذا كنت تقول؟

أوريبل: لِمَ تتعبون أنفسكم جميعاً بتعذيبي؟

خينوبيبا: من هم جميعاً؟

أوريبل: كل من ليس أنت وأنا. أقصد أبي والأطفال الآخرين، وهذه المرأة. لم يتعبون أنفسهم لكي أقطّب وجهي وأصرخ مثلهم لأذكر الأشياء بأسمائها؟!

خينوبيبا: هؤلاء المساكين ليس لديهم وسيلة أخرى للفهم. يجب علينا أن نغفر لهم.

أوريبل: وهم، لِمَ لا يغفرون لنا؟

خينوبيبا: لأننا نختلف عنهم. ألا تسمع أباك يقول دائماً: «إلى أين تسيرين مرتدية هذه الطرحة البيضاء؟ لا يسير أحد في الشارع هكذا! لِمَ تصعدين الجبل حاملة هذه المروحة؟ لا يذهب أحد إلى الجبل حاملاً مروحة»! أتفهم؟ قد يكونون قادرين على أن يغفروا لنا إلا هذا: أن نكون مختلفين عنهم.

أوريبل: أنا لا أريد أن أكون مختلفاً عن أحد. أتمنّى أن أكون مثل سائر الناس.

خينوبيبا: ولأي شيء؟

أوربيل : لكي أستطيع العيش، ولألعب معهم جميعاً، لئلا يضحكوا مني مشيرين إليّ حين أمر: «انظروا إلى هذا! انظروا إلى الحالة الشاذّة، الحالة الغريبة!».

خينوبيا : ياه! وأنا أيضاً يشيرون إليّ حتى يقذفني بعض الجبناء منهم بالحجارة مختبئين. لكني لا أبالي بهم حتى لا ألتفت برأسي لئلا أمنحهم السرور! ألست فخوراً بكونك مختلفاً؟

أوربيل : لا، يا خالتي. أنا أضعف منك. ربما كنت أرغب في أن ألبس ثياباً غير أنيقة كما يلبس الآخرون، وأسرق فواكه وأضحك وأتشاجر معهم، لكنهم لا يقبلونني لأني مختلف عنهم في كل شيء حتى في الاسم. لم أطلق عليّ هذا الاسم المضحك، أوربيل؟

خينوبيا : ألا يعجبك؟ أوربيل اسم ملاك، أي نور الله. أنا أطلقته عليك.

أوربيل : أنت؟

خينوبيا : أكان سيئاً؟

أوربيل : (يضع يده بلطف فوق يدها). لا، يا خالتي. هو اسم جميل.

خينوبيا : أهذا ما جعلك حزيناً؟

أوريـل : لا . ذلك أني أريد يائساً أن أجعل نفسي مفهوماً، لكن، عبثاً. فلم يفهمني أحد لا الأطفال ولا الرجال ولا النساء. أنظر إليهم بملء روحي التي وضعتُها في عيني، ويمرون بي جميعاً دون أن يسمعوا. كلهم إلا أنتِ، لِمَ لا يفهمني الآخرون؟

خينوبيا : ولا يفهمونني أيضاً. لذلك، ليس بمستطاعي أن أعقد صداقات. ولذلك يُحجر عليّ أيضاً في علّيتي إذا جاء زوّار.

أوريـل : لكن، لماذا؟ لِمَ نكتفي نحن بلغة العيون، ويحتاجون هم إلى الصياح والكلمات؟

خينوبيا : لا أدري، يا بني. **(تنظر إلى ما حولها. وتخفّض صوتها وتسارّه)**. لابد من أنهم يعانون شيئاً من الخلل.

أوريـل : أو سنظل على هذا الوضع دائماً، دائماً؟ ...

خينوبيا : لا . سأعلمك الكلام بصوت عالٍ. وكل شيء معلّق بالكلمة الأولى. انظر إليّ جيداً، ولا تفكر في شيء آخر وقل بقوة كما أقول أنا: «لا!»

أوريـل : أينبغي لها أن تكون الكلمة الأولى؟

خينوبيا : هي الأهم!

أوريـل : ألا يمكن أن تكون أية كلمة أخرى؟

خينو بيبا : لا . الكلمات الأخر، حسبُك التفكير فيها كما تفعل عادة. لكن هذه لابدّ لك من النطق بها صارخاً وبكامل دمك متمرِّداً بصوت يكسر الزجاج ويسمعه النائمون من بعيد. ابذل جهدك يا أوربيل، أغمض عينيك، وشدّ على قبضتيك، وقل بقوّة كما أقول أنا: «لا!»

أوربيل : لا أستطيع . ذلك صعب عليّ.

خينو بيبا : لابدّ لك من أن تنطق بها. وإمّا لا، فلن تصبح رجلاً أبداً.

أوربيل : لكن، لِمَ هذه الكلمة تحديداً هي الأقسى؟

خينو بيبا : لأنها كلمة عائلتك كلها! جدي الوريث البكر، كان باستطاعته الحصول على ثروة بمجرّد التوقيع على أوراق وسخة، فقال: «لا!». وجدك قُتل في الحرب لأنه كان له من الشجاعة ليقول: «لا!» ولما أرادوا إقناعي بأن خطيبي تزوّج امرأةً أخرى، قلت أيضاً: لا! منذ سنين وسنين، منذ أسابيع السنين، وأنا أردّد: لا! لذلك يقال عني: غريبة الأطوار. أهلك جميعاً عرفوا النطق بهذه الكلمة. والآن، عليك أن تبدأ بها أيضاً. ردّد معي: «لا، ... لا ... لا ...» لِمَ تسكت؟ أجرى لك شيء؟

أوريـل : لا شيء. كنت أفكر كم أنتِ مختلفة عن أمي، على كونكما أختين. هي تختار لي الكلمات التي لا يمكن أن تلحق بي أذى، مثلما كانت تفعل حين كنت صغيراً، فما كانت تسمح لي بركوب الحصان، وكانت تقفل على السكاكين بالمفتاح.

خينوبيا : **(وهي تروح وتجيء)**. كانت أمك مفرطة في رقّتها، كانت من اللاتي يغفرن كل شيء. وهكذا انساقت إلى الموت غماً شيئاً فشيئاً. لو كانت اليوم حيّة لغيّرت تفكيرها.

أوريـل : مازالت تفكر ذات التفكير. لكن الجدّ هو من يجهد نفسه ليعلمني كما تفعلين أنت، أن أقول: لا!

خينوبيا : كان ذلك فخره. لقول نعم، يُطأطىء المرء رأسه. ولقول (لا) يرفعه. وهو لم يطأطىء رأسه قطّ، وكانت آخر كلمة قالها، لما... **(تتوقف فجأة مذعورة. ثم تستأنف الكلام بخشونة)**. ماذا قلت عن الجدّ؟ أسمعتُ جيداً؟ **(تدنو منه وتمسك برأسه بين يديها)**. انظر إليّ يا أوريل! ماذا قلت؟

أوريـل : هذا ليس قولي أنا، وإنما هم قالوه لما أتوا.

خينوبيا : لما أتوا؟ إلى أين؟

أوريـل : إلى هنا.

خينوبيبا : بأغلى ما تحب، يا أوربيل، أتأتي أمك وجدك، هنا؟

أوربيل : وآليثيا أيضاً. هم الثلاثة معاً.

خينوبيبا : لكن، أتعي ما تقول؟ **(تركع إزاءه ويداها على منكبيه ناظرة إليه بحدّة)**. أمك رحلت مذ كنت في الرابعة عشرة. والجد مات ولما تصل إلى معرفته. أما المسكينة آليثيا... ألا تكون حالماً؟

أوربيل : هذا ما ظننته في البدء، لكن لا.

خينوبيبا : أرأيتهم؟

أوربيل : كما أراك.

خينوبيبا : وتحادثتم؟

أوربيل : بالطبع. كان الحديث إليهم سهلاً جداً. نعم، هم حقاً لا يحتاجون إلى كلمات.

خينوبيبا : (تنهض مضطربة). لا، لا، لا، ذلك غير ممكن يا أوربيل! أقول لك ذلك غير ممكن.

أوربيل : (مبتسماً). ولِمَ لا يكون ممكناً؟ هذه أول مرة أسمع منك هذه الجملة التي يردّدها الآخرون.

خينوبيبا : كيف يمكنك رؤية الجد إذا كنت لا تعرفه؟

أوربيل : هو كما في الصورة الكبيرة المعلّقة في القاعة مرتدياً بزّة الخروج الرسمية لكنها بيضاء ناصعة. ولا يحمل سيفاً.

خينوبيبا : وأمك؟

أوريـل : هي كـمـا في الصـورة أيضـاً، مـرتدية ثياب العـيـد. وآليـثيـا معـتـمـرة قبّعـة من القش تُلبس في العطل. والثلاثة كلهم بياض ببياض.

خينوبيبا : أولم يثيروا فيك الخوف؟

أوريـل : أأخاف جدي وأمي ومن كانت صـديقتي الوحيدة؟ لكنك يا خالتي: ألست أنت من أخذ الآن لا يفهم؟

خينوبيبا : يقيناً أنت على صواب. ما جرى هو أني لم أفكر في هذا الأمر قط. ولابد لي من التعودّ عليه. أيأتونك مرات كثيرة؟

أوريل : يأتونني حين ينمـو هذا القلق الذي يحـرقني من الداخل ويؤلمني. ينمو حتى لا أستطيع التحـمل. حينئذ يحسّون بوضعي، فيأتون. وإذا ذهبوا، يظل كل شيء هادئاً مطمئناًمثلهم.

خينوبيبا : (تروح وتجيء متمتمة). هذا رائع... رائع.

أوريـل : أكنت تقولين شيئاً؟

خينوبيبا : لم أقل شيئاً، إني آخذة بالتعودّ على الوضع. دعني وحيـدة واصعد لتستريح قليلاً. لاشك في أنك متعب جداً، أليس كذلك؟

أوريـل : كثيراً.

خينوبيا : إذاً، استرح يا بني! (**تقبّله على جبينه بود**). ليتك تعلم كم أنا فخورة بك!

أوريل : فخورة بي؟ ولم؟

خينوبيا : لأنك أول فرد في العائلة يذهب أبعد مما ذهبت. (**تنظر إليه وهو يصعد. تلقي تحية أخيرة. تبحث بعصبية في خزانة الآنية. تقلب أباريق وزجاجات، وتنادي**). روسينا! ... روسينا! ... (**تدخل روسينا**).

خينوبيا وروسينا

روسينا : سيدتي!

خينوبيا : أشعر بجفاف حلقي، وكأنما مُلىء رملاً، ولم أعثر على زجاجة خمر اليانسون.

روسينا : ألا يقوم «الجنّ» مكانه؟

خينوبيا : (**تحس بالإهانة**). روسينا! اليانسون الحلو شراب السيدات . أين زجاجتي؟

روسينا : قفلت عليها السيدة أماندا.

خينوبيا : كان ينبغي لي أن أتخيّل ذلك. يكفي أن يعجبني اليانسون حتى تحرمنيه هذه الخبيثة. ولو استطاعت لحرمتني الخبز، وورق اللعب الذي أتسلّى به منفردة.

روسينا : وكذلك قفلت على ورق اللعب مع الزجاجة.

خينوبيبا : ورق اللعب أيضاً؟ أرأيت؟ هي تسرقني كل أوراقي: ورق اللعب أخفته؛ ورسائل خطيبي أحرقتها. لكن، خاب أملها. أنا بانتظار رسالة أخرى... ستكون أجمل الرسائل كلها! ستكون الرسالة الأخيرة التي يدعوني فيها إليه! وهذه ستصل ولو اعترضت عليها كل نساء العالم السيئات. هذه المرأة ساحرة ونفّاثة في العقد! **(تهدأ فجأة وترسم بقوة خطاً في الهواء)**. أشطب عليها! ... اسمعي روسينا، لا تظني بي سوءاً. إذا كنتُ مثارة وعصبية كما أنا الآن، فذلك أني أحتاج إلى قليل من اليانسون. اهرعي إلى الحانوت دون أن يراك أحد، وقولي له إن الخمر من أجلي.

روسينا : صاحب الحانة لا يبيع شيئاً بالدين.

خينوبيبا : ومن قال لهذا السخيف إني لن أدفع؟ أنا قادرة على شراء ليس زجاجة واحدة فقط، أو مئة أو ألفاً، بل مئات الآلاف إن لزم الأمر. **(تنظر إلى ما حولها. وتغضّ من صوتها)**. أيوجد أحد في البيت؟

روسينا : الآن، لا يوجد أحد. كلهم في المستودع يعبئون الذرة.

خينوبيبا : أتعرفين هذه الزجاجة من اليانسون التي فيها شجيرة ثلجية بيضاء داخلها؟

روسينا : المزركشة؟

خينوبيبا : هذه هي. هاتيها زجاجة كبيرةً، وأخفيها عن الأعين تماماً.

روسينا : والنقود؟

خينوبيبا : انتظري لحظة. اخرجي الآن وصلّي صلاة الإيمان ثم عودي.

روسينا : محال، يا سيدتي!

خينوبيبا : ولِمَ هو محال؟

روسينا : لأني لا أعرف صلاة الإيمان.

خينوبيبا : (مذعورة). ويلك يا روسينا!

روسينا : أعلم أن ذلك أمر مخيف. وكانت جدتي تقول: دون صلاة الإيمان، لا أمل للمرء بالخلاص. وهي، مع ذلك، تحتاج إلى وقت قصير جداً لتعلّمها.

خينوبيبا : هذه الليلة نفسها سنسوّي هذا الأمر. وصلاة أبانا الذي...

روسينا : هذه أعرفها.

خينوبيبا : إذاً، اقرئي هذه. لكن، ردّديها ثلاث مرات لأنها أقصر من الأولى. اخرجي.

روسينا : **(تهمّ بالخروج. وتقف فجأة وقد أضيء وجهها بفكرة)**. لكن، كيف لم يخطر لي من قبل؟ أينفع النارنج؟

خينوبيبا : ولأي شيء؟

روسينا : النارنج... أعني شجرة النارنج! يُقال إنها جميلة، وليست من أشجار المنطقة!

خينوبيبا : آه! النارنج... الشجرة ذات الأغصان المزهرة من أجل العرسان... يؤسفني أنها لا تنفع!

روسينا : ألا تنفع؟ أينبغي لنا شطبها أيضاً؟

خينوبيبا : لا، يا روسينا. ولا النارنج بنافع أيضاً. لكن دعكِ من هذا. **(تخرج روسينا. تقفل خينوبيبا البابَ وتنظر إلى كل الاتجاهات لتتحقّق من أنها وحيدة. تدندن من بين أسنانها لحناً لإحداث ضوضاء ما. ترفع آجرّة داخل المدفأة، وتضغط على زرّ. يأخذ جانب من الرف ينفتح وكأنه صندوق سري. تبحث خينوبيبا داخله. تُسمع طرقات على الباب، وصوت روسينا الذي يدعوها بإلحاح)**.

صوت روسينا : آنسة خينوبيبا... سيدتي.

خينوبيبا : (مثارة). لحظة واحدة! لا تفتحي! (**تغطي اللعبة كلها بأسرع ما تستطيع**).

صوت : سيدتي!

خينوبيبا : انتهيت! ادخلي! (**تدخل روسينا بانفعال يكاد يحبسها عن الكلام**). أجاء أحد؟

روسينا : نعم، يا سيدتي.

خينوبيبا : أهو سيدك؟

روسينا : لا، يا سيدتي.

خينوبيبا : أهذه المرأة؟

روسينا : لا، يا سيدتي.

خينوبيبا : من؟ قوليها مرة واحدة.

روسينا : سيدتي : إنه آنطون بن آنطونا ساعي البريد!

خينوبيبا : ساعي البريد؟ (**ترتعد ويحدوها دافع لتندفع نحو الباب. تتماسك فجأة، وتظل متشنجة الجسم دون أن تنظر إلى الباب، وتقول بصوت أصم**). لا أصدّقك!

روسينا : أقسم لك، يا سيدتي.

خينوبيبا : منذ سنين لم يدخل ساعي البريد هذا البيت.

روسينا: (من الباب الكبير). ها هو قادم على حصانه مع حقيبته التي يقطعها الحزام.

خينوبيا: لا أصدّق. (تولي ظهرها الباب). قد مررت بهذه اللحظة مرات عدّة. ولا أريد المزيد منها! قبل أن يطرق الجسر، ينعطف دائماً في طريق الفستق.

روسينا: هذه المرّة، لم يفعل. إنه يعبر الجسر.

خينوبيا: النتيجة واحدة. عند نهاية الجسر، سيتابع طريقه صاعداً سفح الدير.

روسينا: لم يصعد. بل هو يترجّل عن الحصان.

خينوبيا: يترجّل؟ إلى أين ينظر؟

روسينا: باتجاهنا! وهو قادم نحونا، يا سيدتي. انظري إليه، ها هو صار قرب البيت.

خينوبيا: (تسلّم بالأمر أخيراً). إذاً، كلامك صحيح؟ ناوليني المروحة، فوراً... مروحة الانتظار والأمل! (تجلبها لها روسينا. تروّح بها على وجهها مضطربة، وتبذل جهداً خارقاً لتهدّىء من روعها. يظهر في الباب آنطون ساعي البريد بقبّعته المقلّمة، وحذائه ذي العنق الطويل وحقيبته الجلدية عليها الشعار المذهب، والطافحة بالرسائل المختومة بالشمع الأحمر).

المذكورتان سابقاً وآنطون، ثم أورييل.

آنطـون: صباحك سعيد، آنسة خينوبيبا.

خينوبيبا: وصباحك سعيد، يا آنطون. لشدما تأخّرت! منذ سنين لم أرك في هذا البيت.

آنطـون: **(يبحث في الحقيبة).** ليس ذنبي. لو كان الأمر في يدي لما ظلّت فتاة عازب ولا متزوّجة دون رسالة كل يوم.

خينوبيبا: **(تروّح على نفسها بعصبية. لكنها ظلّت ساكنة وعيناها مغمضتان).** ألديك اليوم شيء؟

آنطـون: اليوم، نعم. **(يخرج الرسالة).**

خينوبيبا: وأخيراً! ... ما شكل الطابع عليها؟ أهو بصورة القارب ذي العجلات والشراع؟

آنطـون: عليه صورة رأس الملك.

خينوبيبا: أيّ ملك؟ منذ متى صار في أمريكة ملوك؟

آنطـون: الرسالة ليست من أمريكة.

خينوبيبا: أليست منها؟ إذاً، من عساه يكتب لي إنْ لم يكنْ من أمريكة؟

آنطـون: وهي ليست لك. إنها للسيد رب البيت.

خينوبيا: هي للسيد... **(تتردّد. تجلس حائرة وتنزلق المروحة من يدها لكنها لا تبكي. وإنما هو احتجاج حزين ومتعب بشبه لوماً ودياً إزاء أبٍ ظالم)**. هذا ليس عدلاً، يا ربي. هذه المرة لم تكن عادلاً عليّ. السيد لديه القوة، ويملك البندقية والكرم والحصان. وفوق ذلك، أينبغي له أن يتلقّى رسائل؟!

آنطون: لا تحسديه عليها. فهي من المحكمة. ومن المحاكم لا يأتي شيء صالح أبداً.

(تأخذ روسينا الرسالة صامتة).

خينوبيا: أتسمح لي بأن أرى الحقيبة عن قرب؟ وأن ألمسها قليلاً؟

آنطون: **(يدنو منها)**. أنت تأمرين، يا سيدتي.

خينوبيا: **(تداعب الحقيبة بلطف دون أن تنهض)**. ما أجمل وظيفتك، يا أنطون! فهي تقودك من بيتٍ إلى بيت موزّعاً رسائل. ألديك رسالة ما من أمريكة؟

آنطون: رسالة واحدة. **(يبحث عنها)**.

خينوبيا: لمن هي؟

آنطون: لآديلا بنت كاستنيار.

خينوبيبا: أتتركها بين يديّ للحظة واحدة؟ **(يسلّمها آنطون الرسالة بصمت. فتتلقّاها ناهضة باحترام يشبه أن يكون دينياً، وتتأملها طويلاً)**. ها هو الطابع بصورة المركب ذي العجلات والشراع! ومع ذلك كانت آديلا امرأة كبيرة لما كنتُ صغيرة. ألا ترى أن العمر لا أهمية له حتى يتلقّى المرء رسائل؟

آنطون: وضعها مختلف. هي لديها ثلاثة أبناء في أمريكة.

خينوبيبا: حقاً! إنهم الأبناء! يقال إن فراقهم مؤلم جداً، لكنهم لا يتخلّون عن الكتابة أبداً. **(تعيد الرسالة)**. شكراً لك، يا أنطون. ألن تعود سريعاً لتحمل إليّ رسالتي؟

آنطون: قدر ما أستطيع، يا سيدتي.

خينوبيبا: لا تبطىء عليّ كما أبطأت المرة الأخيرة. أتعدني؟

آنطون: أقسم لك. **(يقبّل يدها متعثّراً ويخرج. تنظر هي بدهشة إلى اليد التي طُبعت عليها القبلة. تبتسم وتهرع حتى العتبة لتودّعه بفرحة جديدة)**.

خينوبيبا: إلى اللقاء سريعاً، يا آنطون بن آنطونا! وشكراً، شكراً جزيلاً! **(تأخذ «مروحة الأمل والانتظار»، وتبرق عيناها من جديد. تروّح على نفسها وهي تدندن بغموض لحناً من ألحان الفالس. روسينا التي شهدت المشهد ساكنة وعيناها مطرقتان، توليها**

ظهرها لتخفي نشيجاً ما كانت تستطيع كبحه.
تهرع إليها خينوبيبا دَهِشة). ماذا جرى لك،
يا مخلوقة؟ أيعتريك الحزن هذه اللحظة، تحديداً
هذه اللحظة؟ (لا تلتفت إليها روسينا). لكن،
يا إلهي! لِمَ لا يفهم هؤلاء المساكين شيئاً أبداً؟ (يظهر
أوريبل في أعلى السلم. تلتفت إليه خينوبيبا مشرقة
الوجه). أوريبل! ها هي اللحظة الكبرى آخذة
بالاقتراب! هو يوم أجمل الأيام كلها! ألا صرت
تحس به يخطر في الهواء؟

أوريبل : (مشرق الوجه أيضاً). أوصلت رسالتك؟

خينوبيبا : الرسالة لم تصل بعد. لكن ساعي البريد بدأ
يتردّد إلى هنا. (تفتح ذراعيها سعيدة. أوريبل يهبط
السلّم راكضاً صوبها، وقبل أن يصل يسقط).

الستار

الفصل الثاني

في المكان نفسه وبعد أيامٍ من الفصل السابق.

دون خيرمان ورامون جالساً إلى مائدة. دون خيرمان يدخّن الغليون وينظر بإمعان إلى دون رامون الذي يشرب. لما حاول أن يملأ كأس دون خيرمان مرة أخرى، يوقفه هذا الأخير بإشارة منه.

خيرمان: أنا، لا أريد.

رامـون: هو خير ما عصرته، وربما كان الأخير. أتريد كأساً أخرى؟

خيرمان: لا. أفضّل أن يكـون ذهني صاحياً كيما أستطيع أن أكلّمك.

رامـون: (يصبّ لنفسه). أتحسب أني أريد أن أُسكرك؟

خيرمان: أحسب أنك تريد أن تسكر نفسك. ولا أدري لماذا.

رامـون: أليس لديّ من الأسـبـاب لذلك؟ المراعي مرهونة، والقطعان بيعت بثمن بخس، وإني أجني آخر قطاف من العنب.

خيرمان : ربّ جامع لمُشتٍّ. لا أدري كيف أمكنك أن تبدّد خلال مدّة قصيرة ثروة كلّفت مائة عام لجمعها!

رامون : وماذا يهمّ الكيف؟ بدّدتْها الحفلات والنساء ولعب الميسر. ليست اعتذارات ما أطلب. وإذا ما تخلّى عني الأصدقاء، فسرعان ما سأخسر كل شيء حتى بيتي ذاته.

خيرمان : قل بيت زوجك.

رامون : أليس ملكي كل ماخلّفته؟

خيرمان : ملكك وملك الابن، والأخت.

رامون : هذا ما أقصده. أنت الوحيد الذي يستطيع إنقاذي. كلمة واحدة منك لخينوبيبا، وفي لحظة واحدة، أستعيد كل ما ذهب به الدَّين.

خيرمان : مرة أخرى، مع حكاية الكنز المخفيّ؟

رامون : ليست حكايات. خينوبيبا طمرت ليلة وفاة أختها، حيث لا يعلم غير الله، نقود العائلة القديمة، وحليّها. ولم نجد وسيلة لانتزاع هذا السرّ منها. وصرتُ مقتنعاً بأنها نفسها، بوضعها هذا، نسيت مكانها. لكني عثرت الآن على طرف الخيط. **(يلقي بقطعة نقدية على المنضدة)**. أخرافة هذه؟

خيرمان : إنها ليرة ذهبية!

رامـون: كانت مع الخادم التي أرسلتها خينوبيبا لتشتري لها بها زجاجة عرق يانسون.

خيرمان: أوتعلم الخادم شيئاً آخر؟

رامـون: لا تعلم شيئاً. أمرتْها بالخروج، لكن خينوبيبا لم تخرج. إذاً، الكنز موجود هنا، موجود داخل الغرفة.

خيرمان: وماذا تبغي مني أن أصنع، إنْ كانت هي ترفض الإقرار بذلك؟

رامـون: أنت في نظرها شيء آخر. وهي تطيعك كالحمل.

خيرمان: (ينهض وقد انتابه غضب حاد). ذلك أني لا أحتاج إلى تهديدها بالسوط كما تفعل أنت. أنا لست بحاجة إلى حبسها في الظلام وتركها دون ماء كما فعلت أنت.

رامـون: بحياتك، لا تؤيسني أكثر مما أنا يائس. أعلم أني أسأت، وعفا الله عما مضى وكفى! لكنك تستطيع الحصول منها على كل ما تريد بكلمة واحدة.

خيرمان: لن أقولها لها.

رامـون: تعلم أني مفلس، وأني سأفقد حتى بيتي، وأنك تستطيع إنقاذي بكلمة، ثم تأبى أن تساعدني بها؟

خيرمان : اسمع، يا رامون، وآمل من الله أن تعي ما أقول. هناك ثلاثة أسرار مقدّسة تعدّ جريمة الكشف عنها: سرّ مجنون، وسر طفل، وسر رجل نائم. إذا كنت بحاجة إلى من يتواطأ معك، فلا تعتمد عليّ.

رامون : لكن، ماذا تفيد هي من هذه الثروة المطمورة؟

خيرمان : هي وسيلتها الوحيدة للدفاع عن نفسها. أنت تأويها تحت سقفك أملاً بأن تكشف لك ذات يوم عن سرها. لكنك إذا عرفت هذا السر، فمن يضمن لي أن تبقيها في بيتك يوماً واحداً؟

رامون : لا أفكر في سرقة حصّتها. بنصف الكنز تستطيع العيش كملكة في كل مكان.

خيرمان : وأورييل؟

رامون : أورييل ابني.

خيرمان : إذاً هو حق ما كنت أجد مشقّة في الشك فيه؟ أحقاً أنك قادر على أن تتركها وحيدة، أو ما هو أسوأ من ذلك، أن ترسلها إلى دار رعاية؟

رامون : **(يضرب المنضدة بقبضته متشنّج الوجه)**. أنا صاحب الأمر في عائلتي، يا سيد خيرمان. **(يشرب. روسينا التي ظهرت على السلم آخذة بنزول الدرج، تتوقّف لما ضرب رامون المنضدة دون أن تجرؤ على متابعة النزول. يجيب دون خيرمان بهدوء)**.

خيرمان: لا، يا سيد رامون، لا. خينوبيبا تنتمي إليّ أكثر مما تنتمي إليك. لأني تلقّيتها بيدي هاتين لما رأت النور. وبيدي هاتين عمّدتها، وبهما هدهدت سريرها مئة مرة لتنام، وهما وحدهما تعرفان التخفيف عنها في معاناتها. خينوبيبا هي الشيء الوحيد الذي بقي لي من كل ما كنت أحبّ. وإذا حلّتَ ذات يوم بينها وبين أوريبيل وطردتها من «بيتها»، أتسمعني جيداً؟، إذا طردتها من بيت أختها وبيت أبيها، فسوف أقتلك والله.

رامون: **(ينهض رامون باندفاع عنيف)**. أتقتلني؟ **(يتماسك ويضحك على شكل مكتوم)**، أتقتلني؟ **(يلمح روسينا فجأة، ويقطع كلامه بجفاء)**. وأنت ماذا تصنعين هنا؟

روسينا: **(تنزل السلم مذعورة)**. السيدة آماندا التي قالت لي أن أقول بأنها تقول لك إن المفاتيح ...

رامون: اخرجي!

روسينا: سمعاً، يا سيدي، سمعاً وطاعة. **(تخرج مسرعة من الباب الكبير جاعلة رزمة المفاتيح تسقط)**.

رامون: حسبت أني كنت أستطيع الاعتماد على صديق. لكني كنت مخدوعاً، وإني آسف لذلك. من جهتي، ليس لدينا شيء نتكلم عنه.

خيرمان: أما من جهتي، فنعم. لحظة أخرى لأحذرك: احذر هذه المرأة!

رامون: أحذر آماندا؟ أو سوف تلقي علي مواعظ أخلاقية أيضاً؟

خيرمان: لا. علم الأخلاق ليس بين الوصايا كما تحسب النساء. أقصد الوصايا العشر. وقد تخسر الوصايا العشر كلها مرة واحدة إذا سمحت لنفسك بأن تُقاد.

رامون: دون أحاجيّ، سيد خيرمان، اجعل الأمور واضحة.

خيرمان: كالنور. هذه المرأة أقوى منك، وأذكى وأكثر طموحاً. حتى اليوم، ماتزال تأمر في السرير، لكنها لن تلبث غداً حتى تتسلّل إلى ضميرك. وذلك اليوم، ستطرد خينوبيبا إلى الشارع لأن وجودها يقف عائقاً بينها وبين أن تصبح سيدة البيت. ذلك اليوم، وأريد أن أكرر قولي عليك دون ضوضاء وبصدق، ذلك اليوم سوف أقتلك، والله. وهذه آخر كلمة أقولها لك كصديق، والسلام عليكم.

(يخرج. يشرب رامون ضاغطاً بيده على الكأس. يفتح ياقة قميصه لاهثاً. سكون. يمعن في النظر إلى رزمة المفاتيح التي جعلتها روسينا تسقط. يأخذها، وينظر إليها وينادي بصوت عالٍ آمراً).

رامـون : آمـاندا! آمـاندا! (**تظهر آمـاندا على السلم مـرتدية ثياباً فاخرة**).

رامون وآماندا.

آمـانـدا : خفّض صوتك، يا رامون. لم أعتد سماعك تنادي باسمي صارخاً.

رامـون : ماذا يعني هذا الثوب في يوم عمل؟ وهذه المفاتيح؟

آمـانـدا : (**وهي تنزل**). أليس واضحاً بما يكفي؟ أنا ذاهبة!

رامـون : وأنت أيضاً عليّ؟ عودي إلى حجرتك واخلعي هذا الثوب فوراً.

آمـانـدا : فات الأوان جداً، يا معلّمي. منذ الآن، سأكون ليلاً ونهاراً، الوحيدة الآمرة الناهية في نفسي.

رامـون : أفكرت جيداً فيما قد يحدث؟

آمـانـدا : فكـرتُ فـي كـل شيء، حتى قدّرت أنك قد تلجأ إلى إيقافي بالقوة. حاول ذلك. فسواء عليّ سوطك أم سكّينك. حاول، تجدْ أني لن أتراجع خطوة واحدة.

رامـون : ليست أسواطاً ولا سكاكين ما يجعلك خاضعة لي.

آمـانـدا : أعلم، ولقد عضضتُ ذراعي ألف مرة لاعنة ضعفي. والآن تجاوزت هذا النقص. جعلتني أخسر أشياء كثيرة، لكنني لن أتنازل عن كبريائي لا لك ولا لغيرك.

رامـون: (يجلس ويشرب). يسـرنـي أن أعـلـم مـاذا يجـديك غداً كبرياؤك إذا ظللتِ دون خبز.

آمـانـدا: لن أكون مثلك: جبـان يبكي على قـدح من الخمر، فتى الحفـلات الذي يشعر بالخسران لأنه لم يستطع كسب شيء من المال غير «دوطة» زوجته.

رامـون: ألن تسكتي، يا فاجرة؟

آمـانـدا: أليس هذا مـا سعيت كل حياتك زاحفـاً للحصـول عليـه؟ للزواج بالوريثة البكر، بنت العائلة الكبـيرة التي نُقش اسـمهـا على حـجر في الكنيسـة، وتملك عـربة للنزهـة؟ إذاً، انظر مـاذا أفادك ذلك لما فقـدت المرأة: سـبع شرفـات هي كـبيرة عليك، يا رامـون. والآن، تستطيع إغلاقها كلها!

رامـون: (ينهض دافقـاً الإبريق والكأس). كـذبت، يالسـان الأفـعى! أنت تعلمين أنـي لم أتزوّج مـن أجل المال. وإذا أحـبـبت أن تتـخلّي عنّي الآن، فليس مـن أجل الكبـريـاء المهـانة، لا! وإنمـا لأنـك تجـدينني مـفلسـاً وتتصرّفين معي كالآخرين.

آمـانـدا: متى طلبت منك شيئاً؟ أنا راحلة لأني أحترم نفسي، وأمـا أنت فـلا! لا أطـمع أن أكـون «ستّ البـيت». لكنني لا أريد أيضـاً أن أكـون لـيوم واحـد الخـادم خدين الفراش.

رامـون : ماذا تأملين منّي؟ كلمات فارغة عن الحبّ؟

آمـاندا : المسألة ليست مسألة كلمات. وإنما الأفعال التي تلحق بي الإهانة. **(تدنو منه ناظرة إليه بإمعان)**. لِمَ لا تريد أن يكون لك ابن منّي؟

رامـون : لا منك ولا من امرأة أخرى.

آمـاندا : لِمَ تتشبّث بهذه القطعة البائسة المنطفئة من اللحم، التي ليست قادرة حتى على تعلّم الكلام؟

رامـون : **(منقبضاً)**. أقول لك لآخر مرة بألا تتناولي أهلي.

آمـاندا : أهلك! سئمت من قذفك أهلك في وجهي. أينَ وُلدتَ ونشأت أنت؟ ولربما كنتُ أهلك الحقيقيين. نعم، أنا قد أنجب لك أبناء تامّي الخلقة وذكوراً قادرين على شغل الأرض وركوب الحصان... أبناء من أجل الغد! وليسوا دماً من الماء بالسكر كالذي خلّفته لك الوريثة البكر.

رامـون : **(ضاغطاً على جفنيه)**. بأغلى ما تحبّين، لا تلمسي هذا الجرح، وإمّا لا، فلا أضمن السيطرة على نفسي.

آمـاندا : لا! عليك أولاً، أن تعرف ذلك بنفسك. أوريبل يسبّب لك الخجل لأنه يمثّل إخفاقك كرجل. وإذا كنت تحبه، على عيوبه كلها، فلأنّ له فمَ أمه،

ويديها وعينيها. وربما بذلتَ نصف حياتك لتسمعه يتكلّم. وقد يكون ذلك اليوم كأنك تسمعها ذاتها مرة أخرى.

رامـون : (**بصرخة مجنونة**). كـفى! من علّمك أن تعـضّي هكذا، يا كلبة مسعورة! تغارين من صبي ومن ميتة، يا كلبة!

آمـاندا : يؤلمك ذلك، إذا لم أكن مخطئة. إذا كنت تستعر هكذا، فذلك أنك أُصبِْت في الصميم حقاً. والآن، إذْ صرت تعرف الوضع كما أعرفه، فوداعاً! (**تتجه صوب الباب الكبير. يعترض رامون طريقها**).

رامـون : لا! لن تخرجي من هنا!

آمـاندا : ابتعدْ عن طريقي!

رامـون : لن أبتعد!

آمـاندا : إذاً، اضرب بقـوّة، لأنني لا أفكر في التـراجع! (تتقدّم مصمّمة).

رامـون : آمـانـدا! (**تتقدّم**). آمـانـدا! (**يعانقها وتحاول هي أن تتـملّص بعنف**). بحياتك، لا تجعليني أرتكب حماقة.

آمـاندا : اتركني!

رامـون : اسمعي يا آماندا، مايزال لدينا فسحة من الوقت.

آمـانـدا : فسحة! ولأي شيء؟ ألديك شيء آخر تضيفه؟

رامـون : كنت قاسياً عليك. هذا هو طبعي. بيني وبينك أشياء هامة جداً. والآن، تخلّي هؤلاء جميعاً عنّي، فلا يمكنك أن تصنعي مثلهم.

آمـانـدا : ولأي شيء تحتـاج إليّ؟ إذا كـان من أجل البكاء معك، فلا أصلح.

رامـون : لنقفْ معاً في مواجهتهم جميعاً. أنا أعرف قطع الأشجار، وأنت تعرفين زراعتها والانتظار. أنا أغلي كما الحليب، وأنتِ كالزيت. نحن نحتاج إلى بعضنا بعضاً.

آمـانـدا : أعجبتني أخيراً! وحان الوقت للاستماع إليك تتكلم كرجل وليس كسيد.

رامـون : بمعونتك، مازلت أستطيع محاولة إنقاذ البيت. وإمّا لا، فسوف أتركه ينهار دون أن أحرك يداً. أتريدين أن أقول لك أكثر من هذا؟

آمـانـدا : أريد أن أسألك سؤالاً: أأستطيع أن أضع شروطي؟

رامـون : إذا لم يكن فيها شيء ضارّ بأورييل، فاعرضيها!

آمـانـدا : ليست سوى ثلاثة شروط بسيطة جداً. أولاً، أنا سأقوم بكل الأعمال اللازمة في البيت. لكني لن أقوم بعمل واحد مُجبرةً. فإذا ما قمتُ ذات يوم بنزع المهاميز من حذائك، فذلك تطوّع مني. اتفقنا؟

رامـون : اتفقنا!

آمـانـدا : ثانيـاً : لا أريد أن أنتظرك في حـجـرتـي ، ولا آكل في المطبخ مع الخدم الآخرين ، ولا أذهب إلى المهرجان مـاشـيـة . مكاني حـيث تكون أنت : أركب ذات الحصـان ، وأقاسمك ذات الفراش والغطاء القطني المزدوج . ألك اعتراض؟

رامـون : لا اعتراض لي . والشرط الثالث؟

آمـانـدا : أريد أن أكون صاحبة الأمر وحدي .

رامـون : أتأمرينني؟

آمـانـدا : الـرجـل يأمـر خارج البيت . أريد أن أكـون الآمـرة فـي بيتي وفـي خزني ، لكـن ، منفـردةً دون مشاركة من أحد .

رامـون : ومَنْ له الأمر هنا غيرك؟

آمـانـدا : خينوبيبا! إذا لم تكن أنت هنا ، يطيـعـهـا كلّ من في البيت جميعاً .

رامـون : ياه! هذه حماقاتك!

آمـانـدا : لا ، يا رامون ، ليست كذلك . إنهم عشرون خادماً مازالوا يفكرون في الوريثة البكر بنت السيد النبيل الكبير ، وهذا أمر انتهى الآن . لا أريد أن أعيش تحت سقف واحد وهذه المجنونة .

رامـون : لكنك تعلمين أننا لا نســـتطيع طردها على هذا الشكل.

آمـاندا : سيكون خيراً لها لو أودِعتْ أحد المشافي الجيدة.

رامـون : بقاؤها ليس من أجل مصلحتها فقط، إنما من أجـل مصالحنا.

آمـاندا : من أجل الجواهر المطمورة المشهورة؟

رامـون : لا نستطيع تركها تخرج حاملةً معها سرَّها.

آمـاندا : وإذا تكفلّتُ لك بانتزاعه منها؟

رامـون : أنتِ؟ لن تبوح لك به أبداً. لك أنت بصورة خاصة.

آمـاندا : من يدري! نحن- النساء- نتفاهم بسهولة أكبر. أتعدني إذا جعلتها تعترف به، بألا تمكث في هذا البيت يوماً واحداً؟

رامـون : ماذا تفكرين أن تصنعي؟

آمـاندا : لا تَخشَ شيئاً. أنت جربْت كل ألوان العنف، ولم يُجد معها. أتعدني بألا تظلّ يوماً واحداً؟

رامـون : وأورربيل؟ ماذا سيكون وضع أوربيل وحيداً؟

آمـاندا : **(نافدة الصبر)**. أنا لا أحـــدثّك عن أوربيل. بل سيكون ذلك خيراً له، أتعدني. نعم أم لا؟ **(رامون متردّداً)**. نعم أم لا؟

رامـون : **(يطأطىء رأسه. بصوت أصم)**. أعدك!

آمـانـدا: إذاً، أعطني المفـاتيح مـرة أخـرى، وشكراً. **(تأخذ رزمة المفاتيح)**. أتتذكر آخر يوم تشاجرنا فيه في هذا المكان عينه؟ قلت لي: منذ مدّة لم أر فيك تلك الفتاة القوية الجميلة! **(تقترب على شكل مثير، خافضة صوتها)**. لا ضـرورة إلى أن أقـول لك ذلك. ألـيس حقاً يا رامون؟

رامـون: **(بصوت أجش)**. اليـوم، نعم. **(يعانقها. يتبادلان القبل طويلاً بشهوة وعنف. يصل أوربيل عَبر الباب الكبير راكضاً. لما رآهما توقف لحظة. ثم يتابع سيره صوب السلم ببطء، دون أن ينظر. يبتعد رامون عنها بخشونة)**.

رامـون: أوربيل! ... **(يشير برأسه إلى آماندا لكي تخرج. ثم يسعى خلف الفتى. تذهب آماندا جهة الباب الكبير وتنتظر)**. أوربيل! ... انظر إليّ! ... انظر إليّ، أقول لك! **(يرفع وجهه بيده)**. بعض الأشياء تُدان عليها في مثل سنك، دون أن تدري. وأنا لست خيراً ولا أسوأ من الآخرين. أنا رجل، أتفهمني، يا أوربيل؟ انظر إليّ. **(يلتفت أوربيل برأسه)**.

آمـانـدا: لا تضع وقتك.

رامـون: دعيني! عليّ أن أبيّن له هذا، وليكن ما يكون.

آمـانـدا : ليس لديك ما تبيّنه لمن لا يستطيع الفهم. في المقابل، لديك عشرون رجلاً ينتظرونك في كروم العنب.

رامـون : يستطيعون القطاف من دوني.

آمـانـدا : الأمـر مـختلف. بوجـود المعلّم رب العـمل يجـري العـمل على شكل أفـضل. أنذهب؟ **(رامون يظلّ ينظر بإمعان إلى ابنه الذي يوليه ظهره مستنداً إلى درابزين الدرج. يدنو منه ويضع يديه فوق كتفه، خافضاً صوته بلطف).**

رامـون : أوربيل، بني!

آمـانـدا : إذا كـان يـهمّك أمـره جداً، أستطيع الذهـاب إلـى الكرم وحدي.

رامـون : لا، بـل سنذهب معـاً. **(تخرج آماندا قبله. يلتفت رامـون للحظة واحـدة من العـتبـة. يظلّ أوربيل ساكناً. ولما أحسّ بنفسه وحيداً يلتفت دون أن ينظر إلى البـاب الكبـير، ويجلس على مـقعـد بسيط واطـيء، محملقاً في المدى البعيـد. يتنفّس قلقاً. يطبـق جفنيه ضاغطاً عليهـما، وينادي بصـرخة مخنوقة).**

أوربيل : أمّي! ... جـــدي! ... أمي! ... **(يخفت الضوء، ويصير ضوءاً لا واقعياً على شكل غامض. تجتاز الخشـبة نغمات طويلة من الهارب. تبرز الأم من**

فرجة دون بابٍ قرب السلم لابسة ثياب عيد وكأنها منزوعة من إحدى اللوحات. يظهر خلفها مباشرة، الجَدّ مرتدياً زيّه الرسمي بنجومه وأوسمته لكنه حاسر ودون سيف. كلاهما بالضرورة يلبس البياض. أما لون الوجه فشاحبٌ قليلاً. يتكلّمان على شكل طبيعي بهدوء. إيماءاتهما وحركاتهما القليلة جداً بطيئة مع ميل فيها إلى الجمود. تتقدّم الأم صوب أوربيل. وتقوم بحركة كأنها تضع يدها فوق كتفه، لكن، دون أن تصل إلى لمسها).

أوربيل والأم والجد.

الأم : عزيزي أوربيل...

أوربيل : **(من غير أن يلتفت)**. أرأيتهما؟

الأم : نعم، يا بني. لِمَ ترفض النظر إلى أبيك؟

أوربيل : لا أريد لهذا الرجل أن يعلم ما أحسّ به بالنظر إلى عيني.

الأم : ألأبيك تقول: هذا الرجل؟

أوربيل : **(ينهض ويلتفت إليها بعنف)**. ذلك أمر مخيف. لكنني لا أستطيع أن أغشّك. أنا أكرهه. أتسمعين. أكرهه...!

الأم : لا أحبّ سماع هذا الكلام منك، يا أوربيل. لا تنطق به مرة أخرى أمامي.

أوربيل : أعلم، أعلم، على هذا الجانب لا يوجد بغض وكراهية. لكن، من قبلُ، أي لما كنت تعيشين هنا، لمّا كان هذا الرجل يجعلك تموتين غماً يوماً بعد يوم، ماذا كان إحساسك نحوه؟

الأم : حينئذ، كنت أحبّه.

أوربيل : على رغم كل شيء؟

الأم : إذا أحب المرء، فهو يحب دائماً على الرغم من كل شيء.

الجد : (**يتقدّم خطوة**). ولِمَ أنت مضطرب اليوم جداً؟ لم أرك من قبل هكذا.

أوربيل : أصبحت لا أستطيع التحمّل يا جدّي. كل شيء في هذا العالم يؤذيني كقطع حادّة من الزجاج.

الأم : أيّة أشياء؟

أوربيل : الظلم، والقسوة والجبن! ... وهذه الأشياء الأخر الغامضة التي لا أفهم معناها. لكنها لابد من أن تكون مخجلة، لأنها تقال دائماً همساً وتمارس ليلاً.

الأم : اهدأ يا بني. متى تصبح رجلاً، تدرك ذلك.

أوربيل : لا أريد أن أصبح رجلاً. لا أريد أن أظلّ يوماً واحداً آخر دون صديق في هذا العالم حيث ألقى العذاب من كل جانب.

الأم : إذاً، ليس أبوك وهذه المرأة وحدهما من يجعلك تتألم.

أوريبل : كل الناس: سواء الذين يسخرون مني، أوالذين يخشونني، أوالذين يبدون أسفهم عليّ. كلهم! لِمَ لا يوجد بينهم من يمدّ لي يده ويجالسني كما يفعلون فيما بينهم؟ لم يضحكون مما تقوله خينوبيبا؟ أليس كلامها واضحاً كالشمس؟

الجد : نعم، نحن نراه واضحاً.

أوريبل : هم لا يرونه. لذلك يرمونها بالحجارة؛ فسكان هذا المكان يبغضون كل مالا يفهمونه.

الأم : هم قساة لأنهم لا يعلمون

الجد : ليس كذلك، يا كلارا. هم أسوأ من القساة أفظاظِ القلوب على من ليس مثلهم: هم حمقى. يبدؤون بالهزء ممن يولد غَير شبيه بهم، ثم ينتهون بمطاردة من لا يؤمن إيمانهم، ويكون ذا لون خلاف لونهم.

أوريبل : (للأم). أتسمعين؟ في هذا العالم الأبيض، عالمكم، كل شيء هيّن. أما هنا... أتعلمين ما معنى هذا القلق اليائس الناجم عن الإحساس بالتمايز والاختلاف؟

الأم : نعم، يا بنيّ. علمتُه مذ كنت في مثل سنّك.

أوريـل : (شاكياً أكثر مما هو عاتب). إذاً يا أمـي، إذا كنـت تعلـمينه، لِمَ جـعلتني أولد هنا مميّزاً؟ (تعرض الأم بوجهها). اعـذريني. هذا ليس اتهـامـاً. لـكـن، افهـمـيني... ألا ترين أني كنت حتى الأمس طفـلاً مـحـرومـاً مما يملكـه الأطفـال الآخـرون، وأنني سأصبح غـداً رجـلاً دون أن أستطيع أيضاً امـتلاك شـيء ممـا يمـلكـه الـرجـال؟ أنقـذيني، يـا أمـي! لا تدعيني أدرك ذلك الغد.

الأم : أتحسب أنني أستطيع صنع شيء لأجلك؟

أوريل : أن تقـولـي لـي الحقيقة. لا يفصل بيننا غير حاجز شفّاف. ولربما كان من بلـور. قـولـي لي ما ينبغي لـي أن أصنعه لأعبر إلى ذاك الجانب. إلى جانبك.

الأم : إلى جانبي؟ لكن، أتدري ما تقول؟

أوريل : نعم. لا أستطيع المقاومة؛ كل ما هنا مملوء بالصياح والألوان الصـارخـة. أريد هـذا الصـمـت، أريد هذا الهدوء والسلام.

الجـد : دع الهدوء والسلام لنا. مايلزمك هنا الكفاح.

أوريل : ليست لديّ القوى لذلك، ولا أريد.

الأم : لا تفزعني، يا بني. أستجعلني أرتجف مرة أخرى، كـما كنت أرتجف في الحـيـاة لما كنت أراك تجري في دروب البلدة الملأى بالبنادق والمهار والصخور؟

أورييل : قولي لي كيف العبور إليك؟

الأم : لا توجد غير طريقة واحدة. وهي الانتظار.

أورييل : انتظرت طويلاً، وإذا كان لا يوجد معبر، فقولي كيف يُحطّم هذا الزجاج.

الأم : أورييل!

أورييل : قله لي، يا جدي. لابدّ من أن يكون سهلاً جداً. حسب الخالة خينوبيبا، أنتَ عبرت ببساطة لقولك «لا»، أحقاً؟

الجدّ: حقاً! (يتقدّم خطوة). كنا مُحاصَرين في حصن صغير دون طعام ودون ماء. لكننا لما رفعنا الراية البيضاء أجابنا المُحاصِرون أنهم يستطيعون ضمان حياتي وشرفي فقط. لأني كنت الوحيد الذي يلبس زيّاً رسمياً، أي جندياً نظامياً.

أورييل : أليس هو القانون المتبع؟

الجد : هناك قانون أقدم منه، لأنّ من كان معي، كانوا يدافعون الدفاع ذاته، ويتعرّضون للأخطار ذاتها، وعانوا العطش والجوع كما عانيت. إذاً، هم جنود نظاميّون وإن لم يلبسوا زيّاً رسمياً، لذلك قلت «لا» وحافظت على كرامتي.

أورييل : بهذه الكلمة وحدها؟

الجـــد : هي أول كـلمـة تـلزمك . وهي كـلمـة عـائلتك كلهـا . وهي كلمة خينوبيبا . وعليك أن تتعلّمها أيضاً .

الأم : أتريد أن تجعل منه متمرّداً مثلك؟

الجـــد : أريد أن أجعل منه رجلاً .

أوربيل : ليست كـلمات ما أسعى باحثاً عنه . لابـدّ من وجود شيء آخر أكبر منها . أولاً ، قلت «لا»! ثم ماذا بعد؟ ماذا جرى بعد ذلك؟

الجـــد : (متقدّماً) . بعد ذلك ...

الأم : (توقفه بإيماءة منها) . مكانَك! أتعي ما أنت صانع؟

الجـــد : معذرة! (يتراجع) .

الأم : اسـمع ، يا أوربيل! للعبـور إلى هنا ، إلى جـواري ، عليك أن تنتظر حـتى تحين سـاعـتك . إذا حـاولت العـبـور ذات يوم ، بطريقـة أخـرى فلن نـلتـقي مـرة أخرى أبداً . لن نلتقي أبداً ! أتسمعني جيداً؟

أوربيل : أسمعك ، يا أمي .

الأم : شيء آخـــر أقـولـــه لـك . رأيتك المـرة المـاضيـة تمتطي المهـر بين الشعاب والصخور . يثير فيّ الخوف هذا المهر المجنون . عـدنـي بألا تمتطيه مرة أخرى!

أوربيل : (يتنفّس بعمق مستسلماً) . أعدك بذلك!

الأم : شكراً، يا بني.

أوريبل : لِمَ لم تأتِ آليثيا؟

الأم : كانت معنا هذه الفتاة. لشد ما تحبّ العبث بالماء! **(بسيمياء من ينادي أحداً بعيداً، لكن دون أن ترفع صوتها)**. آليثيا! ... آليثيا! ... **(تدخل آليثيا كأنها تركض ركضاً من الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي دخلاهما منه. تبدو فتاة في الخامسة عشرة من عمرها. معها قبّعة من القشّ عريضة الأطراف مربوطة بشريطة، وتلقي بها إلى الخلف حاسرة عن رأسها. تلبس. ثياباً صيفية. ضفائرها مجدولة، أو على شكل حلقات، وتلبس جورباً. وكل ما عليها أبيض ناصع البياض)**.

المذكورون سابقاً وآليثيا

آليثيا : معذرة! لهوت قليلاً باحثة عن طحالب وقواقع لأوريبل. أأبطأت؟

الأم : قليلاً. وها هو قد هدأ الآن. **(للجد)**. أنذهب؟

الجد : نذهب. **(يخرج الجد أولا. تلتفت الأم للحظة)**.

الأم : وداعاً، يا بني! بأغلى ما تحب، لا تفكرْ مرة أخرى فيما كنت تفكر. **(تخرج. تتجه آليثيا لتتبعها، فيوقفها آريبل. بصوت خفيض ملح)**.

أوريل : قفي، أنت! انتظري. يجب أن تقولي لي.

آليثيـــا : ماذا أقول لك؟

أوريل : كيف العبور إلى هذا الجانب. كيف السبيل لكسر هذا الحاجز الذي يفصلنا؟

آليثيـــا : أتحسب أني أعرف؟

أوريل : هـمـا حـظرا عـليك أن تـقـولـي لـي هـذا السـر. أليس كذلك؟

آليثيـــا : أقسم لك إني لا أعرف.

أوريل : لابدّ من وجود ممرّ مخفي ...، باب سرّي ...، وجود شيء ما! كيف صنعت أنت؟

آليثيـــا : عبرت دون أن أدري. أتذكّر فقط أني كنت ذات يوم على الشاطىء. وكانت تتلألأ بين صخور القاع نجمة بحر. لم أرَ من قبل نجمة بجمالها! لكنها كانت جد عميقة ... جد عميقة حتى ظننت أني لن أبلغها. أرأيت ذات مرة نجمة بحر؟

أوريل : لم أرها.

آليثيـــا : **(تخرجها من جيبها)**. إذاً، انظر إليـهـا. أليـست جميلة؟

أوريل : بلى! هي جميلة. لكن، ماذا حدث بعد؟ ماذا حدث بعد أن بلغتِها؟

آليثيـــا : لم يحدث شيء . مكثت بعد ذلك في القـاع ساكنة . وأخذ الليل ينتشر .

آرييل : أولم تخفْك الظلماء؟

آليثيــا : ولـمَ؟ كـان فـي قـبـضـتي نجمـة تضيء لي وحـدي! **(يُسمع صدى صوت الأم منادية)** .

صوت الأم : آليثيا!

آليثيـــا : سـآتي، يا سيـدتي . **(تخبّيء نجمتها)** . ربما أهديتـهـا إلـيك ذات مرة . هـي لا تـفيـدك الآن شيئاً . وداعاً ، يا أورييل!

أورييل : انتظري! أريد الذهاب معك . آليثيا! آليثيا!

(كانت آليثيا خرجت . سكون يينا ينظر إليها مبتعدة . تظهر الخالة خينوبيبا على السلم . تعبر الخشبـة مرة أخـرى زخـّة من أنغـام الهـارب . يعـود النور إلى سطوعه شيئاً فشيئاً) .

خينوبيبا وأورييل . ثم روسينا

خينوبيبا : أكنت تنادي؟

أورييـل : لا ، يا خــالتي . **(يمر بيديه على عينيه وكـأن النور الجديد كان يبهره بشدّة سطوعه . تنظر خينوبيبا إلى ما حولها دهشة)** .

خينوبيبا : يا للعجب! بدا لي أنني أحسست بشيء ما... أحقاً أنك لم تكن مع أحد؟

أوريبل : لم يكن معي أحد. بل كنت وحيداً... مفكراً. **(تنزل خينوبيبا. تصل روسينا راكضة مبهورة حاملة عنقوداً كبيراً من العنب، تقدمه لأوريبل. يتناول أوريبل حبّة عنب ويضع يدها على منكبها شاكراً. تتجه روسينا صوب خينوبيبا).**

روسينا : خير عنقود في كرم السفوح، يا آنسة خينوبيبا. هو لكما كليكما.

خينوبيبا : شكراً لك، يا روسينا. **(تأخذ منها العنقود)**. أيوجد أحد في البيت؟

روسينا : لا يوجد أحد. ذهبوا جميعاً لقطف الأعناب.

خينوبيبا : وأنت؟

روسينا : أمرتني السيدة آماندا بحراسة البيت.

خينوبيبا : أنا سأكلّفك بشيء خيرٍ لك من الحراسة. اصعدي الجبل، اصعدي أعلى صخرة فيه.

روسينا : من حيث يُرى البحر؟

خينوبيبا : هذي هي . وإذا مرّ مركب أبيض أعلميني.

روسينا : وإذا عاقبتني لتركي البيت دون حراسة؟

خينوبيا : أنا مسؤولة. هيا، اركضي! وتستطيعين أن تغنّي بأقوى صوت تريدين. (**تخرج روسينا. تغلق خينوبيا الباب الكبير**).

خينوبيا وأوريل

أوريل : أيّ مركب أبيض هذا؟

خينوبيا : لاشيء من القوارب، يا أحمق. ألم تفهم بعد؟ بإبعاد روسينا، ووجود الآخرين في الكروم حتى الليل، يخلو لنا البيت كلهُ. تعالَ نحتفل بذلك احتفالاً كبيراً: بفتح الزجاجة الجديدة، وتدشين ورق اللعب الجديد، والذكريات... أنت وأنا وحدنا كأننا خطيبان! (**ترفع آجرّة المدفأة، وتضغط على اللولب وتفتح الصندوق السري الذي تُخرج منه زجاجة خمر اليانسون ذات الشجيرة البيضاء، وورق لعب كبير الحجم صنعته بنفسها من ورق كرتون رقيق ملوّن. ينظر أوريل بفضول**).

أوريل : لم تقولي لي شيئاً عن هذا المخبأ. أهو مخبأ الكنز؟

خينوبيا : (بازدراء). أهذا مخبأ؟ هذا موجود في كل بيت قديم. إنه من زمن الحرب الكارولوسية. أحتفظ هنا فقط بشريطة الوداع، والرسالة المحروقة، وببعض النقود، وأشياء أخر من هذا القبيل. أمّا الكنز، الكنز الكبير، فهو في مكان آخر لن يعثر عليه أحد.

أوريل : ألا أستطيع أن أعرفه أنا؟

خينوبيا : أنت، متى أصبحت راشداً. من أجل ذلك أحفظه سراً. وإمّا لا، كيف كان وضعي مع أبيك؟ **(تبحث عن قدحين فوق الرف)**.

أوريل : يمكنك أن تبوحي لي به. أتحسبين أني سأكشف عنه؟

خينوبيا : أيثير فيك كل هذا الفضول؟

أوريل : في هذه اللحظة، نعم. أشعر بشوق وكأنه قصة.

خينوبيا : حسن جداً! سأسمح لك بخمسة أسئلة. وإذا لم تُوفّق في أي سؤال ولو من بعيد؟ أنبدأ؟

أوريل : نبدأ. أهو مطمور في الإسطبل؟

خينوبيا : الإسطبل بارد، بارد... وفوق ذلك، قلب أبوك الإسطبل مائة مرة.

أوريل : أهو في القبو؟

خينوبيا : بارد، بارد كالثلج. تفكر تفكير والدك ذاته. ضاع منك سؤالان اثنان.

أوريل : في خشب السقيفة؟

خينوبيا : هذا تفكيره ذاته، تفكيره ذاته، حتى كاد يجعل السقف ينهار علينا. وهو مكان بارد كالجليد. ضاعت منك ثلاثة أسئلة.

أوريبل : مدفون تحت شجرة الكستناء الضخمة؟

خينوبيبا : أربعة! ما أتعس شجرة الكستناء المسكينة! ... نبش أبوك التراب حول جذورها حتى عرّضها للهواء. والخامس؟

أوريبل : الخامس... الخامس...

خينوبيبا : لا، لا، من فضلك، لا تسألني السؤال الخامس... ألن تقول لي إنه في قاع البئر؟ أليس كذلك؟

أوريبل : (**يصدّق على قولها دَهِشاً**). أوليس أيضاً في قاع البئر؟

خينوبيبا : (**تضحك وقد سُرّي عنها**). أرأيت؟ إنك تفكر تفكيره، تفكير الآخرين جميعاً. أنتم- الرجال- تفكرون في أصعب الأمور. لذلك لا يحالفكم النجاح أبداً، ويوم يشرع الرجل في التفكير في الأسهل يصبح بذكاء أفضل. (**تضحك**). البئر، والسقيفة، وشجرة الكستناء، ولم لا يكون في قرنَي القمر؟ (**يزداد ضحكها**). ولو علم أبوك أنه ينام فوقه كل ليلة... فوقه! (**تمدّ له الكأس**). ملأتُها إلى نصفها، لأنك ماتزال شاباً صغيراً، بصحتك يا «رجل»!

أوريبل : (**ضاحكاً**). بصحّتك، يا «امرأة»! (**يشربان. تتمطّق هي متلذّذة**).

خينوبيبا : أيعجبك؟

أوربيل : ربما أعجبني الغصن على وجه خاص.

خينوبيبا : أي غصن؟

أوربيل : الغصن الفضي الموجود داخل الزجاجة.

خينوبيبا : آه! غصن الثلج ... شجيرة الصقيع! ... (تبدأ بخلط الورق شاردة). قل لي :

ما شجرة، ما شجرة

ليست صنوبرة، ولا تفاحة

ولا فستقاً ولا سروة؟

أوربيل : تحاولين معي عبثاً، يا خالتي. أنا لا أعلم إلا ما علّمتنيه.

خينوبيبا : لكني أحتاج إلى معرفة اسمها حاجة ماسّة! هو الكلمة السحرية التي تلزمني كيما تصل الرسالة. كلمة تشبه كلمة الحكاية : أتتذكرها؟ افتح، يا سمسم!! فتح، يا سمسم!

أوربيل : لا تيأسي! ستتذكرينها ذات يوم على غير توقّع!

خينوبيبا : سننتظر! عمّا نلعب اليوم؟ عن صحراء، أم عن بحر أم بلد؟

أوربيل : عن بلد. أيكون أوروبياً؟

خينوبيبا : استهلكنا بلدان أوربا كثيراً.

أوريبل : عن بلدٍ أمريكي؟

خينوبيبا : يُفضّل ذلك. كولومبيا فيها زمرّد. أيعجبك الزمرّد؟.

أوريبل : لعبنا عن كولومبيا من قبل. وقد ربحتها أنا. مارأيك بالبيرو؟ هذه فيها مناجم ذهب؟

خينوبيبا : ذهب فقط؟ واأسفاه! يعجبني الزمرد أكثر.

أوريبل : عن كوبا؟ هذه فيها نخيل.

خينوبيبا : موافقة! كوبا جزيرة. والجزيرة قارب كبير.

أوريبل : إذاً، أراهن عن كوبا؟

خينوبيبا : راهن. اقطع! (**تمدّ له ورق اللعب**).

أوريبل : لكن، ما أكبر حجم هذا الورق!

خينوبيبا : خبّيء عنا ورق اللعب الآخر، واضطررت إلى أن أصنع ورقاً جديداً. سأشرح لك الوضع في لحظة، انظر. (**تريه الأوراق التي تسميها**). أتتذكّر الفئات الغبيّة الموجودة في الورق الآخر: الديناري، والكوبا، والسباتي والبستوني؟ هذه كلها غير موجودة في ورقنا، وإنما توجد فيه أشياء خاصة بنا. انظر: ملك الفضة، الملك البعيد، ملك الشجر، ملك البحر. أليس واضحاً؟

أوريبل : بالطبع. والأرقام... ؟

خينوبيبا : الورق الآخر يتضمّن كل الأرقام. أما ورقنا هذا فليس فيه غير الأرقام الحقيقية. (**تلقي بالورق ورقة ورقة فوق المنضدة**). الواحد، اسم الله؛ الثلاثة، الثالوث المقدّس؛ الخمسة، جراح المسيح؛ السبعة، آلام العذراء؛ والاثنا عشر، الحواريون. وهي الأعداد الحقيقية وحدها.

أوريبل : والأرقام الأُخر؟

خينوبيبا : الأرقام الأخر تصلح فقط للبيع والشراء، إنها أرقام التجار. ثم يأتي ناس آخرون ويضعون أمامها أصفاراً و أصفاراً... وهذي أرقام اللصوص.

أوريبل : ألا توجد أرقام غيرها؟

خينوبيبا : رقم واحد. هو أبغض الأرقام جميعاً. رقم اخترعته ألسنة السوء وأطلقته عليّ، لتجعلني أتألم. لكنني أقسم لك إن هذا الرقم مزوّر.

أوريبل : (**من غير أن ينظر إليها وبصوت خفيض**). نعم، أعرفه. إنه الأربعون.

خينوبيبا : (**مذعورة**). ماذا قلت؟

أوريبل : لم أقل شيئاً يا خالتي.

خينوبيبا : **(ترغمه على الالتفات بوجهه)**. بلى، قلت، ولا تنكر عني. رأيتك تفكر فيه. وأنت أيضاً تقول: أربعون، كما يقول أبوك، كما تقول هذه المرأة؟! حتى أنت يا أوريبل!

أوريبل : معذرة!

خينوبيبا : ألا تدري أنه غير صحيح، ولو قاله الناس جميعاً؟ أربعون رقم امرأة متزوّجة. لكن متى رأيت آنسة بهذا الرقم الأبله؟

أوريبل : لم أرها قط، يا خالتي. أنشطبه؟

خينوبيبا : اشطبه! وشكراً، يا أوريبل. **(تهدأ فجأة وتبتسم)**. اقطع! **(توزّع خمس ورقات لكل منهما، وتضع القطع فوق ورقة لعب مكشوفة. كل «قشّة» مكونة من ورقتين يأخذها من يربح، ويسحبان من القطع بشكل تظل فيه خمس ورقات في اليد دائماً. لاشكّ في أن الأمر يتعلّق بنوع خاص من لعبة «البريسكا» ذاتية جداً اخترعتها الخالة خينوبيبا)**. خمسة فضية.

أوريبل : ملك فضي!

خينوبيبا : سبعة بحرية!

أوريبل : حصان بحر!

خينوبيبا : **(وهي تتابع لعبها)**. جـميل لعبنا هكذا. ألـيس كذلك؟

أوريـل : جميل جداً.

خينوبيبا : ألا يبغضوننا لأننا مختلفان عنهم؟ سحقاً لهم ولورق لعبهم! صار لنا ورق لعب خاص بنا. ثلاثة بعيدة!

أوريـل : اثنا عشر بعيدة.

خينوبيبا : ولد الشجرة.

أوريل : آس الشجرة.

خينوبيبا: أحقاً... ؟ **(تنظر بهـدوء إلى ورق أوريل وتومىء برأسـها نافية. وتشير إلى ورقة أخرى. يطيعـها أوريل، ويعيد اللعبة)**.

أوريـل : أهكذا؟

خينوبيبا : نعم، هكذا. لقـد ربحتُ. **(تأخذ الحزمة بهدوء. يخلط أوريل الورق مـرة أخـرى. هي تشـرب وتصبّ لنفسها قدحاً آخر)**. ألم تلاحظ شيئاً جديداً على يدي؟

أوريـل : أيّ شيء؟

خينوبيبا : لما كان جدك على قيد الحياة، كانت تقام حفلات راقصة في القاعة ذات الشرفات السبع، وكان الرجال يقبّلون يدي: أول من قبّلها كان سيداً من بلد

بعيد جداً يتكلّم لغة ما كان يفهمها أحد. لكن، كانت تكفي رؤيته يقبّل يديّ حتى يُعرف أنه سيّد كبير، ثم قبّلها ربان من الفيليبين. وبعدهما طالب من سنتياغو. وفي آخر المطاف، خطيبي لمّا تودّعنا في المرفأ. أنا لا أدري ماذا تصنع الأخريات بهذه القبل. على الأرجح يضيّعنها. أمّا أنا فأحفظها كلها. ألا تراها؟

أوربيل: بلى، يا خالتي.

خينوبيا: ألا ترى على يديّ قبلة أصغر منها جميعاً، وما تزال طازجة؟ هذه ليست قبلة سيد كبير، ولا طالب، ولا ربان، ولاخطيب. بل طبعها ذلك اليوم فلاحٌ على يدي. إنه ساعي البريد آنطون بن أنطونا! والآن، صارت يدي كاملة. ألا ترى؟ قبلة على كل أصبع كأنها خمسة خواتم. حصان شجرة.

أوربيل: ملك شجرة.

خينوبيا: سبعة من بعيد.

أوربيل: ولد بحر. **(دون أن يكفّ عن اللعب)**. لماذا ذهب خطيبك إلى أمريكة؟

خينوبيا: لأنه كان يملك قليلاً من المال وكثيراً من الكبرياء. وهذا لا يكفي للزواج بي.

أوريبل : لِمَ يذهب إلى أمريكة كل من هم فقراء وذوو كبرياء؟

خينوبيا : لأنها بعيدة. وإذا ما عضّهم الجوع فيُفضّل أن يكونوا حيث لا يعرفهم أحد. سبعة فضية!

أوريبل : اثنا عشر بحرية. وأمريكة، أبعيدة جداً؟

خينوبيا : بعيدة جداً حتى لا يرجع المرء منها أبداً. ملك فضي.

أوريبل : حصان بحر.

خينوبيا : أحقاً؟ **(تنظر إلى ورقه مرة أخرى. تهز رأسها نافية وتشير إلى ورقة أخرى. يعيد أوريبل اللعبة)**.

أوريبل : أهكذا؟

خينوبيا : نعم، هكذا. ربحتَ أنت الآن. **(تبعد الحزمة التي ربحها صوبه، ثم تصب كأساً جديدة)**.

أوريبل : كأس أخرى؟ حذارِ، يا خالتي، حذارِ!

خينوبيا : كأسان ونصف الكأس، لا خطر فيها. حتى هنا أستطيع الوصول. أمّا الكأس الثالثة فهي التي ينبغي لك أن تمنعني منها، ولو كنت راغبةً فيها. يُقال: من حيث يدخل الخمر تخرج الأسرار. وقد جرّب أبوك الخمر معي، وحبسني أسبوعاً كاملاً دون ماء، ثم سقاني بعد ذلك شيئاً يحرق الحلق. وكان ذلك رهيباً، وكنتُ على شفا فقدان القدرة على المقاومة. فقد كان يعلم أني لو شربت ذلك السائل، لأفضيت

له بكل مـالديّ. لكنّ دون خـيـرمـان وصل تلك اللحظة، وأنقذني.

أوريـل : (**ضاغطاً على جفنيه**). لا تزيديني كلامـاً عن أبي، من فضلك!

خينوبيا : معذرة! (**ترسم، دون كلام، إشارة قوية في الهواء وتشطبه. تشرب**).

أوريـل : أتتابع اللعب؟

خينوبيا : وزّعْ أنـت! (**تقطع ويوزّع أوريل الورق**). أيّها تعجبك أكثر؟

أوريـل : ماذا تعنين؟

خينوبيا : أية واحدة من القبل الخمس المطبوعات على يدي.

أوريـل : هذه!

خينوبيا : كنت واثقة بذلك. إنها قـبلة الوداع في المرفأ. طبعها على الخنصر. أتنبّهت؟ على الإصبع التي يوضع فيها خاتم الزواج. (**تردّد بصوت غائب**). خـاتم الزواج... خـاتم الزواج...! (**تفتح الورق لتلعب. تلقي به فجأة وتنهض مضطربة. ينهض أوريل أيضا**).

أوريـل : أجرى لكِ شيء؟

خينوبيا : الشجرة!... لابدّ لنا من العثور على هذه الشجرة.

«افتح، يا سمسم! افتح، يا سمسم!» فما إن نعثر عليها حتى تصل الرسالة، ثم الزواج بالوكالة، ثم الإبحار... سنرحل إلى أمريكة معاً، يا أوربيل!. أمريكة بلد أكبر من بلدنا... وعلى الأرجح مختلف عنه أيضاً!

أوربيل : مالكِ، يا خالتي! اهدئي، واجلسي!

خينوبيا : سأجلس بعدئذ، دعني استنشق قليلاً من الهواء. ألم أُرِك رسالتي؟

أوربيل : ألم تُحرق؟

خينوبيا : بلى، وكان ذلك من صنع أبيك أيضاً، فقد كان يبحث دائماً عن ذات الشيء. «أين الجواهر، أو أحرق الرسائل»! وما كنت أصدّق أنْ يجرؤ على فعل ذلك، حتى رأيتها تلتهب. سبع رسائل من أجمل ما خطّته يد أبداً. **(تشير إلى المدفأة)**. حرقها فيها! نعم، فيها! لكنني كنت حفظتها عن ظهر قلب كاملة... ومن يستطيع أن يحرقها في داخلي، يا مغفّل... من؟

أوربيل : **(يجلس مغموماً)**. اشفقي عليّ، يا خالتي. لاتعودي إلى الحديث عن أبي!

خينوبيا : أجل، يا بنيّ، أجل، ومعذرة مرة أخرى. استطعت أن أنقذ فقط جزءاً من الرسالة الأخيرة. **(تبحث في**

المخبأ). ليست سوى كلمات محروقة، لكنها كافية، ولصقتها بورق الحرير... انظر... (**تُخرج من ظرف مربوط بشريط من فضة، ورقة محروقة، وملصوقة بعناية**). تجد هنا بعض المقاطع المتفرّقة لا معنى لها، لكن، اسمع هنا... «حبيبتي، يا أغلى الحبايب»! ألا تبدو شيئاً عظيماً؟ وما أدراك أنت! لكني رأيت رسائل خُطّاب آخرين مرسلة إلى صديقاتي لما كان لي صديقات. بعضها يقول: «حبيبتي...» وبعضها الآخر: «حبيبتي الغالية...»! لكنّ أحداً غيره لم يقل: «حبيبتي، يا أغلى الحبايب»!. أتدرك الآن، لماذا أضحك من هؤلاء المغفّلين الذين يقصّون عليّ أنه تزوّج بأخرى من ذلك البلد؟ لكن، أفقد هؤلاء العقل، جميعاً؟ وكيف يتزوّج بأخرى من يكتب بخطّ يده: «حبيبتي، يا أغلى الحبايب...» (**تضغط على الرسالة للحظة مردّدة بصوت خفيض جداً**).
«حبيبتي، يا أغلى الحبايب!» كم يشقّ عليّ أني لا أحتفظ بغير هذه القطعة!

أوريل: ولِمَ الاحتفاظ بالمزيد؟ «حبيبتي، يا أغلى الحبايب»! رسالة كاملة.

خينوبيا: أحقاً؟ شكراً، لك، يا أوريل. وأنت أيضاً، ستكتب مثلها متى صرت كبيراً. (تصبّ لنفسها كأساً آخرى).

أوريل : إنها الكأس الثالثة . سأمنعك منها .

خينوبيا : أعدك، ستكون الأخيرة . لكنني مضطرّة إليها . (متوسّلة) . دعني أشربها، من فضلك . (يُعطيها الكأس) . شكراً . (تشرب وتبتسم وهي تجلس بعد أن هدأت) . أنتابع؟

أوريل : فلنتابع!

خينوبيا : (بصوت أخذ يغيب بينا تخلط الورق) . من يوزّع؟

أوريل : (بصوت مماثل) . لا أدري . أنا؟

خينوبيا : (فترة توقف . تخلط الورق ببطء) . أنا؟

أوريل : (سكون) . أنا؟ (يتكلّمان كلاهما، وهما ينظران إلى البعيد، ساكنَين دون أن ينظرا إلى بعضهما البعض، بينما خينوبيا توزّع الورق ببطء شديد . يتحوّل الحوار إلى مونولوجين متباينين، لكنهما يتداخلان دون انقطاع إلى أن تلتقي الأعين والكلمات في نهاية المطاف) .

خينوبيا : إلى متى تُبقيني على هذا الانتظار؟

أوريل : لا تجعليني أبلغ ذلك الغد ...

خينوبيا : إذا كنتَ لا تستطيع المجيء، فاستدعِني إليك .

أوريل : دعيني أذهب معكِ!

خينوبيا : لديّ كل ماس الجدّ...

أوريل : يُقال (لا) في الحرب ... ثم ماذا بعد؟

خينوبيا : مُرني بأن أبحر ... !

أوريل : دعيني أحطّم هذا الزجاج ...

خينوبيا : وأعبر البحر ...

أوريل : أعبر إلى الضفّة الأخرى ...

الاثنان معاً : نعبر معاً، سعيدَين سعادة أبدية. **(يظلان ساكنين لبرهة. تستيقظ خينوبيا)**.

خينوبيا : أكنت تقول شيئاً، يا أوريل؟

أوريل : لم أقل شيئاً. وأنتِ؟

خينوبيا : ولا أنا قلت شيئاً. **(يلعبان)**. خمسة من بعيد.

أوريل : ولد بحر

خينوبيا : حصان من بعيد.

أوريل : ملك بحر. **(يسمع بعيداً صوت صافرة مركب. خينوبيا ترتجف)**.

خينوبيا : أسمعت!؟ صافرة مركب...

أوريل : إنها الريح تهبّ على الشاطىء. (تشير إليه خينوبيا بالسكوت، وتظلّ تتنصّت واقفة. تُسمع الصافرة البعيدة مرة أخرى).

خينوبيا : سواء أكان قارباً خفيفاً، أم بشراع مربّع ... أم فرقاطة، أم سفينة كبيرة، فكلّها تعني البحر ... يوجد شيء واحد فقط خير من البحر : ماوراء البحر. (تجلس متكئة على جؤجؤ سفينة مُحال ناظرة إلى البعيد وتحرّك ورق اللعب بلطف مروّحة على وجهها).

أوريل : دوركِ في اللعب. (صمت). خالتي! ... (صمت). خالتي، خينوبيا ... (يتأمّلها بحنان هو مزيج من التأثّر والمكر). عبثاً. إذا قالت : «ماوراء البحار»، فذلك كأنها في سفر طويل. ثم تأتي بعد ذلك قصةّ البلد الكبير، والنهر، والجياد ... (لحظات سكون قصيرة. مبتسماً منتظراً ومرفقاه على المنضدة. تتنفّس خينوبيا بعمق وتعود إلى ذاتها).

خينوبيا : أقصصت عليك ذات مرة قصّة البلد الكبير والنهر والجياد؟

أوريل : لم تقصّيها عليّ قط.

خينوبيا : إذاً، ستكون أمسيتنا رائعة. أأقصها؟

أوريـيـل : نعم، يا خالتي. إذا كان يسرك قصها على مسمعي.

خينوبيبا : اســمع، إذاً. (**تشرب جرعة، وتقصّ مرة أخرى قصتها العجيبة. لا حاجة بالمرء إلى أن يكون سمعها أبداً حتى يدرك أنها تكرّر الكلمات ذاتها**). في الجانب الآخر من البحر حيث خطيبي، توجد أرض أطلق عليها الناس لفرط جمالها، اسم امرأة: أرْخِنتينا. لكن، بدلاً من مئات القرى الصغيرة كما هو الحال عندنا، لا يوجد فيها سوى بلدة كبيرة، كبيرة تسمى باسم عذراء: سيدتنا ديلوس بوينوس آيريس. وبدلاً من مئة نهر ضيّقة المجاري، يوجد فيها نهر واحد جدّ عريض حتى يبدو في بعض المناطق كبحر له ضفة واحدة. (**تشرب جرعة أخرى. يشايعها أورييل باللهجة ذاتها**).

أوريـيـل : وأرضها غنيّة جداً حتى أن نهرها يتدفّق بالفضة بدلاً من المياه التي تجرى في أنهارنا.

خينوبيبا : فضة؟ أسمعت يا أورييل؟ نهر من فضة. أسمعت؟

أوريـيـل : نعم، سمعت. تابعي.

خينوبيبا : وفيها حقل شاسع أخضر يسمّى البامبا يغصّ برجال يمتطون الجياد. إذا سرت فيه عشرة فراسخ، أو مئة

فرسخ، أو ألف فرسخ، فلن ترى غير خضرة -و- مهاميز ... خضرة -و- مهاميز ... خضرة -و- مهاميز ... ثم تبرز فجأة وسط الحقل: شجرة! شجرة وحيدة! شجرة واحدة جد كبيرة حتى يمكنها أن تظلّل قطيعاً كاملاً. شجرة جميلة، عجيبة تُدعى، تدعى ... أترى؟ هذا ما أُنسيتُهُ! تحت هذه الشجرة كتب لي آخر رسالة. ومنذ أن نسيتُ اسمها لم يكتب لي رسالة أخرى. وهذا عقاب لي لنسياني كلمة بهذه الضخامة وهذا الجمال! (**تنظر إلى ورق اللعب مشرقة الوجه وتنهض واقفة**). لكن، ما هذا يا إلهي؟ إني أمسك بيدي كل الأوراق الرابحة! (**تلقي بالورق ورقة إثر أخرى**). إثنا عشر، ولد، حصان ملك، وآس كلها من فئة شجرة، كلها! (**تخور قواها**). ومع ذلك لا أستطيع أن أربح ...، لا أستطيع أن أربح مرة أخرى، لأنني نسيت اسم الشجرة ...، الشجرة الوحيدة ... شجرته! (**تبكي فوق المنضدة. لحظات سكون. يحاول أوربيل تهدئتها ويداعب شعرها. يُفتح الباب الكبير. يدخل رامون وآماندا التي تحمل سلّة من العنب مُعلّقة بخصرها**).

المذكوران سابقاً ورامون وآماندا

رامون: (منادياً بصوت عالٍ). روسينا! ... روسينا! (ترفع خينوبيبا رأسها مرتجفة. تحاول على شكل لا شعوري إخفاء الزجاجة وورق اللعب. يتراجع أورييل إلى إحدى الزوايا). وهذا... ماذا يعني هذا؟ (يتقدّم صوب المنضدة. تمسك خينوبيبا بقوة برسالتها المحروقة، وتتراجع لتمنعه منها).

خينوبيبا: مكانك!

رامون: آه! إذاً، عرق باليانسون وورق لعب جديد؟ أين روسينا؟

خينوبيبا: (تتراجع نحو المدفأة، مخبِّئة رسالتها في صدرها). هي خارج البيت. أنا بعثت بها.

آماندا: (ترى المخبأ مفتوحاً، وتنادي مشيرة إليه). رامون! ... انظر هنا! (يشعّ وجه رامون طمعاً ويهجم مبعداً خينوبيبا بعنف. تهرع آماندا لتضع سلّتها). أهو... ؟ أهو... ؟

رامون: (ينكش المخبأ عبثاً مخرجاً شرائط، وخرقاً بالية، وتذكارات صغيرة ملقياً بها بغضب). لم أجد شيئاً غير بعض القطع النقدية، والخرق البالية والشرائط! ... (يوجه الكلام إلى خينوبيبا غاضباً). أين المخبأ الآخر؟

خينوبيبا: **(وقد تغلّبت على خوفها)**. لا يوجد مخبأ آخر.

رامون: أنت كاذبة! مئات من القطع النقدية والمجوهرات، وثروة، أين خبأتها؟

خينوبيبا: : ابحث عنها.

رامون: ألا تعلمين أن أراضينا مرهونة، وأننا ربما فقدنا البيت ذاته بكل ما يحويه؟ أجيبي: أين هي الجواهر؟

خينوبيبا: هي في البيت. اقلبه حجراً حجراً. هيا! ابحث ككلب جائع عما لا تعرف كسبه!

رامون: لآخر مرة، أقول لك! ولا تضطرّيني إلى ارتكاب حماقة. **(يلوي ذراعها بفظاظة وراء ظهرها)**. أجيبي!

خينوبيبا: لن أجيبك أبداً.

أماندا: **(خارجة عن طورها)**. اضغط عليها، يا رامون، اضغط دون شفقة!

خينوبيبا: ألا تسمعها؟ ماذا تنتظر؟ قم بالمهمة، يا رامون! أطعها! اضغط يا جبان! اضغط بشدة، يا جبان! شدّد من ضغطك، يا جبان شدّد.

رامون: كفاك، يا عقعقاً سرّاقاً! **(يسقطها أرضاً ويتقدّم مهدّداً)**. ألن تعترفي مرة واحدة؟ **(في هذه اللحظة يندفع أوريبيل إلى المدفأة صارخاً صرخة حيوان)**.

أوريل : لا!!!!! ... **(يقبض على سيخ حديد ويواجه أباه)**.

رامون : (مذهولاً). ماذا تصنع؟ أترفع يدك على أبيك؟ اترك هذا السيخ!

أوريل : لا!!!!

آماندا : **(بخوف مشؤوم)**. اهدأ، يا رامون! لقد نطق الولد بكلمة. لا تلمسه!

رامون : (يتقدّم وقد أعماه الغضب). أقول لك، اترك هذا القضيب.

أوريل : **(شاهراً قضيب الحديد)**. لا!!!

آماندا : (متشبّثة برامون). ألا تسمعه؟ ليست صرخة ... وإنما هي كلمة! بحياتك، دعه! ... إنها معجزة! ... إنها معجزة! ... **(تقوده حتى الباب، وتجعله يتراجع دون أن يكفّ عن النظر إلى ابنه نظرة يمتزج الغضب فيها بالدهشة. لما خرجا ألقى أوريل بالسيخ وقد غلبه الإجهاد الكبير ويلقي بنفسه على أحد المقاعد منتحباً نحيباً مكتوماً. خينوبيبا التي شهدت المعجزة دَهِشة، تدقّ الأرض بيديها وهي راكعة في لحظة نشوة منوّرة)**.

خينوبيبا : نعم، هي معجزة! ... المعجزة الخالدة! كان غوليات
عملاقاً يحمل سيفاً، وداؤود كان صبياً يحمل
حجراً. وهزم داؤود جوليات ... لأن الله يقف دائماً
إلى جانب الأطفال. (**تهرع صوب أوريل**).
لاتبك، يا حياتي، يا طفلي الكبير الذي تعلّم أن
ينطق بـ «لا». يا رجلاً من لحمي ودمي ... لحمي
ودمي ودمي! (**تقبّل شعره وعينيه ويديه،
وتعانق ركبتيه سعيدة**).

ستار.

الفصل الثالث

في ذات المكان بعد أيام من الفصل السابق.

تجلس روسينا عند طرف المدفأة، وتسرّح شعرها بمشط مكسور إزاء مرآة يدوية صغيرة بينا تغني شاردة الذهن رومانساً قديماً. تتراءى في المرآة. يبدو أن التسريحة لا تعجبها. تبلّل أصابعها محاولة أن تعقص شعرها عند الصدغ على شكل حلزون. تنظر إلى نفسها مرة أخرى.

روسينا (تغني):

نشبت حروب كبيرة
بين إسبانيا والبرتغال
وعيّن الكونت فلوريس
قائداً عاماً
قائداِ عا...

(يُسمع خارج البيت صوت آماندا وهي تكلّم من الباب الكبير شخصاً بعيداً عنها. تحفظ روسينا المشط في صدرها مذعورة، وتخبّيء المرآة وتندفع في إذكاء النار بالمنفاخ، مغنّية باضطراب).

صوت آماندا: راميرو ... أنزلِ الحمولة برفْق وضعها في المتبن وغطّها جيداً بالعشب. افرز الثمار الجيدة إلى جهة ... هذا إن بقيت منها ثمرة جيدة. **(تضحك وتدخل المنزل حاملة سلة من التفاح معلّقة بذراعها)**.

آماندا: أرجعَ سيدك؟

روسينا: ألم يخرج إلى الجبل حاملاً البندقية؟

آماندا: خرج منذ الصباح، وما كان يتعوّق على هذا الشكل. ناديني متى جاء. وأين بِلْبينا وفيلومينا؟

روسينا: كما أمرتِهما: تنشران ملاءات الكتّان في الهواء.

آماندا: إذا أنهى راميرو إفراغ العربة من التفاح، سيترك لك سلة من النوع الفاخر لتضعيها في الخزن. يسرّني أن تعبق رائحة التفاح بالملاءات. أتريدين تفّاحة؟

روسينا: تفاحة لي؟ من أجلي؟

آماندا: من أجلك. اليوم يشبه أن يكون عيداً. **(تمدها لها)**.

روسينا: شكراً لك، يا سيدتي.

آماندا: هذا هو القول: «شكراً، يا سيدتي». صرنا الآن متفاهمتين. ماذا كنت تغنّين؟

روسينا: وما أدراني! غناء لمجرد الغناء، ليس غناء.

آمانـد: أليس رومانس الكونت فلوريس؟ إذاً، تابعي، تابعي غناءك. يسرني أن أرى أتباعي مسرورين. **(تخرج من الجانب الأيمن مغنّية).**

نشبت حروب كبيرة

بين إسبانيا والبرتغال...

(تنظر إليها روسينا بدهشة. تمسح التفاحة بمرفقها وتقضمها بنهم. تعود إلى المدفأة مغنّية وفمها ملآن. يظهر في الباب الكبير دون خيرمان، ينظر إليها باسماً).

دون خيرمان وروسينا

خيرمان: مساء الخير يا صبيّة!

روسينا: أهلاً دون خيرمان! لو جئت قبل نصف ساعة، لكنت لقيت الآنسة خينوبيبا التي خرجت دون أن تقول إلى أين. لكنها، يقيناً ذهبت إلى هضبة بينيا آلتا لتنظر إلى البحر.

خيرمان: ولِمَ تظنّين ذلك؟

روسينا: لأنها أخذت معها مروحة الصدف الصغيرة. والسيد المعلم ليس هنا هو الآخر.

خيرمان: لا تبالي. لم أجيء في زيارة. وإنما كنت ماراً في طريقي من هنا، وأردت أن أشرب كأساً من الماء البارد.

روسينا : سآتيك به فوراً. **(تصبّ من الإبريق أو الجرّة)**.
أتريد أن أضيف إليه قطرة من الخلّ؟ يقال إن ذلك جيد لقطع العطش.

خيرمان : لست عطشان.

روسينا : ألست عطشان؟ إذاً؟

خيرمان : هذا ما يُسمّى الشرب ادّخاراً للغد. سأسير ساعتين طويلتين تحت أشعّة هذا المساء، ولن أجد في طريقي ينبوعاً واحداً.

روسينا : أأسقي الحصان أيضاً؟

خيرمان : سيكون عبثاً. الجياد لا تشرب إلا إذا أحسّت بالعطش. يبدو ذلك أمراً تافهاً. ومع ذلك، هنا يكمن الفرق كله. **(يشرب)**.

روسينا : **(تنظف التفاحة مرة أخرى وتقدمها له)**. ألا تريد تفاحة تأكلها في الطريق؟ قضمت منها شيئاً طفيفاً. لكن ذلك يكاد لا يُلحظ.

خيرمان : أفضّل أن تعضّي بها أنت هيا، أريني!

روسينا : **(تعضّ بقوّة ضاحكة)**. أهكذا؟

خيرمان : نعم، هكذا! لاشيء أفضل من تفّاحة جيّدة، وضحكة حلوة، وأسنان جميلة. أهي طازجة؟

روسينا : أو- هو! تتفجّر ماء. أهدتها إليّ السيدة آماندا.

آماندا: آماندا؟ هذي إحدى الغرائب.

روسينا: أحقاً؟ لا أدري ماذا جرى لها اليوم حتى تبدو شخصاً آخر. البارحة، سقطت مني الجرة ملآنة. وبدلاً من تعنّفني كعادتها، اندفعت ضاحكة. ثم قالت لي: «هيا، انشري الملاءات في الهواء... واجعليها تفوح برائحة الثمار. ثم غنّي!» هذي أول مرة أراها سعيدة.

خيرمان: نذير شؤم. إذا ابتهجت الغربان، فذلك ينمّ عن وجود شيء عفن. قولي للآنسة خينوبيبا إني سآتي الأحد لتناول الطعام معها. وداعاً، يا روسينا! (يصل رامون حاملاً بندقية الصيد).

المذكوران سابقاً ورامون

رامون: عافاك الله، سيد دون خيرمان.

خيرمان: عافاك الله، يا رامون.

رامون: أتذهب لأنني وصلت؟

خيرمان: لا. أمامي ساعتان من السير وأريد أن أصل قبل مغيب الشمس.

رامون: (وهو يعلّق البندقية). إلى أين هذه الرحلة البعيدة؟

خيرمان: إلى برانيا آلتا. لأساعد الخولي وهو يُحتضر.

روسينا: (تصلّب). يا إلهي الكريم!

رامون: يا للخولي المسكين! أليس بالإمكان صنع شيء من أجله؟

خيرمان: شيء قليل. أن أضع يده بين يديّ وأقول له بصوت خفيض: «كنت رجلاً كبيراً. وجعلت من أرض جبلية صخرية حقلاً. وربّيت تسعة أبناء صحيحي الأبدان، ولا يتقن لعبَ البولو أحدكما تتقنه في ناحية نصف قطرها خمسون فرسخاً. لقد أدّيت واجبك، يا خولي... على أحسن وجه». ذلك ليس شيئاً كبيراً، لكن الناس يذهبون بذلك إلى العالم الآخر وهم أكثر اطمئناناً! وداعاً!

رامون: انتظر! **(يشير إلى روسينا أن تخرج)**. أتعلم أن أوريبل استطاع النطق بكلمة؟

خيرمان: علمتُ أن آماندا أشاعت ذلك في البلدة على أنه معجزة، ثم كذّبتْها زاعمة أنها كانت مجرد صرخة.

رامون: لا، يا خيرمان، لا. الصرخة يمكن أن يطلقها حيوان أيضاً. بل كانت كلمة «لا»! ردّدها هنا أمامي ثلاث مرات شاهراً علي قضيباً من الحديد.

خيرمان: أقال شيئاً آخر مرة أخرى؟

رامون: لم يقل شيئاً. كانت كلمة واحدة لم ينبس بغيرها. لكني لم أعرف طعم النوم منذ ثمانية أيام وأنا أسمعها تدوّي في أذنيّ.

خيرمان : أيّهما أجفل النوم من عينيك، الكلمة أم قضيب الحديد؟

رامون : الشيئان كلاهما. خسرت في حياتي أشياء كثيرة، لكني لا أريد أن أخسر هذا الولد.

خيرمان : أوتنتظر منّي علاجاً ما؟

رامون : نصيحة!

خيرمان : نصيحة ولا أسهل! إن وصل اليأس بابنك حتى يُضطرّ إلى إشهار قضيب الحديد عليك صارخاً: لا! فتنحَّ. يقيناً هو أكثر تعقلاً منك.

رامون : (**بغضب مكبوت**). ولِمَ يتعيّن عليّ أنا أن أتنحّى؟ ومنذ متى صار الأبُ يطلب الصفح من ابنه؟ أنا قد أمدّ يدي له، وهذا ما أتمنّاه. يكفيني أن يخطو هو خطوة باتجاهي، لكنه لم يفعل. وهو ليس كأمه، وإنما هو مثل خالته، مثل أجداده... مثل عرق المجانين الذي لا يقبل أن ينثني.

خيرمان : إذا كنت بهذا التصميم، فلِمَ تجعلني أضيع وقتي إضافة إلى النصيحة؟ (**يتجه صوب الباب الكبير**).

رامون : معذرة! ألا يمكنك أن تمكث دقيقة. أتريد كأساً؟

خيرمان : مرة أخرى! الخولي بحاجة إليّ الآن أكثر من حاجتك إليّ. وهو لا يمكنه الانتظار. وداعاً، يا رامون.

رامون : وداعاً! أتمنّى لك سفراً سعيداً. (**يجلس متفكراً وهو يلف سيجارةً تدخل آماندا**).

رامون وآماندا

آماندا: وأخيراً! كنت بانتظارك كل النهار حتى صرتُ عصباً خالصاً.

رامون: ألم أقل لك إني ذاهب إلى الجبل؟ أحدث شيء سيىء؟

آماندا: لاشيء من السوء. ألا يُلاحظ عليّ من عينيّ؟

رامون: أراك مسرورة جداً.

آماندا: أنت ستقول السبب. أتتذكر الأسبوع الفائت لما تحادثنا في هذا المكان نفسه عن سر الكنز المشهور؟

رامون: أذكره.

آماندا: ألم أقل لك أن تترك الأمر على عاتقي، وأن النساء يتفاهمن بسهولة؟

رامون: لا تقولي لي إنك اكتشفت السر.

آماندا: خلال ساعة سأكشفه. لقد صار في متناول يدي.

رامون: ماذا تعنين؟

آماندا: أعني أن خينو بيبا نفسها ستبوح به هذا المساء.

رامون: أتبوح به لك؟ (**يضحك ساخراً**). لم يستطع أحد أن ينزعه منها قط. أو تثنينها الآن أنت فجأة؟ أنتِ!

آماندا: (بهدوء). نعم، أنا. ودون لجوء إلى القوة. هذه الأمور تتم ببرود، تتمّ بالعقل والتفكير.

رامون: بالطبع! وأنا مغفل. أليس كذلك؟

آماندا: لا. لكنك لا تعرف أن تكذب غير نصف كذب، لخداع امرأة خديعة كاملة تلزم امرأة أخرى.

رامون: أتحسبين أنني لم أقم بكل ما أستطيع القيام به؟

آماندا: أتقصد الجوع والعطش والتخويف؟... لم يكن ذلك بالطريق السليمة.

رامون: جربّت أيضاً طريقاً أخرى، طريق الوعود والملابس الجديدة والمراوح والطرحات المخرّمة.

آماندا: وهذه لا تنفع أيضاً. امرأة من هذا الطراز لا تستسلم خوفاً أو طمعاً. أنا أعرفها جيداً.

رامون: أو عرفتها خلال أربعة أعوام خيراً مما عرفتها خلال حياتي كلها؟

آماندا: المسألة ليست مسألة أعوام. تكفي دقيقة واحدة كشرارة البرق، فترى كل شيء بوضوح مباغت حتى تراودك الرغبة في الضحك من نفسك صارخاً: «كيف أمكن لي أن أبطيء حتى يخطر في ذهني هذا الخاطر الجدير بطفل صغير»!

رامون: (نافد الصبر). دون ألغاز، يا آماندا! ألا تريدين أن تنوّريني قليلاً بشرارة برقك المبارك؟

أماندا: هـذه المـرأة مثلها مثلي، مثل كلّ النساء الحقيقيات، لا تُشرى إلا بعملة واحدة، ولا تفتح مغاليق نفسها إلا بمفتاح واحد، وهو الحب.

رامون: **(منقبضاً)**. هلا تكلّمت بوضوح مرة واحدة!

أماندا: كـالنور. **(تدنو منه)**. مـاذا عسـاه يجـري لو تلقّت خينوبيبا هذا المساء نفسه رسالة من أمريكة تدعوها للسفر؟

رامون: رسالة؟ ممّن؟

أماندا: ممن ستكون؟ فـي نـظـرها، أيوجـد شخص آخـر غير خطيبها؟

رامون: لـكـن، أجُننتِ أنت أيـضاً؟ خطيـبـهـا تـزوّج منـذ ثلاثين عاماً.

أماندا: ومن قـال لك، إنه هو بالضـرورة من سيكتبـهـا؟ ألا يمكننا تزوير رسالة؟ أصعب منها تزوير وثيقة. وإذا احـتـجنا إلى ذلك فـسـوف نزورّها. **(تنظر إليه بإمعان)**. أم لك رأي آخر؟

رامون: **(بصوت أجش ضاغطاً على يدها فوق المنضدة)**. مع من رتّبت ذلك؟

أماندا: مع وكيل أعمالك.

رامون: أهو قال لك؟

آماندا: كن مطمئناً. هو شخص مخلص. لكنني أعلمته أن ذلك سرّ بيني وبينه. وقد وقع في الفخّ. خير الخدع أبسطُها وأسهلها.

رامون: أو سوف تتدخّلين في أعمالي؟

آماندا: اهدأ، يارامون. كل مالك من خير أو شر هو لنا كلينا، وما يعنينا الآن ليس أسرارك، وإنما سرُّها هي.

رامون: (**ينهض متفكراً**). إذاً، الوكيل...

آماندا: سيحصل على نصيبه وكفى.

رامون: أو عرضت ذلك عليه؟

آماندا: ولِمَ إضاعة الوقت؟ أنا أمليت الرسالة. وهاقد كُتبت.

رامون: والخطّ؟

آماندا: استعنّا بالقطعة المحروقة التي كانت تحفظها. (**تُخرج الرسالة من عُبّها**). وها هو مفتاح الكنز بالتمام. (**يحاول أخذها**). لحظة أخرى! وعدي وقد أنجزته، أأحتاج إلى تذكيرك بوعدك؟

رامون: وإذا أخفق مفتاح الرسالة؟

آماندا: تعلم يقيناً أنه لايمكن أن يخفق. أجبني دون أن تشيح ببصرك. أتتذكر وعدك، نعم أولا؟

رامون : (**دون أن ينظر إليها**). بالطبع أتذكّره.

آماندا : لا بقاء لهذه المرأة يوماً آخر في هذا البيت. سيكون خيراً لها لو أودعت أحد المشافي الجيدة. ألم تكن كلماتك حقاً؟

رامون : هكذا كان.

آماندا : عربة المسافرين تنطلق عند المغرب. مُرْ بحجز مقعدين وارتدِ ثيابك لترافقها.

رامون : هذا اليوم نفسه؟ أولاً، لابدّ لنامن إعداد متاعها.

آماندا : قد أعددته.

رامون : لكن، آماندا ...

آماندا : إذا لم تنجز وعدك اليوم، فلن أثق بك غداً. ماذا تنتظر؟

رامون : (**يروح ويجيء قلقاً**). لا أدري كيف انصبّ ذلك كله فجأة.

آماندا : إذا كنت نادماً، فقل لي الآن. مايزال لدينا فسحة من الوقت.

رامون : لا. لست نادماً.

آماندا : أخائف؟

رامون : ممّن أخاف؟ (**ينفعل بآخر أثر من الرجولة لديه ناظراً إليها مواجهة ويتقدّم صوبها**) . لست ذلك الجبان كما يخيّل إليك . لا! سأقوم بهذا العمل بسبب الحاجة . وسأقوم به لا لأنك تطلبينه، وإنما لأن جسدك يأمرني به . لكنني أريد أن أعرب لك أولاً عن حقيقة ما يدور في ذهني : إني أشعر بالتقزّز من هذا الفعل . أتسمعين؟ أشعر بالتقزّز والخجل لنا كلينا .

آماندا : هذا خير لنا . (**تدنو منه بحرارة**) . يعجبني كل ما يمكن أن يشدّنا إلى بعضنا . لاشيء يربطنا برباط وثيق غير ما هو مشين يُلزمنا بالسكوت معاً . (**تداعب شعره بقوّة وكأنها تداعب ناصية حصان . وتجذبه إلى قبلة حارقة ، يتملّص منها رامون**) . ألن تأمر بحجز مقعدين؟

رامون : (**بصوت خشن**) . سأحجز بنفسي .

آماندا : شكراً لك . إليك المفتاح . (**تسلّمه الرسالة . يخرج رامون وتشيّعه آماندا حتى الباب الكبير متلألئة بفرح نتنٍ . . تدخل روسينا حاملة ثوباً مكوياً حديثاً**) .

أماندا وروسينا

أماندا : ما هذا الثوب؟

روسينا : أمرتني بلبينا بإحضاره، هو ثوب السيدة.

أماندا : أية سيّدة؟ أتوجد سيدة أخرى؟

روسينا : معذرة! هو للآنسة.

أماندا: آه، نعم! هو من الثياب المطرّزة بأحرف الأسماء الأول. اصعدي به إلى حجرتها وضعيه على الصندوق. أنا سأقفل على المتاع بنفسي.

روسينا : أهي مسافرة؟

أماندا : وفي عربة هذا المساء. وبدءاً من صباح غد، اتركي كلمة: سيدة أماندا، وآنسة خينوبيبا. إنما هو بيت واحد، سيدة وحيدة، وملاءات الكتان المزدوجة.

روسينا : لكن، ألن تعود أبداً؟

أماندا : لا أظن. فقد ضاقت ذرعاً ضيقاً شديداً بهذا البيت. وماذا تصنع دوقة فزّاعات الطيور الكبيرة، ببيت ذي سبع شرفات؟! غداً، سيكون لها بيت بمئة شرفة! وكيف تتنازل إلى مستوى خادمات بائسات من

أمثالنا؟ غداً ستلتقي نظيراتها من الصديقات لتناول الشوكولا إزاء مائدة عامرة كبيرة، وأية صديقات! إني ألمحهنّ منذ الآن!! البيشكونتيسة أرملة أولترامار، ومغفّلة الممالك الإسبانية الكبرى، والآباتيّة المحترمة رئيسة مجمع العوانس المقدّس. (**تضحك**). أليس هذا ما كانت تطمح إليه؟ إذاً، ها هي تحصل عليه، كل شيء في مكانه، وكل امرىء في موضعه! (**تخرج مُشيّعة بنظرة روسينا التي لا تعي شيئاً، وإنما تبدو عليها النرفزة فتذهب صوب السلم وتتوقّف وتنظر إلى الثوب. وتعيد النظر مرة أخرى إلى المكان الذي خرجت منه آماندا، بينا تردّد محاولة أن تعثر على المعنى**).

روسينا: متاع؟... عربة مسافرين؟... وهذه الضحكة، هذه الضحكة الخبيثة!... (**بيأس صبياني**). لكن، يا إلهي، لِمَ لا أفهم أبداً شيئاً مما يجري في هذا البيت؟! (**تلقي بالثوب بعنف فوق قطعة أثاث وتجري صوب الشارع متعثرة بخينوبيبا التي تصل حاملة مروحة الصدف وتلبس أجمل ثيابها، وترتسم على وجهها أسعد بسمة**).

روسينا وخينوبيا

خينوبيا : انتبهي! إلى أين تسعين راكضة؟

روسينا : إلى العربة. لديّ شيء ينبغي لي أن أعرفه الآن، وفوراً.

خينوبيا : انتظري لحظة واحدة لا أكثر، وانظري إليّ جيّداً، يا روسينا. انظري إليّ من قرني حتى أخمص قدمي. نعم، انظري هكذا! (**تتخذ وضعاً لطيفاً للحظة وهي تروّح بالمروحة وكأنها تقف أمام مصور فوتوغرافي**). أرأيت ذات مرة امرأة سعيدة تمام السعادة؟ ألم تريها؟ إذاً، تعلّمي كيف هي. والآن تستطيعين الانصراف.

روسينا : وأنت اليوم مسرورة أيضاً؟

خينوبيا : كما لم أكن في حياتي. ولِمَ تلبسين ثوب الحزن أنت؟

روسينا : لا أدري. أشعر بخوف غريب... يثير فيّ خوفاً رؤيةُ كل هؤلاء الخلق سعداء دفعة واحدة. (**تخرج راكضة. تضحك منها خينوبيا وهي واقفة في الباب**).

خينوبيا : اركضي يا عنزاً جبلية! مهما تركضي... تدركُكِ الريح... اركضي! (**تضحك وهي تروّح على نفسها. تدندن على شكل غامض لحن فالس أو هابَنيرا، وتتجه صوب السلم لحظة ظهور أوريل في أعلاه**).

خينوبيا : عـزيزي أوريـل! انتظر عندك لحظة واحـدة، دون أن تتحرك أو تتنفّس ... ستسمع أجمل كلمة سمعتها في حياتك. اسمعها! **(تجعل يديها على شكل بوق سيارة وتصرخ مبتهجة)**. أومبووو!

أوريل : **(ينزل درجة واحدة دَهشاً)**. ماذا؟

خينوبيا : مكانك! اسمع مرة أخرى. ودعني أسمعها أنا نفسي أيضاً بصوت عال : أو مبووو!

أوريل : **(ينزل درجة أخرى)** ماذا تعني «أومبو»؟

خينوبيا : أولـم تفـهـمـها بعـد؟ إنـهـا الـشـجرة! خـضـرة- و- مهاميز ... ، خضرة -و- مهاميز ... ! إنها شجرتي الضائعة.

أوريل : **(ينزل الدرج راكضاً، ويتعانقان بحرارة)**. أخيراً! إذاً، كل شيء سيكون على مايرام؟

خينوبيا : كـل شيء. إنها الكلمة السحرية. أتتذكرها؟ «افتح يا سمسم، افتح يا سمسم!» حينئذ، يأخذ الباب بالصرير وهو يدور وها هي الكنوز كلها : الرسالة والزواج والسفر وأمريكة!

أوريل : لكن، سنرحل معاً، أليس كذلك؟

خينوبيا : بالـطـبـع ، معـاً. أونستطيع الحيـاة منفـصلين عـن بعضنا بعضاً؟

أوريـل : أبداً. وأمريكة ضرورة لي كما هي ضرورة لك.

خينوبيا : ضرورة لك؟ ولِمَ؟

أوريـل : ألا تقولين إنها بلد مختلف؟ إذاً، سيكون سكانها مختلفين مثلنا أيضاً، ولن يسخر مني ومنك أحد. وستتمكن من السير مطمئنّين في الشارع كالآخرين جميعاً. أتنبّهت؟ ولن يشير إلينا أحد بأصبعه. سنكون كالآخرين جميعاً!

خينوبيا : كان لا مناص من مجيء هذا اليوم العظيم. والآن شطبنا الشر كلّه وهيا نبدأ من جديد.

أوريـل : رددي عليّ اسم هذه الشجرة. أريد أن أتعلّم جيداً هذه الكلمة السحرية.

خينوبيا : أومبو وو ... !

أوريـل : أومبو وو! ... ما أغرب هذه الكلمة!

خينوبيا : بما توحي إليك؟

أوريـل : لا أدري ... في هذه اللحظة لا توحي إليّ بشيء. كيف تذكرتِها؟

خينوبيا : على حين غفلة ودون تفكير. كنتُ فوق الهضبة أنظر إلى البحر، وفجأة خطرت لي كضربة على جبيني: أومبو! كتلك العصافير الطائشة التي تدخل البيوت وترتطم بزجاج النوافذ! أليس لها وقع كضربة على الزجاج؟ انتبه: أومبو!

أوريل : لا . تبدو لي اسم العصفور. أتسمعين كيف يغني الأومبو؟

خينوبيا : **(تقلّد على كل حالٍ الصوت المتخيّل)**. لا أدري، إنما هي كلمة وداع يُصرخ بها من بعيد. **(تحرك منديلها)**. «أومبووو... أو- مبووو!»

أوريل : لا . بل هي ريح الشتاء تهب على السطوح : «أومبو -و- ووو!»

خينوبيا : لا! هي على الأرجح صافرة مركب : أو مبووو! ...

أوريل : لا! هي الصدى الذي يتردّد في قاع البئر : «أوم -بو- أوم م م بو!»

خينوبيا : ولا هذا أيضاً. هي نداء يُطلق في الليل للاهتداء إلى الأطفال الضائعين : «أومبووو -أومبووو!» **(يتنبّهان إلى اكتشافهما لعبة مسلية، ويطوفان بالصوت في كل الاتجاهات لاعبين بالكلمة الجديدة المستديرة ككرة مضرب)**.

أوريل : شيء لا يُصدّق. منذ لحظة، ما كانت توحي إليّ بشيء. وها هي الآن توحي إليّ بكل شيء. إنها كلمة ملأى بالأصداء!

خينوبيا : بل هي كلمة ملأى بالكلمات!

أوريل : شيء ولا أعجب. شجرة هي اسم عصفور وتحية وصرخة وريح وصافرة قارب وطفل ضائع.

خينوبيبا : هي أبسط من ذلك جداً. هي شجرة لها اسم شجرة.

أوربيل : ينبغي لنا أن نبوح بذلك للتفّاحة، والقسطل والجوزة. ينبغي لنا أن نقول لها إن أختهن وصلت من أمريكة.

خينوبيبا : هيا نهتف به قوياً حتى تردّد صوتنا الجبال سبع مرات. اصرخ معي، يا أوربيل! **(يصرخان كلاهما باتجاه الجمهور وفي شتىّ الاتجاهات وتردّد الصوتَ الأصداء).**

الاثنان معاً : أوم... بووو - ووو - ووو... **(يضحكان).**

خينوبيبا : بصوت أقوى. وليتردّد حتى يُسمع في الجانب الآخر من البحر!

الاثنان معاً : أوم... بـووو ووو! **(يُسمع بعيداً زعيق صافرة مركب).**

خينوبيبا : صه! أنصتْ قليلاً. أتسمع؟ ها هي المراكب تجيبنا! أليست أعجوبة؟

أوربيل : هي فعلاً أعجوبة!

خينوبيبا : بهذه الكلمة السحرية صرنا أسياد العالم.

أوربيل : ينبغي لنا بثّها في كل أرجاء البيت.

خينوبيبا : وفي كل الأركان والسقائف...

أوربيل : والصراخ بها في الإسطبل!

خينوبيبا : ونشرها مع الملاءات...

أوريبل : وحفظها في الخزن...

خينوبيبا : وتعليقها على الشرفات... **(يصرخان بها ضاحكين في كل الاتجاهات).**

الاثنان معاً : أوم-بوو...، أوم-بوو! **(يظهر رامون في الباب الكبير لحظة صاحت بها خينوبيبا باتجاه الخارج. يتجمّد المشهد فجأة. تتراجع خينوبيبا لاشعورياً صوب أوريبل. لحظات سكون طويلة. وهم بلا حراك جميعاً).**

المذكوران سابقاً ورامون

خينوبيبا : لِمَ تمعن النظر إليّ؟ أي شرّ تحمله لي اليوم؟ تكلّم!

رامون : **(يتقدم خطوة واحدة).** شر؟ بل جلبت لك هديّة كبرى.

خينوبيبا : **(معانقة أوريبل).** لا أريد شيئاً منك.

رامون : هذه المرة، نعم، ما إن تعلمي الهدية. **(مشيراً إلى أوريبل).** قولي له أن يخرج.

خينوبيبا : لا أحبّ أن أظلّ معك وحيدة.

رامون : دعي الخوف، يا خينوبيبا. إنه خبر عظيم لك.

خينوبيبا : ألا تستطيع البوح به أمامه؟

رامـون : لا يقال أمام الصبيان. قولي له أن يخرج.

خينوبيبا : ألا يقال أمامهم!

رامون : عند مدخل الجسر، لقيتُ لتوّي آنطونَ ساعي البريد.

خينوبيبا : التقيت أنطونَ؟ أهو قادم إلى هنا؟

رامون : كان قادماً. والآن لا حاجة بك إلى قدومه. قولي له أن يخرج. (**تتردّد خينوبيبا لحظة. ثم تضع يديها على منكبي أوريل، ويتبادلان النظر بإمعان. يخرج أوريل من الباب الثاني في الجانب الأيمن**).

خينوبيبا ورامون

خينوبيبا : ماذا قال لك آنطون؟

رامون : خير ما تستطيعين توقّعه. وصلت رسالة منه إليك.

خينوبيبا : (**متشنجة**). لا أصدق.

رامون : رسالة من أمريكة، من خطيبك.

خينوبيبا : كذب!

رامون : ليس كذباً يا خينوبيبا. (**يخرج الرسالة**). أكذب هذه؟

خينوبيبا : كذب. لو كانت الرسالة لي لما سلّمها آنطون لأحد؛ لِمَ لم يجلبها هو بنفسه؟

رامون : لقيته عند الجسر . وأنا رب البيت .

خينوبيبا : ليست لي .

رامون : (ناظراً إلى الظرف) . ألست أنت خينوبيبا آلتاميرا؟

خينوبيبا : ولو كتبتَ عليه اسمي فلن أصدق .

رامون : أوليس هذا البيت بيت ذي الشرفات السبع؟

خينوبيبا : فليأت آنطون ويسلمنيها ، نادهِ .

رامون : أتتذكرين ذلك الطابع الذي يحمل صورة قارب بعجلات وشراع؟

خينوبيبا : ليس كافياً . في البلدة نساء أخريات يتلقين رسائل .

رامون : (متقدماً) . والخطّ؟ أتريدين أن تري الخطّ؟

خينوبيبا : (صارخة) . لا! (تتراجع محاصرة بين الشك وبين الخوف من التصديق) . إذا رأيته فسوف ينتهي بي الحال إلى التصديق . لكن ، لا! لا أريد أن أصدّق .

رامون : مالك ، يا خينوبيبا! كوني عاقلة ، لِمَ لا تصدّقين؟ ألا ترينه هنا!

خينوبيبا : بعض المعجزات معكوس . والشيطان يقول أيضاً : «خذ هذا الذهب . ألا تراه بعينك؟» حتى إذا لمسته وجدته فحماً .

رامون : أتحبين أن أقسم لك بالله؟

خينوبيبا : ولأي شيء؟ وماذا يعني لك الله؟ **(تتأهّب للخروج)**.

رامـون : وإذا أقسمتُ لك بحياة ابني؟

خينوبيبا : أويمكنك ذلك؟ **(تتوقف)**.

رامـون : **(يتردّد. ثم يرفع يداً خائفة بمشقة)**. أقسم لك بها!

خينوبيبا : إذاً... إذاً، أيكون ممكناً؟ **(تتقدم صوبه. تظهر آماندا في الباب الأيمن، تلتفت خينوبيبا بعنف)**. لا! مـاذا تـصنـع هـذه المـرأة هـنـا؟حيثما تكن، يـوجـد فـخّ لا محالة. فلتذهب!

رامـون : **(يفقد زمام السيطرة على نفسه)**. كفاك! أينبغي لي أن أجبرك على قراءتها بالقوة؟

آمـانـدا : **(ببرود)**. دون صراخ، يا رامون. أعطها الرسالة، وإذا كانت لا تريدها فلتُلقِ بها في النار بنفسها.

خينوبيبا : **(تتراجع)**. لا تقتـربي! ألقيهـا أنت في النار، كمـا ألقيت بـالرسـائل الأخر. أنا لا أريد أن أراها، لأنهـا ليـست لي... ولايمكن أن تكون رسـالتي. **(تسعى نحـو السلم في مـوقف هروب. تصـعـد بعض الدرجات، بسـرعة. تتوقف فجأة متذكرة الكلمة السحرية)**. أومبـو!... **(تتشبّث بدرابزين السلم وتتكلم بلهجة حاسمة وهي تنزل الدرجات)**. افتح هذا الظرف!

رامـون : أأفتحه؟

خينوبيبا : افتحه، أقول لك! (يتردد رامون ناظراً إلى آماندا).

آمـانـدا : افتحه!

رامـون : (يمزق الظرف. يخرج الورقة المطويّة). هكذا؟

خينوبيبا : اقرأ بصوت عالٍ! (ينظر إلى آماندا مرة أخرى).

آمـانـدا : اقرأ.

رامـون : «بوينوس آيريس. الرابع والعشرين من ...»

خينوبيبا : اقرأ السطر التالي

رامـون : آنسة خينوبيبا آل ...»

خينوبيبا : بعده ...

رامـون : «حبيبتي، يا أغلى الحبايب!»

خينوبيبا : (بصرخة مخنوقة). لا! ... (تهرع نحوه). أين يقول ذلك؟ دعني أرَ هذه الكلمات الثلاث.

رامـون : (دون أن يتخلّى عن الرسالة). أترينها هنا؟

خينوبيبا : حبيبتي، يا أغلى الحبايب! الآن نعم، عرفت صوته. أعطنيها! إنهالي.

رامـون : تريّثي لحظة. الرسالة لها ثمن.

خينوبيبا : لا يهمّني الثمن مهما يكن! أعطنيها!

رامـون : أين الجواهر المطمورة؟

خينوبيبا : **(دون أدنى تـردّد)**. في غـرفـتك ذاتـهـا . أعطني الرسالة .

رامـون : في غرفتي؟ أين؟

خينوبيبا : تحت سريرك ذاته . أعطنيها!

رامـون : لايمكن أن يكون .

خينوبيبا : تحت سـريرك ذاته ، أقـول لك . ارفع اللوح الخامس جـهة البـاب . أعطني رسـالتي ... رسـالتي . أعطني الرسالة . (**آماندا ورامون يتبادلان النظرات ذاهلين . تتـحـرك آمـاندا فـوراً وتهـرع إلى الجـانب الأيمن وتخرج**) . ألـم أقـل لـك أيـن الجـــواهـر؟ أعـطـنـي الرسالة .

رامـون : بعدئذ . أولاً ، أحتاج إلى أن أتحقّق من صدقك .

خينوبيبا : أعطنيـهـا ، بأغلى مـا تحب . قـد ينتظر المرء أعـوامـاً وأعواماً ، لكن ، يأتي عليه وقت لا يستطيع أن يصبر دقيقة واحدة . هاتها! هاتها! (**تستولي عليها منه . يتحرك رامون لاستردادها . يتماسك**) .

رامـون : لابأس عليك! لكن ، اقـرئيـهـا أمـامـي دون أن تتحركي . إذا كنت خدعتني ، فسوف ترينها تلتهب في المدفأة كالرسائل الأخر .

خينوبيا : «حبيبتي، يا أغلى الحبايب!» **(تروح وتجيء مضطربة دون أن تقدر على متابعة القراءة مردّدة بصوت خفيض وسريع وكأنها تردد صلاة، دون أن تتوقف)**. حبيبتي يا أغـ ـلى الحبا ـ يب ـ شكراً ـ لله ـ تعا ـ لى. حبيـ بتي يا أغـ ـلى الحبا ـ يب ـ شكراً ـ لـ ـمريم العذ ـ راء. حبيـ بتي ـ حبيـ... أين السطور التالية؟ أعطني نظّارتي.

رامون : أية نظارة ؟ لم تستعملي نظّارة قطّ.

خينوبيا : ألـم أستعملها؟ **(تفرك عينيها بسرعة)**. «حبيبتي، يا أغلى الحبايب!» **(تصبح منقبضة)**. أشفقْ عليّ، يا رامون، واذهب من هنا! ألا تدرك أني لا أستطيع القراءة وأنت تنظر إليّ؟ وذلك كأنّما أتعرّى أمامك؟ دعني وحدي.

رامون : **(يشيح بوجهه)**. اقرئي بهدوء. لن أنظر إليك.

خينوبيا : «حبيبتي، يا أغلى الحبايب! عند تلقّيك رسالتي سيكون المركب بانتظارك». المركب! المركب السريع، الفرقاطة، المركب الكبير، والبحر! «سيرافقك رامون إلى العاصمة من أجل إتمام معاملة الزواج نيابة عني ...» الزواج ... أسمعت، يا رامون؟ ينبغي لك أن تأخذني إلى العاصمة بأسرع ما يمكن. فالقارب بالانتظار.

رامـون : (**بصوت أجش**). نعم، أعلم ذلك، أعلمه.

خينوبيبا : متى ستقودني إلى العاصمة؟ متى؟

رامـون : الآن. عربة الركاب ستنطلق عند الغروب.

خينوبيبا : هـذا اليـوم ذاتـه؟ إذاً، لا أستطيع أن أضيّع لحظـة واحـدة، ينبغي لـي أن أعدّ أغراضي.

رامـون : أعِدّ كل شيء. (**تظهر آماندا مشرقة الوجه**).

آمـانـدا : رامون!

رامون : أكان الكنز حقيقة؟

آمـانـدا : أكثر مما يمكنك أن تتخيّل! (**يهرع رامـون ويخرج مع آماندا. تأخذ خينوبيبا بصعود الدرج مسرورة**).

خينوبيبا : أعطوني مـتـاعي فـوراً! المركب بانتظاري! أعطـوني سترتي وقبّعتي. أعطوني مظلتي الشمسية الحريرية لأن أمـريـكـة مغـمـورة بـالشمس ... انتظر لحظة، يا قـبطان! مـركب صـغـير ـ وـ مـهـاميـز ... فـرقـاطة ومـهـامـيز ... خـضـرة ـ وـ مهاميز ـ لحظة واحـدة، يا قبطان! ... (**تخرج دون أن تسمع أوربيل الذي يدخل وهو يناديها**).

أوربيل : خـالـتي، خينوبيبا ... خـالـتي ... (**يهمّ باللحاق بـهـا. تصل روسينا مبهورة الأنفاس**).

روسينا : أوربيل ! اسمعني ! يُقال إنك تفهم الذين يحبّونك حقاً بمجرد النظر إلى العينين. وأنا أحبك، يا أوربيل! أحبك، بيأس! انظر إليّ! (**تضع يديها على منكبيه**). أتفهمني إذا تكلّمت على هذا الشكل؟ (**يشير إليها بالإيجاب**). جئت من عند عربة المسافرين. ستُنقل الخالة خينوبيبا لحبسها في بيت له مئة شرفة مشبّكة بالحديد. هو سجن. سيُنزع منها كل شيء: عرق اليانسون وورق اللعب والطرحة البيضاء ومروحة الانتظار... لايمكنك أن تتخلّى عنها. أحقاً أنك لن تتخلّى عنها؟

أوربيل : (**بصرخة صماء**). لا !!! ...

روسينا : السيد دون خيرمان يسير في طريق لابرانيا قاصداً بيت الخولي. يمكنك أن تدركه جرياً على الحصان إذا سلكت طريق بونتون المختصر. حصان أبيك مسرج، لكن المهر أسرع ... أيخيفك ركوبه عارياً؟

أوربيل : لا!!! (**يهرع صوب المدفأة ويرفع عن الحائط المهاميز التي يلبسها سريعاً**).

روسينا : دون خيرمان هو خشبة نجاتنا الوحيدة. هما لا يجرؤان عليه. أسرع قبلْ أن يفوت الوقت. (**لما رأته لابساً المهاميز**). اترك المهاميز، اتركها! هو مهر ملتهب الدم. أبوك نفسه لا يجرؤ على ركوبه

بهماز. (تركع محاولة نزعها). بحياتك، اخلعها، اخلعها، يا أورييل!

أورييل: لا!!!... (يبعدها بعنف حتى تسقط أرضاً، ويخرج راكضاً. تصرخ للحظة وهي على الأرض ثم تجري خلفه).

روسينا: المهاميز لركوب الحصان، وليس للمهر. اسمعني، يا أورييل!... أورييل! (تخرج وهي تنادي قلقة. تسمع صيحات خارج البيت. صمت قصير. تدخل روسينا مرة أخرى. وتهرع نحو الباب الأيمن منادية). سيدي، المعلّم!... سيدتي، آماندا، سيدي!... (يظهر رامون ثم آماندا).

روسينا ورامون وآماندا

رامون: لِمَ هذه الفضيحة من الصياح والعياط؟

روسينا: خرج أورييل يحضر على المهر.

آماندا: وماذا في ذلك؟ ألم يركب هذا المهر مئة مرة؟

روسينا: لكن، ليس بالمهاميز.

رامون: (مذعوراً). أركبه بالمهاميز؟ أو سمحت له بذلك، يا حمقاء؟

روسينا: لم أستطع صنع شيء. كان أقوى مني.

آماندا: من أين ذهب؟

روسينا : باتجاه طريق البونتون.

رامون : عبر الصخور؟ اللعنة على هذه الساعة. بنيّ! (**يخرج راكضاً. تتبعه آماندا وروسينا. خشبة المسرح شاغرة. صمت وفترة سكون. يصبح الضوء مرة أخرى غير واقعي . تخترق زخّة من أنغام الهارْب الصمت مرة أخرى. تدخل الأمّ والجدّ وآليشيا ببطء. يظل الثلاثة ساكتين للحظة، ناظرين نحو طريق البونتون**).

الأم والجد وآليشيا

الأم : لِمَ سلك هذا الطريق السوعر على وجود طرق أُخر أسهل؟

الجد : هذا شيء لا يُفكّر فيه، وإنما يُعثر عليه عثوراً.

الأم : أفي مثل شبابه أيضاً! يكاد يكون طفلاً.

الجد : لا، ياكلارا. صار رجلاً كاملاً.

الأم : كانت تثير خوفي الصخورُ والجياد دائماً. الآن عرفت السبب.

الجد : وهو أفضل الأسباب. أتريدين له طريقاً طويلة من الآلام كالتي سلكتها؟

الأم : لا أريدها له. بل كل ما أريده أن يستطيع تجنّب الألم.

الجد: هي لحظة تقريباً. ولن يكون له فسحة من الوقت للإحساس به. أتسمعين؟ (**يُسمع بعيداً صوت إحضار المهر، الذي كفّ عن أن يكون صوتاً حقيقياً ليتحوّل إلى أصداء موسيقيّ مرهق. تتقدّم آليثيا خطوة ناظرة بحماس**).

آليثيا: فارس أيّ فارس! دون ركاب ودون سرج.

الأم: كذلك كان أبوه وجدّه. وكل رجال هذه العائلة.

آليثيا: انظر إليه كيف يحني رأسه ليشقّ الريح! انظر كيف تقدح السنابك الأربعة شرراً فوق الصخر!

الجد: ها هو قد انعطف في طريق البونتون.

الأم: (**تتقدم وكأنها تنادي صارخة لكن دون أن ترفع صوتها**). لا تحثّه بالمهماز! لا تحثّه يا أورييل!

الجد: لا تنظري إليه الآن، يا كلار!. ولا أنتِ، يا آليثيا. (**يشيحان كلتاهما بوجهيهما ببطء وتظلان ساكنتين، الأم مغمضة العينين، مطأطئة الرأس. يظل الجد ينظر بإمعان. برهة صمت، مصغياً خلالها إلى صوت إحضار بعيد. يسمع فجأة صوت ارتطام حادٍ وخشن في آن واحد ترك صدى في الهواء. ينقطع الإحضار. صمت. يحني الجد جبهته**).

الأم : (بصوت ضعيف). أقضي الأمر؟

الجد: قضي. **(تفتح الأم عينيها وترفع رأسها. تعبر خشبة المسرح ضوضاء أنغام الهارب. يظهر أورييل في الباب الكبير بذات البدلة والمهماميز، لكنها صارت بيضاء، ويظل للحظة كأنما بهره النور. يتقدّم بضع خطوات ويرفع يديه إلى عينيه).**

المذكوران سابقاً وأورييل

أورييل : أأنتم الثلاثة هنا؟

الأم : ألا ترانا؟

أورييل : بهرني فيض النور.

الجد: هي اللحظة الأولى فقط.

الأم : أتألّمت يا بني؟

أورييل : حتى لم أشعر بالضربة. لكن، كيف يمكن أن يكون ذلك بهذه السهولة العجيبة؟ وكيف أمكنني الشعور على غير انتظار بالحرية والاطمئنان؟

الجد: لأنك أصبحت غير مختلف. نحن - هنا - كلّنا سواء.

أورييل : (للأم). والآن، ماذا عليّ أن أعمل؟

الأم : لاشيء. أنت الآن، ببساطة في أول طريق الأمن والسلام.

آليشيـــا : **(تخرج نجمتها من جيبها)**. أتريد نجمتي البحرية؟ يمكن أن تكون لنا كلينا.

أوريل : شكراً، يا آليشيا.

الأم : أنذهب؟

أوريل : انتظري! لديّ إحساس بأني أفتقد مالا أدري. أفتقد شيئاً ما. أو أحداً ما ... انتظري. **(تظهر على السلم الخالة خينوبيا سعيدة، مع مروحة الصدف معلّقة بعنقها، وسترة سفر وحقيبة وشمسية مطرّزة. تنزل الدرج منادية بفرح إلى هذا الجانب أو ذاك. تقوى الإضاءة عند حضورها)**.

المذكورون وخينوبيا

خينوبيا : أوريل ... أوريل ... أوريل!

الأم : أليست خينوبيا ما تفتقد؟

أوريل : كيف سيكون وضعها من دوني؟

الأم : هي ستسلك طريقها الخاصة بها. طريق واضحة سهلة مثل طريقك. وسيكون لها عالم آخر سعيد.

خينوبيا : أسرع، يا أوريل، فالمركب بانتظارنا. وأمريكة بانتظارنا. خير ما في الدنيا بانتظارنا. أسرع، هو آخر قارب! أوريل. **(تضع الشمسية على المنضدة وتلبس قبّعة السفر)**.

أوريبل : لا أستطيع أن أتركها على هذا الشكل دون وداع. لابدّ من وجود طريقة ما لأقول لها وداعاً.

الأم : لايمكننا أن نصنع شيئاً، يا بني.

أوريبل : أنتم لا تستطيعون، لأنكم بعيدون. أما أنا فما زلت قريباً جداً منها! وما زلت أحس بالحرارة في يدي!

خينوبيبا : (**تخرج الرسالة كيما تقرأها مرة أخرى. تردّد الكلمات الثلاث الأول، لكن بشفتيها فقط، على شكل يخمّن تخميناً أكثر مما يُسمع**). «حبيبتي، يا أغلى الحبايب!» لِمَ أبطأت عليّ طويلاً حتى قلتها لي مرة أخرى، يا حناني القاسي! يا غيابي الصامت! يا أملي رفيق دربي! (**يخطو أوريبل خطوة نحوها**).

الأم : إلى أين ذاهب؟

أوريبل : لأدع لها الشيء الوحيد الذي أستطيعه. سأهدي إليها هدية وداع. (**يجيب على إيماءة أمه**). دعيك مني. أنا على علم. (**يدنو. تسمع أنغام آلات الهارب. يأخذ يدها برقّة فائقة ويودعها قبلة. تنتاب خينوبيبا رعدة وتظل ساكنة للحظة. تسحب يدها وقد سرت فيها قشعريرة، ولا تجرؤ على النظر إليها**).

خينوبيبا : مَنْ هنا؟ ... من؟ ... (تلتفت بعنف وتصرخ صرخة مخنوقة). من؟ (**تتنهّد وقد سُرّي عنها**). لا أحد.

ويا للعجب !كان ذلك، كانفتاح النافذة فجأة، ودخـول هبّة هواء طرية. (**تنظر إلى يدها**). لكنّ الأثر انطبع هنا فقط. لم ألق يدي قطّ بهذه العذوبة، وهذه القوة... وهذه البرودة... وهذه الحرارة في آن واحد. (**تمسك هذه اليد باليد الأخرى، وترفعها إلى وجنتها وتداعبها وتقبّل موضع القبلة. الجدّ على وشك أن يخرج تتبعه الأم وهي تنظر إلى أوريبل. تمسك آليشيا بيد أوريبل الذي لا يرفع بصره عن خينوبيبا، وتقوده معهم ببطء. يُسمع بعيداً زعيق صافرة المركب. تجيب مبتسمة**). أنا ذاهبة إليك! لا تقلق، يا حبيبي... يا حبيبي...! يا أغلى حبيب... (**مايزال أوريبل في العتبة واقفاً وقفة الوداع. صفير صافرة جديدة حتى النهاية. خينوبيبا المولية ظهرها أوريبل، تتجه صوب الباب فاتحة مظلّتها الشمسية مجيبة النداء البعيد**). تريّث، يا حبيبي... تريث! (**وتخرج مشرقة الوجه قاصدة أمريكة**).

ستار

سيمفونية دون ختام

مسرحية بثلاثة فصول

الفصل الثالث مكون من ٣ مناظر

شخوص المسرحية

١- كارولينادهِ إسترهازي

٢- تيريسا غروب

٣- كونتيسة دهِ إسترهازي

٤- مارياّده إسترهازي

٥- مدام سان سوسي

٦- المرأة الصمّاء

٧- الخادم باليريا

٨- غريتِل

٩- شغّاله١

١٠- شغّالة٢

١١- خوان مايرهوفر

١٢- فرانزشوبرت

١٣- البرجوازي الطيب

١٤- مايسترو هولزر

توضيح

هذه المسرحية صورة للحياة الرومانتيكية، بطلها الموسيقيّ النمساوي الرومانسي فرانز شوبرت، وقصة حبّه للكونتيسة ده إِسترهازي. وكانت ثمرة هذا الحب المخفق السيمفونية بالسي مينور، أو غير المختتمة كما سمّاها المؤلف وليس الناقصة أو غير المكتملة كما درجت التسميات التي أطلقت عليها. ولم يكن عبثاً اختيار موسيقي بطلاً لها. فالموسيقى تلعب دوراً هاماً في مسرح كاسونا، سواء كخلفيّة في بعض المشاهد، أو كعنصر لاغنى عنه في مسرحيات أخر.

غيّر المؤلف في بعض التواريخ. فجعل الأحداث متزامنة مع مؤتمر ڤيينا ١٨١٤ . في حين كان شوبرت عند آل إسترهازي صيفي عام ١٨١٨و١٨٢٢، ثم اختصر هذين الصيفين إلى صيف واحد. وأضاف بعض الشخوص وأنقص من عدد إخوة شوبرت الثمانية عشر فجعلهم أربعة عشر. وجعل العلاقة بين فرانز ووالده متوتّرة غير ما هي في الواقع. كل ذلك حواشي تخدم العمل الدرامي وتغنيه.

المترجم

العصر

هي لحظة تاريخية كانت كل «الدروب فيها تؤدّي إلى ڤيينا» . هُزم نابُليون وعقُد مؤتمر ڤيينا لمحاكمته وتوزيع إمبراطوريته، برئاسة الداهية ميترنيخ الذي كان يجمع على مآدبه كل ملوك أوروبا ودبلوماسيّيها وأرستقراطييها ويسكرهم بحفلاته الباذخة ليخدّرهم وينتزع منهم أكبر حصّة من الغنيمة .

ڤيينا مدينة الترف واللذّة . لكن، إلى جانب احتفالاتها وأسهمها النارية، يحيا الفنانون الشبّان حياة من الأحلام والحمّى في حانات الطلاب وغرف دون تدفئة .

كانت روح الثورة الفرنسية جنحت بهم نحو مثاليّة طفوليّة مفعمة بإيمان ساذج بريء، كما بحركات لا معقولة . فبدلاً من أن يرفع «أصدقاء الشعب» هؤلاء المشاعل، كانوا يرتدون ربطات عنق فراشة ويرسلون شعورهم . إنهم معشر فوضى وصخب، لكنهم منفتحون على كل الأحلام في الجمال والعدل . كانوا حساسية مجسّدة .

أما البرجوازيون المطمئنون، فهم يتغذّون بالسجق و«الشوكروت»، ويقرؤون الصحف الخاضعة للرقابة ويصفّقون بحماسة للأوبرا الإيطالية، بينا الشبيبة تعشق

بيتهوفن، وتناضل تحت رايات السيمفونية الألمانية في حرب أهلية دون سفك دماء، يُحطّم فيها زجاج الفضيحة في المسارح والمقاهي.

بطل هذا الصراع المشهور الشاعر والخطيب المفوّه ما يرهوفر ذو الطبع الحادّ والشعر الطويل المسدل. هرب في بداية حياته من المدرسة الدينية، وانتهى أخيراً بالانتحار. كان يحيط به لفيف من الشعراء والموسيقيين والرسامين بينهم شاب أخذ يلفت إليه الانتباه. وهو ذو مظهر خجول، لكن روحه تضطرم كاللهب. كان أحد أربعة عشر أخاً هم أبناء البرجوازي[1] فلوريان شوبرت معلّم مدرسة في حي ليشتنتال. يدعى فرانز ويرتعد من الانفعال إنْ ذُكر اسم بيتهوفن. وكان يحبّ الشعب بإيمان قدّيس ويكتب أغانيه الأو ل حول قصائد ماير هوفر، وكان منذوراً للارتقاء با «لليد» الشعبي إلى أعلى المراتب الجمالية.

هي لحظة من لحظات أوروبا المؤثرة في النفس. تدبّ الحياة في البيوت عند المساء، حين يُشعل القنديل في غرفة المعيشة؛ فالأمّ تنسج، والأب يدّخن التبغ في غليونه الخشبي الطويل، والصبيان يقبضون على كمنجاتهم ومساند نوتاتهم. إنها «ساعة الألحان!».

---

(١) بالمعنى السائد تلك الأيام: قاطن المدينة وابن الطبقة الوسطى فيها.

كانت الرومانتيكية كقاعدة للحياة، وخلق اجتماعي، ومدرسة فنية، آخذةً بالازدهار في نفوس شبان في العشرينيات من أعمارهم. لكن الرومانتيكيين كانوا مايزالون يجهلون الاسم الذي أُطلق عليهم.

الوقت تشرين الثاني من عام ١٨١٤ . والمكان ڤيينا عاصمة الموسيقى؛ والطقس مثلج.

آليخاندرو كاسونا

الفصل الأول

عليّة تحت الجمالون في بنسيون مدام (سان سوسي)، تسودها فوضى وجمال من طابع بوهيمي رومانتيكي. في الخلفية نافذة تطلّ على سطوح ڤيينا المغطاة بالثلج. في الجانب الأيمن باب يؤدّي إلى السلّم.

في البعد الأول من ذات الجانب ممرّ داخلي يتّصل ببقيّة المسكن في الجانب الأيسر. باب آخر يطلّ على حجيرة حيث يشتغل شوبرت. العليّة موضوع حديثنا هي في آنٍ واحد غرفة طعام واستقبال ومكان دراسة ومخدع، يدلّ على ذلك منضدة مستديرة عليها غطاء وُضعت فوقه جرّة فيها أزهار، وكومودا عتيقة، وصوفا حمراء باهتة وحامل لرسم اللوحات، وسرير أعرج قامت كومة من الكتب مقام ساقه المفقودة، ولوحات ومشاريع لوحات معلّقة على الجدار بفوضى ظريفة. في مكان بارز علّقت صورة بيتهوڤن في أوج مجده.

عند رفع الستار، يتنصّت ما يرهوفر عند الباب فارضاً الصمت على سباون وكيتر. يُسمع من الداخل لحن

«الإمبرونتو» الثالث المعتدل البطء، يُعزف على البيانو.
لحظات صمت طويلة.

مايرهوفر: ما أروعه! أيُعقل أن يمثّل هذه الليلة في الحفلة فنّان من هذا الطراز لابساً كما يلبس الشحّاذون؟ لا! وألف مرة لا! سباون: لابدّ لنا من نحصل له على (فراك) محترم مهما كلّفنا.

سباون: وماذا تبغي مني أن أصنع؟

مايرهوفر: فكّرْ في أن حفلة هذه الليلة قد تقرّر مصيرنا جميعاً. فسوف تحضرها عقائل المجتمع والمستشارون ومديرو المسارح. ولا يمكن لفرانز أن يمثّل أمامهم بهذه الهيئة الرثّة. أنت لك أصدقاء أثرياء.

سباون: كانوا فبانوا. منذ أن ضاقت ذات يدي، أصبح هؤلاء الذين كنتُ أعدّهم أصدقاء لا يستقبلونني في بيوتهم.

مايرهوفر: ما أحقرهم! إذاً، حانت لحظة البطولة. سباون! خذ معطفي إلى المُقرض.

كينّر: المعطف؟ لكن، ماذا سيكون وضعك هذا الشتاء؟

مايرهوفر: ما أجمل الموت في سبيل الفن!

كينّر: (يتردّد لحظة) سباون، خذ معطفي أيضاً!

مايرهوفر: ماذا تقول يا أحمق؟ بمعطفك نحتمي كلانا.

سـباون : (يتأمل المعطف المتّسخ المثقّب) أو تحسب أنّ المقرض يعطي شيئاً مقابله؟

مايرهوفر : قل له إنه معطفي.

كـسـينّـر : حتى لو كان معطف فريدريك «الأكبر»!

مايرهوفر : لا تكن انهزامياً! فكر فقط في أن المقرض له بنت. وأن هذه البنت ذات عـينين زرقـاوين. وأن هـاتين العينين تبتسمـان لك دائماً. غازلها إن لزم الأمر، لكن، عدْ إلينا بالفراك المحتشم.

كـسـينّـر : فـي هـذه الـسـاعـات تـكـون الـفـتـاة وحـيـدة، غازلها! فأنـت ذو حميّة وشباب. .

سـباون : وإذا وجدتُ الأب بدلاً منها؟

مايرهوفر : إذا وجـدتَ الأب، اقتله! انتظر. خـذ هذه الجـرة تحسباً لكل طارئ.

سـباون : لكن هذه الجرة ليست لك. مـاذا تقـول صـاحـبـة (البنسيون)؟

مايرهوفر : المدام رؤوم جـداً وستتـفـهم وضـعنا مـرة أخـرى. أعظمْ بها من امرأة! أما الزهور، فدعـها. فليس من العدل أن تأخذها أيضاً.

سـباون : تبدو جرّة من جرار «سيڤر».

مايرهوفر: بل تقليد تافه. أتحسب لو أنها من جرار سيفر، أكانت تبقيها هنا؟ هيّا، كن مطمئن الضمير وخذ هذه الجرة!

كينّر: (**صارخاً عند السلّم.**) تحياتي إلى ابنة المقرض. قل لها إني سأرسم لها لوحة... تبدو فيها حورية عارية.

مايرهوفر: أضاء الربّ دربك! (**لما صارا وحيدين، يتناول كينّر فرخاً من ورق الصرّ ويجلس إلى الطاولة لتسطيره بالمسطرة. يأخذ مايرهوفر من الكومودا سلّة خياطة صغيرة. يخلع سترته البائسة ويجلس على السرير ليرقعها. فترة صمت.**) أما تزال تثلج؟

كينّر: الآن، توقّف الثلج.

مايرهوفر: لا أذكر في حياتي يوماً أبرد من هذا اليوم.

كينّر: ليس برد اليوم وحده. وإنما زُرع في عظامنا برد البارحة وأول البارحة وبرد أيام هذا الشتاء كله.

مايرهوفر: أليس لدينا شيء نلقيه في هذه المدفأة؟

كينّر: كتب. لكنّ الكتب لا تطلق غير الدخان.

مايرهوفر: لِمَ لا ننزع إحدى قوائم السرير؟

كينّر: قائمة أخرى؟ محال! نزعنا إحدى قوائمه. ولا يوجد سرير في الدنيا يقوم على أقل من ثلاث قوائم.

مايرهوفر: إذاً، نستطيع بيع المدفأة، إذا لم يكن لدينا شيء نلقيه فيها.

كينّر: وهي ليست ملكنا أيضاً.

مايرهوفر: ألم تلاحظ ملاحظتي؟ غرفة فيها مدفأة مطفأة، هي أشدّ برداً من غرفة دون مدفأة.

كينّر: هذا وهم. لا تفكّرْ في الأمر كثيراً.

مايرهوفر: غطِّ هذه النافذة على الأقل. ضع عليها كرتونة.

كينّر: لا يوجد لدينا كرتون.

مايرهوفر: غطّها بالأوراق، بالخرق... أليس لديك ورق مقوّى للصرّ؟

كينّر: لكني أسطّره من أجل الكتابة الموسيقية. فرانز يستهلك عشرين زوجاً منه يومياً. والورق المسطّر غالٍ جداً. وهذه آخر كمية استطعت انتزاعها من الجزار.

مايرهوفر: جزار قذر! لن أنسى أبداً تلك البسمةَ، بسمة الضبع التي تلقّاني بها من الدكان قائلاً لي: شاعر محض لا يحتاج إلى أكل اللحم.

كينّر: خير لك أن تنساها، يا سيد مايرهوفر. فنحن مدينون له بكل ما استهلكناه خلال أربعة أسابيع.

مايرهوفر: أربعة حقاً؟ إذاً، أنت على صواب. فلْننسها. (**لحظات سكون**) ألن ترسم اليوم شيئاً؟

كـــينّـر: نفدت ألواني.

مايرهوفر: وهذا أيضـاً؟ اللعنة على هذه الحيـــاة! (**لحظات سكون أخرى.**) اسـمع: أتحسب أن نأكل اليـوم شيئاً؟

كـــينّـر: وما أدراني! . . . ما علينا غير الانتظار.

مايرهوفر: فلننتظرْ. (**برهة سكون**) قـل لي، يابابلو، إذا كنت جائعاً، أتحسّ بالألم كثيراً؟

كـــينّـر: كما تحسّ أنت.

مايرهوفر: خطأ فظيع! فكر لحظة؛ إذا استطعنا الطعام، أنا آكل ثلاثة أضعاف ما تأكلون. بالتالي: إذا جعنا، فإني أعاني من الجوع ثلاثة أضعاف ما تعانون. بذلك يقضي المنطق! (**يوقف شغله للحظة ليفرك صدره وينفخ في أصابعه.**) أتُثلج مرة أخرى؟

كـــينّـر: البس هذه السترة. فسوف تتجمّد.

مايرهوفر: ينبغي لي أولاً أن أثبّت هذا الزرّ عليها. أتدري ماذا يعني لي؟ لما كنت أعيش وسط أسرتي، اشترت لي أمّي بزّة زرقاء رائعة. ومازلت منذ عشر سنين أرقعها وأرفوها. وهذا الزرّ هو الشيء الشرعي الوحيد الذي بقي منها. إنه التراث! ولا بد لنا من الحفاظ عليه. إذا صرت غنياً سآمر بصنع بزّة كاملة من أجل هذا الزرّ! (**ينفخ في أصابعه مرة أخرى.**) كل البرد

من النافذة. . . اسمع يا بابلو: مارأيك لو ضحّينا بإحدى لوحاتك؟ أعلم أن ذلك مؤلم لك، لكن. . . أتعجبك هذه اللوحة لفينوس، مثلاً؟ أتعجبك؟

كينّر: عجباً! أكل هذا الإحساس بالبرد؟

مايرهوفر: أوه! ذلك ليس من أجلي. لكن فرانز ضعيف البنية. وقد بات هذه الليلة وهو يسعل.

كينّر: يسعل؟ فرانز يسعل؟ **(ينزع الكرتونة ويسعى لتثبيتها في فراغ النافذة وهو يزفر).**

مايرهوفر: شكراً لك، ياكينّر. سيذكر لك التاريخ هذه التضحية. **(يرتدي سترته ويفرك صدره ويشرع في خطبة نارية.)** آه منك يا ڤيينا! يا عاهرة بائسة! أنت عاصمة الدنيا اليوم، ومؤتمرك عُقد لمحاكمة نابليون وتوزيع الغنيمة. ضيوفك عشرون أميراً وأربعة عشر ملكاً أثقلوك بالجواهر والرسوم والأقراط كأنك امرأة سيئة السمعة. لكن، خلف أكاليل النصر الإمبراطورية، يموت فنانوك جوعاً وبرداً. انظري إليهم يا ڤيينا! اسمعي صوت أبنائك! **(يرتفع صوت البيانو مرة أخرى ملحاً على «الموتيف» الأول من جري الحصان في «ملك الحور». . .)**

كينّر: صه!

مايرهوفر: عفواً! . . . (يقفان متنصّتين. مدّة سكون ضئيلة. تدخل مدام سان سوسي صاحبة البنسيون. وهي امرأة في الثمانية والأربعين من عمرها، تدّعي عبقرية لا تملكها. لكن، خلف ذلك تتجلّى روحها، روح سيدة فرنسية كبيرة منفية.)

المدام: ماذا يجري هنا؟ من صاحب هذه الضوضاء؟

الاثنان معاً: هسّ! هسّ!

المدام: ألن نحظى بساعة واحدة من الهدوء؟

الاثنان معاً: هس! هس!

المدام: أتشيران إليّ؟ أتأمرانني بالسكوت؟ أنا أصرخ حيث أشاء. أنا في بيتي.

الاثنان معاً: صهِ!

المدام: (بصوت قويّ مرة أخرى.) نعم؟ ماذا يعنيني من موسيقيّكم هذا؟

كينّر: إذا كان الفنان يعمل، فمن العار مقاطعته.

المدام: العار أن تستأجر غرف بيت سيدة فقيرة مهجورة ولا تدفع لها أجراً. العار أن ترهن أدوات الطعام وتنزع قوائم الأسرة، وتثير استياء الجيران «بالسيرِناتات[1]» التي تحيونها حتى مطلع الفجر.

---

١ – موسيقى تعزف في الهواء الطلق ليلاً، تكريماً لشخص ما.

كـــيـنـّـر : أصبحت السيرناتات في خبركان. أسمعت شيئاً الليلة الفائتة؟

المـــــدام : أعلم حقاً، أن شموعكم نفدت الليلة الفائتة. لكن هذا الوضع لا يمكن أن يدوم يوماً واحداً آخر. سيد خوان مايرهوفر: لا يوجد في البيت حضن واحد من الحطب، ولا قطعة خبز، ولا سنتيم واحد لشراء شيء من السوق. إذا لم تجدْ علاجاً آخر، فانصرفوا برعاية الله. وأنا سأعفو عن كل ماتدينون لي به. لكن، أخلوا الغرف!

مايرهوفر : أنفترق عن بعضنا؟ محال! كيف يساورك الظن بأنني أستطيع التخلّي عن سيدة في محنة؟

المـــــدام : ذلك أني أستطيع تجاوز محنتي وتدبير أمري وحيدة. أما مالا أستطيعه فهو أن أطعمك، وأطعم كل أصدقائك الذين دسستهم هنا خلسة.

مايرهوفر : هم فنانون. ومن واجبي حمايتهم.

المـــــدام : ونعم الحامي الكبير! أولهم كان السيد كينّر: شاعر ورسام عبقري لا يعرفه أحد.

كـــيـنـّـر : (بانحناءة لطيفة.) شكراً، يا سيدتي!...

المـــــدام : ثم السيد شوبرت: موسيقي فذّ خارق، ولا يعرفه أحد أيضاً.

مايرهوفر : ومـاذا أنا صـانع؟ والدُفـرانز قـاسٍ مـتـوحش. تخـاصـمـا ذات ليلة، فـضـربه وطرده من البـيت. ولقيـتُه تلك الليلة في منتـجع البـراتر جـالسـاً على مقعـد، محتضناً الكمـان، ومهجوراً ككلب. وكـان البرد قـاتلاً. ولم يكن شوبرت قـد ذاق طعـاماً. مـاذا كنت تريدين مني أن أصنع؟ ماذا كنت أنتِ صانعة؟

المـــدام : أنا؟ . . . كنت جلبـتـه إلى البـيت. لكـني أستطيع صنْع ذلك. لأن البيت بيتي.

مايرهوفر : آه، مـا أكـرم قلبك المضـيـاف! (**يقبلها قـبلة يُسمع لها صوت.**) أترين؟إذاً، هذا عين ما صنعته. جلبته إلى هنا. وقلت لـه : تعـالَ مـعـي، يافـرانز. صـاحـبـة البنسيـون سيدة فـرنسية عظيـمـة منفية! إذا كـان مايزال في ڤـيـينا روح حـسـاسـة، فـهي روح مـدام سـان سوسي. هيا بنا إلى هناك.

مـــدام : (**تُبدي لين الجانب وتُستمال.**) أهذا مـا قلتـه له، يامايرهوفر؟

مايرهوفر : نعم، هذا ما قلته له!

مـــدام : وهو، . . . ماذا قال هو؟

مايرهوفر : (**مدركاً الأثر الذي تركته كلماته فيها، فيصعّد من غنائيته.**) سـقطت من عـينيـه دمـعـتـان. . . دمـعـتـان لأنني عـددتهمـا! ثم قـال لي بصوت مـرتعش : «كنت

أثق بقلوب النساء دائماً . . . وامرأة فرنسية هي امرأة مرتين . هيا بنا».

مـــدام : أهذا ما قاله، يا مايرهوفر؟

مايرهوفر : نعم، هذا ما قاله، وها هو هنا! وها نحن هنا! ثلاثة فنانين من ڤيينا تحت أقدام فرنسا! (**ينحني احتراماً. يهنئه كينّر بإيماءة، ينتهز مايرهوفر هذه اللحظة العاطفية بمهارة.**) ماذا لدينا اليوم لنأكل، يا مدام؟

مـــدام : لا أدري !سننظر في الأمر.

مايرهوفر : (**يسأل عن زجاجة كانت في يدها وتتأهّب لوضعها على الكومودا.**) وزجاجة الحليب هذه، لمن؟

مـــدام : هذه من أجل فرانز. قال الطبيب إنه يحتاج إلى تناول الحليب قبل النوم.

كـينّـر : ونحن، ماذا قال لك الطبيب عنا؟

مـــدام : عندي «غولاش» مع تورته بطاطا بائتة، إن كنتم تحبون الطعام بارداً.

كـينّـر : أماه! . . . (يعانقها)

مايرهوفر : فلنكتف با «لغولاش»! أقرّ بأني استطعت الحلم أحياناً بالسَجق بالأفاويه. لكننا سنحصل على كل شيء. مدام سان سوسي، سجّلي هذه الجملة التاريخية : «ساعة السجق قادمة!»

مـــدام: ماذا تعني بذلك؟

مايرهوفر: اسـمـعي. . . (يتعالى صوت البيانو مرة أخرى.) كيف تبدو لك هذه الموسيقى؟

مـــدام: جميلة. لكن، ماذا يعني موسيقي" هنا؟ أيوجد مواطن في ڤيينا كلها وليس موسيقياً؟

كينـرّ: شوبرت ليس موسيقياً كالآخرين. هو روح ڤيينا وقد تحولت إلى موسيقى.

مـــدام: لكنه غير معروف.

مايرهوفر: غير معروف اليوم. لكنه غداً، غداً بالضبط سيصبح مشهوراً. ألا تعلمين أنه سيقدّم هذه الليلة أولى حفلاته برعاية ساليري؟أتتخيلين المشهد؟ قاعة فيها مئة شمعدان، تتكررّ في مرايا الجدران حتى تصبح ألفاً. كل عقائل أوروبا سيحضرن متلألئات بالبسمات والجواهر. ووسط القاعة بيانو. وأمام هذا البيانو سيقف صديقنا شوبرت الصغير. سيسود صمت جليل. ثم تسقط أصابعه فوق المفاتيح وتنطلق كل هذه المعجزة من الألحان في الهواء كأنها سرب من فراخ الحمام. وستنفجر القاعة بالتصفيق. . . حينئذ سأصيح بملء فمي أن هذه الأغاني وُلدت هنا، في هذه العلية البائسة حيث كان يرتعد من الحمى فنانون فقراء. . .، ولم يموتوا من

البرد لأن قلب امرأة كان يحوطهم، إنه قلبك، قلب مدام سان سوسي!

مـــدام: بنيّ! أبنائي! (**يتعانق الثلاثة متأثرين بصدق.**)

مايرهوفر: أقسم لك، يا أماه، سنصبح ذات يوم أغنياء، وسوف تشاركيننا الثروة. وسوف تطبع كتبي، وستجد لوحات بابلو طريقها إلى المتاحف. وستطير شهرة شوبرت، ستطير عالياً حتى يعلم بها النقاد.

كـينّـر: وسنشعل المدفأة كل ليلة. وتذهبين أيام الربيع إلى البراتر مرتدية قبعة بيضاء، وراكبة عربةً يجرها جوادان.

مايرهوفر: لكن، مالك يامدام؟ أأصابك ذلك بالحزن؟

مـــدام: (**تجلس بكآبة على السرير كابحة دموعها بمشقّة.**) إذا سمعتكم تحلمون تذكرونني بأشياء كثيرة. فقد كنت غنية في فرنسا الغالية وكنت من سيدات المجتمع الراقي. وكان لي ذات يوم عربة تجرها الجياد. وكنت أرتدي هذي القبّعة البيضاء في مرابع التويلرُي. وكان لي بيت دافئ وحديقة... لكن الثورة نزعت كل ذلك مني. تلك الثورة التي تمجّدونها اليوم. وربما كنتم على صواب. فأنا لا أعي شيئاً. لكن الحديقة زرعتها بنفسي. ومن كل تلك العظمة، لم يبق لي سوى هاتين اليدين اللتين لم

تتعلما حفظ شيء . . . وهذه الجرّة التي احتضنتها معي إلى المنفى كأنها ابن غالٍ عزيز . (**تُذعر حين تفتقدها ولا تجدها. تنظر إلى كل جانب وتغير لهجتها بعنف .**) أين الجرّة؟

مايرهوفر : أيّة جرّة؟

مـــدام : ألا تعرف أية جرة؟ جرتي. جرة سيفر، أين هي؟ .

مايرهوفر : (**رابط الجأش .**) بابلو، أرأيت جرة، ذات يوم، هنا؟

كـينّـر : لم أر شيئاً .

مـــدام : (**غاضبة .**) لن أسمح بهذا. لن أسمح به . أكلتم مدّخراتي، وعثتم فساداً في غرف بيتي. وغفرت لكم ذلك كله . أو لم تكونوا قادرين على احترام الشيء الوحيد الذي احترمته الثورة الفرنسية ذاتها؟من أخذها؟ (**يُدق الباب ثلاث دقات بطيئات متفرّقات. صمت مقلق .**)

كـينّـر : أيُدّق الباب؟

مايرهوفر : نذير سوء. هذا الباب لا يُدقه غير الشرطة والدائنين .

المـــدام : (**مثارة .**) ليتها كانت الشرطة! .

مايرهوفر: بحق الله، اسكتي، يا مدام! أعدك أن سارق الجرة لن يظل دون عقاب. لكن، إلى أن يتحقّق ذلك، نحن غير موجودين، كائناً من كان يسأل عنا.

(يستلقي على السرير ويتغطّى بالمعطف. أما كينر فقد اختبأ وراء حامل لوحات الرسم. يُدق الباب مرة أخرى.)

المـــــدام: ادخـــل! **(يُفتح الباب ويظهر «صاحب المخزن». وهو منُتج بشري ذو مظهر ضئيل، لكنه هادئ هدوءاً يثير القلق. وله لحية صغيرة مدبّبة. يحيي بانحناءة لطيفة، وينظر في دفتر.)**

المذكورون سابقاً وصاحب المخزن.

صاحب المخزن: سيدتي... أهنا السيد فرانز شوبرت؟

المـــــدام: فرانزشوبرت غير موجود.

صاحب المخزن: حسن! والسيد... خوان مايرهوفر؟

المـــــدام: وهذا غير موجود أيضاً. هنا لا يوجد أحد.

(تُسمع بعض الإيقاعات على البيانو.)

صاحب المخزن: إذاً، من يعزف على البيانو في الداخل؟

المـــــدام: أيهمك جداً، يا سيد؟

صاحب المخزن: جداً، يا سيدتي. لأن هذا البيانو ملكي. وهؤلاء مدينون لي ببدل إيجار لثمانية أسابيع.

ولبلوغ العلّيـة اضطررت إلى صـعـود مـائة وأربعين درجة. ولن أصعدها بعد اليوم أبداً. فهذه المرة، إما أن أقبض الإيجار أو آخذ البيانو.

المـــــــدام: أو سوف تحمله على ظهرك؟

صاحب المخزن: مـعي رجـلان ينتظرانني تحت. أعلم أن ضيوفك فنانون وسوف تُدركين أنني في التعامل مع الفنانين اتّخذت كل الاحتياطات.

مـايرهوفـر: (**يكشف الغطاء عن نفسه مهاناً.**) ماذا تقول هذه العنز الحقيرة؟

صاحب المخزن: أقـول ببساطة: إمّـا أن أقـبض الإيـجار، أو آخذ البيانو.

مايرهوفر: (**يتقـدم على شكل عـدائي. يطلّ كينر أيضاً.**) سيدي العزيز: أصعدت حقاً درجات السلم كلها؟

صاحب المخزن: بالتمام.

مايرهوفر: أوفكرت في الطريقة الملائمة لنزولها؟

صاحب المخزن: إما بصحبة البيانو، أو الإيجار. وقد جئت مستعداً لكل طارئ.

مايرهوفر: أحقاً؟ حسن جداً! (**يأخذ بالتشمير عن ساعديه.**) طـلّ بـرأسك، مــن النافــذة، يا بابلو. أهذان الرجلان تحت؟

كـيـنـّر : هما تحت.

مايرهوفر : ما شكلهما؟

كـيـنـّر : من عتّالي الأنهر.

مايرهوفر : عتّالان؟

كـيـنـّر : ومعهما شرطي.

مايرهوفر : (**يعيد كميّه إلى ماكانا عليه.**) حسن! كم يبلغ الدين؟

صاحب المخزن : ستة كورونات بالضبط.

مايرهوفر : وهذه الكورونات الستة أينبغي لها أن تكون نقداً بالضرورة؟ ألا تجد شيئاً فيما حولك يروق لك؟

المـدام : (**عاقدة ذراعيها على صدرها ومحامية عن الأثاث.**) لا! لن أسمح بأخذ قطعة واحدة من الأثاث.

مايرهوفر : إذاً، ألا يوجد حلّ آخر؟

صاحب المخزن : حلان : البيانو أو الإيجار.

مايرهوفر : (**تبدو عليه الهزيمة.**) كما يبدو، أنت من ذوي الأفكار الثابتة. (**يُفتح الباب، ويدخل فرانز مشرق الوجه متحمّساً.**)

فـــرانــز: أيوجد ورق مسطّر؟ آتني به فوراً، يا بابلو. وسطّرِ المزيد منه. سطّرِ المزيد منه، سطر عـشـرة أزواج، عشرين، بل أربعين زوجاً. . . يداي لا تسعان كل هــذه الألحـان. . . أحس بهـا تسـري في أصـابعي كأنها النمل.

عفواً، يا مدام! (**يعانقها.**) ألن تذهبي هذه الليلة إلى الحـفلة؟مـايرهوفـر، لابد من الحـصـول على دعـوة للسيدة في الحديقة. ألن تذهبي؟

ستكون ليلة النصر، يا أماه. . . ليلة النجاح، لكن، مـاذا جـرى لكم؟ (**يقع بصره على الدخيل. يضع نظارته على عينيه.**) وهذا السيد، من هو؟

مايرهوفر: عزرائيل!

صاحب المخزن: ألا تتذكرني، يا سيد شوبرت؟ مـخزن آلات البيانو. . . ممرّسان خاكوبو؟

فـــرانــز: آه، نـعـم! (**لأصدقائه بصوت خفيض.**) أجـاء من أجل المال؟

كـيـنـــر: يريد بدل الإيجار أو البيانو، أمران أحلاهما مرّ.

فـــرانــز: لكن، أقلتم له. . . ؟

مايرهوفر: دون جدوى. هو صلب لايلين.

المــــدام: جاء بصحبة حمّالَيْن وشرطي.

كــيـنـــر: لابأس عليكم. لحظة، ياسيد، **(يدخل حجرته.)**

مايرهوفر: ادخـل، ادخـل وردّ هـذا البـاب الـذي يـأتـي منـه الـبـرد. أم تـخـشى أن يُسـرق منك شيء؟ **(يلتفت الرجل غريزياً ويوارب الباب. يعود فرانز مع كمانه.)**

فـــرانـــز: مايرهوفر، خذه إلى محل الرهان.

مايرهوفر: أتبيع كمانك؟ هذا لن يكون!

فـــرانـــز: **(ينظف نظارته بالمنديل على شكل عصبي.)** ألا تقول بوجود شرطي تحت؟أنت تعرف بالتجربة: شرطة ڤيينا يستطيع الإفلات من قبضتها اللصوص والقتلة. لكن فناناً واحداً لم يفلت منها قط. خذه.

مايرهوفر: **(متأملاً الكمان بحزن.)** بكم...؟

فـــرانـــز: إذا دُفع فيه ستة كورونات، فأودعه. ألديك ورق؟ **(يتلقّاه من كينر)**شكراً. **(يضع نظارته مرة أخرى. يحيي بانحناءة خفيفة.)** بالإذن منك، ياسيدي. **(يدخل حجيرته.)**

المــــدام: والآن... أما صرت مطمئناً؟ أيمكنك العودة غداً؟

صاحب المخزن: أفضل الانتظار.

المـــدام : أمــا تـزال فــي شكّ؟ انـصرف فـوراً، أو أحـطّم الـكـمــان على رأسك. (**يسرع مايرهوفر بتقديه لها.**) غــداً صباحــاً، ستحـصل عــلـى نقـودك. هيا، انصرف.

صاحب المخزن : إذاً، إلى اللقاء غداً، يا سيدتي... (**يخرج.**)

مايرهوفر : تاجـر فظّ غليظ القلب...، دمـه دم ضبّ!... واحسرتاه على كـمان سيقـدسه التـاريـخ! (**لكينّر دون إيمان كبير**) أتـصـدق أن يُـدفـع فـيـه سـتـة كورونات؟

كـيـنّـر : سنرى ذلك. (**يأخذ معطفه ويهمّ بالخروج. في تلك اللحظة يصل المايسترو هولزر عازف الأرغنّ العجوز، وتيريسا غروب خطيبة فرانز اليافعة. تيريساتلبس على شكل حلو، ببساطة برجوازية فقيرة.**)

كـيـنـر : أهلاً بالمايسترو هولزر.

مايرهوفر : أهلاً، تيريسا. (**يتعانقان.**)

هـولـزر : مرحباً بالمدام. (**يقبل يدها.**)

تـيـريـسا : وأين فرانز؟

كـيـنـر : إنه يعمل. وهو في أوج الإلهام. لا يقاطعنّه أحد، بحق الله. ألن تأتي إلى حفلة هذه الليلة؟

تيريسا : يالبؤسي! . . . مع الأرستقراطية؟

كينر : معذرة! أنا لا أقصد الجلوس في القاعة. نحن سنستمع مختبئين في الحديقة.

مايرهوفر: رشوت البواب، وقلت لفرانز أن يأمر بفتح النوافذ. أأنتظرك؟

كينر : إلى اللقاء، إذاً!

مايرهوفر: في الساعة الثامنة، عند حانة / تاج هنغاريا/ . **(يخرجان. كينر يحمل الكمان مخبأ تحت معطفه.)**

تيريسا وهولزر و المدام

تيريسا : أيكون النجاح من نصيبه هذه الليلة، يا معلم ؟

هولزر: أنا أثق به ثقة عمياء. لما كان طفلاً يحضر دروسي، كان هو المايسترو وكنتُ التلميذ. فرانز يحمل على أنامله كل هارمونيا الدنيا.

تيريسا : لكن، أيستطيع الحضور فهمه؟

هولزر: ولم لا؟ موسيقاه مضيئة. والضوء لا يحتاج إلى شرح. بل يُرى بكل بساطة. لكن فرانز لا يحتاج إلى المجد اليوم، وإنما إلى الصحة. كلّميه، يا تيريسا. أنت وحدك قادرة على إقناعه. من اللازم أن يعود فرانز إلى بيته.

تيريسا : لن يعود. لأنه أنوف شديد الكبرياء.

هولزر: حالة أمّه تسوء يوماً بعد يوم. وهي تهتف باسمه كل ساعة.

تيريسا : لو كان الأمر يقتصر على أمّه لما تردد لحظة واحدة. فهو يحبها حبا جماً لكن الأب ...

هولزر: ينبغي لفرانز أن يتفهّم الوضع . . . ويعفو. إخوته كثيرو العدد، والعجوز شوبرت مضطر إلى العمل دون راحة ليستطيع إقامة أودهم. ثلاثون عاماً من التعب تجعل الطبع رديئاً.

تيريسا : كان العجوز شوبرت شديد القسوة عليه.

هولزر: لكن عودته ليست من أجل العجوز، ولا إشفاقاً على أمّه. وإنّما، حفاظاً على نفسه، وإنقاذاً لحياته. أخيراً، فلتتفضّل المدام وتبيّن لك حقيقة الموقف.

تيريسا : ماذا تعني بذلك؟ هل فرانز مريض؟

مدام: ليس مريضاً بعد. وإنما هو ضعيف.

تيريسا : ألا يأكل جيّداً؟

المدام : بلى! أحياناً يأكل.

تيريسا : أحياناً؟

هــولــزر : حين يستطيع . اليوم بؤس فقط . وغداً قد يكون أسوأ من البؤس .

تــيـريـسا : لكن ، ماذا تخفون عني؟ أهو . . . ؟

المـــــدام : (**تنفجر مرة واحدة .**) أصبحت لا أستطيع السكوت بعد اليوم ، ياتيريسا . ذلك بأن هذا البيت لا يحوي حضناً من حطب ، ولا قطرة زيت . . . وأن فرانز يعمل حتى الصباح مستضيئاً بضوء شمعة من الدهن ، مرتعداً من البرد ، حتى زجاجة الحليب التي أجلبها له كل ليلة ، اضطرُّ إلى طلبها متوسّلة مدعية أنها لي . وذلك بأن صديقك الأبيّ المتكبّر يعيش على الإحسان دون أن يدري . هذا هو كل شيء .

(**تنفجر تيريسا باكية . مدّة صمت .**)

هولزر : أأدركت الوضع الآن ، يافتاة؟ الآخرون أقوياء ويستطيعون الصمود في هذه الحياة . أما هو ، فليس غير الكبرياء والحماس ما يبقيانه واقفاً على قدميه ، حتى اضطرّ إلى رهن الكمان نفسه اليوم .

تيريسا : أرهن الكمان؟

المدام : في هذه الساعة ذاتها ، حُمل إلى محلّ الرهون .

تيريسا : لكنّ هذا لن يكون . اجرِ ، يا أبت ، وأدركهم . لابدّ من إنقاذ هذا الكمان كلّفَ ما كلّفَ .

هولزر : أنا ذاهب ، ذاهب . . . كلّميه ، يا تيريسا . من الواجب أن يعود إلى البيت . (**يخرج المايسترو هولزر .**)

تيريسا: كنت أعلم أنه فقير . . . لكني ما كنت أعلمه بهذي الدرجة من البؤس. (**تخرج من عبها محفظة صغيرة.**) مدام: أنا سأحتفظ بهذا الكمان. قولي له إنه قد بيع؛ وأعطيه هذه النقود على أنها من صاحب الرهون. ولا يعلم أنها مني. وإمّا لا، فلن يأخذها.

المدام: عشرة فلورينات!

تيريسا: هي كل مدّخراتي. لا بد لنا من أن نتزوّج ذات يوم. حينئذ تصبح من نصيبنا كلينا. لكن، ما أبعد ذلك اليوم!

المدام: لكن، عشرة فلورينات مبلغ ضخم. وقد يثير شكوكه.

تيريسا: لا تخشي شيئاً. فرانز لم يعرف في حياته ثمن أي شيء. والآن، ألا تتكرمين فتتركيني وحيدة؟

المدام: وحيدة؟ حقاً . . . نحن- الفرنسيين- نعرف هذه الأمور جيداً، يا بنيتي. ونعلم أن الاتحاد الحقيقي في هذه الحياة هو اتحاد الزوجين الذكر والأنثى. «سلام!» (**تحييها تحية رقيقة من يدها وتخرج عبر الممر. تتجه تيريسا صوب باب فرانز الذي يعزف على البيانو «الأرجوحة»، وتقف دون أن تجرؤ على مقاطعته وتنظر إلى ماحولها في الحجيرة البائسة. تدق في النهاية بأناملها.**)

تيريسا: فرانز! . . . فرانز! (**يدخل فرانز حاملاً ملفّاً من أوراق الموسيقى.**)

فـرانـز: تيريسا! (يعانقها.) شكراً لك، لعودتك حتى هنا. أجئت وحيدة؟

تيريسا: رافقني المايسترو هولزر.

فـرانـز: هولزر؟... أجاء لمرافقتك فحسب؟

تيريسا: وليراك أيضاً.

فـرانـز: إذاً، لِمَ انصرف؟ ماذا يبتغي مني؟

تيريسا: لا أعلم...

فرانز: أنا أعلم: أن أعود إلى البيت، وأركع أمام أبي، كما جرت العادة دائماً! إذاً، اسمعي جيداً، يا تيريسا: لن أركع مرة أخرى أبداً. أبي يحتقرني. ولقد شتمني حتى أنه صفعني على كوني شاباً، وانتهى به الأمر إلى طردي من البيت ككلب. ورغم ذلك، أنا لا أشكو. لكني لن أعود حتى أغمر اسمه بالمجد، أو أدخل البيت مرفوع الجبين... ولِمَ ينبغي لي أنا، أن أعفو وأغفر؟

تيريسا: سيفهم أبوك الوضع.

فـرانـز: متأخراً جداً. هو معلم مدرسة ولم يعرف أن يفهمني صغيراً. دعينا من الحديث عن أبي.

تيريسا: وأمك؟ أفكرت في أنّها مريضة جداً؟

فـرانـز: جعلها تقاسي كما أقاسي. لقد آذيناها جميعاً وأضرّت بها كثرة الأولاد. لكني سأصبح اليوم

غنياً، وسوف أنقذها من هذا البيت الحزين. سنذهب للعيش في الجبل وسط الأشجار.

تيريسا: لا تحلم، يا فرانز. كل ذلك ما يزال بعيداً جداً. والأم إيزابيل تزداد ضعفاً على ضعف.

فرانز: ستشعر بالقوة ما إن تراني حقّقت نجاحاً.

تيريسا: لا تفتر عن ذكرك أبداً.

فرانز: قولي لها إني قادم هذه الليلة نفسها بعد الحفلة. لكن، من أجلها وحدها. سأذهب إليها خفية كما كنت أفعل في المرّات السابقات لما كنت أجتاز السياج، وتُلقي هي إليّ قبلة من النافذة كأنّها خطيبة. أرأيتها؟

تيريسا: بالأمس.

فرانز: عودي إليها هذا المساء، وقولي لها إني لن أفكر هذه الليلة إلا فيها. ولن أعزف إلا من أجلها.

تيريسا: (**بشيء من العتاب، ومبتسمة.**) من أجلها وحدها؟

فرانز: ومن أجلك أيضاً. ألن تحضري الحفلة؟

تيريسا: وُجّهت إليّ دعوة للحضور في الحديقة. ألستم تسمونها هكذا؟

فرانز: ليلة ولا كل الليالي! . . . أتعلمين ماذا تعني لي هذه الليلة؟ كل ارستقراطيّة أوروبا متجمّعة في ڤيينا... أو ستتجمّع فيها. وسيحملون أغانيّ معهم إلى صالونات روسيا وبولونيا وهنغاريا. . . هذه الليلة! (**ينظّف نظّارته بالمنديل مضطرباً.**)

تيريسا : أراك خائفاً جداً.

فرانز: لِمَ تزعمين ذلك؟

تيريسا : أنا أعرفك جيداً. إذا شعرت بانفعال كبير، تنظّف نظارتك على هذا الشكل.

فرانز: أحقاً؟ نعم، أنا خائف. ولا يخجلني الإقرار بذلك. مارأيك، لو انهارت آمالنا؟ أتثقين بي، يا تيريسا؟

تيريسا : أنا أثق بك بملء روحي.

فرانز: قولي لي إذاً، إن كنت مخدوعاً. تأمّلي ما سأعزف: «ملك الحور». أتتذكرينها؟ أغنية غوته التي علمتنيها. «البحيرة» على خلفية أشعار لما ير هوفر. «الصبية والموت»، و «مرغريتا على مغزلها». أليس كل ذلك جميلاً؟ أصدقيني القول، يا تيريسا.

تيريسا : سيكون النجاح حليفك أمام خير جمهور، فقد دعا ساليري إلى الحفلة كل النقاد ومدراء المسارح وأصحاب دور النشر. يقال أيضاً إن بيتهوفن حضر أيضا.

فرانز: (مرتعداً.) أقلت بيتهوفن؟

تيريسا : جاء إلى احتفالات المؤتمر ليعرض عمله الأخير، «السيمفونية السابعة». ليته يحضر حفلتك هذه الليلة!

فرانز: لا! لا أريد أن يحضر بيتهوفن! لو حضر، فلن أستطيع العزف. ألا تدركين ذلك؟ أنت مثلاً،

صوتك كتغريد عصفور، وروحك بنقاء البلور،
لكن أتجرئين على أن تغنّي أمام الله؟ إذاً، هذا
ما يجري لي بحضور بيتهوفن: لا أجرؤ على
النظر إلى عينيه. أنا شديد الإعجاب به حتى
يسحقني كأنه جبل.

تيريسا: لِمَ لا تبعث إليه بأغانيك؟

فرانز: أبعث بها إليه؟ لا، يا تيريسا. هي أغاني جيدة،
بمستوانا نحن. لكنّ بيتهوفن شيء آخر. أنا نقطة
ماء، وهو سيل جارف. وما انتفاعي بوردة أو
بأخرى، إن كان هو غابة من الورود؟ لِمَ ذكرته
الآن، يا تيريسا؟ لِمَ ذكّرتني الآن بضآلة شأني؟
**(يدعك أوراقه، ويتركها تسقط مُحبطاً. تُهرع
تيريسا إلى التقاطها.)**

تيريسا: فرانز!

فرانز: **(يظلّ متأمّلاً صورة المايسترو.)** بيتهوفن!...
**(يدخل سباون كالعاصفة صارخاً من الفرح
والانفعال. يصل محمّلاً بالرزم. تُسمع أيضاً
أصوات كينّر ومايرهوفر اللذين يصعدان إثره
راغبين في إدراكه.)**

فرانز وتيريسا وسباون ومايرهوفر وكينّر ثم المدام.

سباون: فرانز! فرانز!... أوقفي هذين، يا تيريسا! (**يقلب رزمه فوق الطاولة.**)

مايرهوفر: لكن، ماذا جلب هذا الهمجي؟

كينّر: من أين سرقت كل ذلك، يا سباون؟ أرنا، أرنا...

سباون: قفوا! اهدؤوا جميعاً! أولاً: هاهو«الفراك». اخلع هذه السترة الرثة! انظروا إليه. هو باللون الرائع اليوم، وخير مايوجد في المخزن. (**يساعدونه جميعاً لتبديل السترة.**)

كينر: رائع!

مايرهوفر: أما البناطيل، فخير ما يلائمك بناطيل سباون بلون لؤلؤي رمادي. وفوقها ربطة عنقي الزرقاء. لكن المشكلة في الحذاء.

كينر: لديّ حذاء من الجلد اللماع.

سباون: احرص عليه جداً، فهو بالإيجار أيضاً. آه! خذ معطفك. لم نحتج إليه. والآن، انتبهوا! (**يفتح رزمة أخرى.**)

مايرهوفر: لكن، أكل ذلك طلع من محل الرهون؟

سباون: منه طلعت النقود. ثم قصدت المحلات. إليكَ شموعاً كيما تستطيع العمل ليلاً، وورقاً مسطراً

قانونياً من مكتبة شتراوس. وأنابيب الألوان منها أيضاً. خذها أنت، يابابلو. اهدؤوا! لا يلمسنّ أحد شيئاً! أنا سأخرج الأغراض كلها. (تنطلق صيحات من نفاد الصبر والفرح. أما مدام سان سوسي، فلجأت إلى الصياح. بينا سباون **يفلش الرزم. يدعو إليه مايرهوفر وينتحي به إلى جهة أخرى. ويسلمه النقود قائلاً له شيئاً ماسرّاً مشيراً عليه بالصمت.)**

مايرهوفر: عشرة فلورينات!

سباون: والآن: قسم الأغذية! خبز أبيض دون حساب... جعة سوداء. هذا التفصيل الصغير كان من إيحائي لأنا كنا بحاجة إليه. احتفظوا بالقناني لوضع الشموع في فوهاتها!

فرانز: **(الذي تلقّى النقود من يدي مايرهوفر بالسرية ذاتها.)** عشرة فلورينات!

سباون: كعك محشو بالعنب، على طريقة أهالي ڤيينا.

كينّر: مازلت أعرفه على بُعد العهد به! إنه من مقهى بو غنَر، أليس كذلك؟

سباون: نعم، من مقهى بوغنر. كستناء مشوية ساخنة... آه! وباقة من البنفسج للمدام! أماه!... **(يسلمها الباقة بانحناءة لطيفة.)**

المـــدام: شكراً، يابني. هذه الفكرة اللطيفة لا تخطر على بال أحد غيرك.

ســـباون: «النمرة» الأخيرة... انتبهوا! (**يخرج الكنز الآخير بجلال.**)

مايرهوفر: ماذا ترى عيناي؟ أسجق؟!

جـميعـاً: عاش سباون! (**عناق.**)

كـينّـــر: لكن، ماذا يعني ذلك كله؟ تكلّم.

مايرهوفر: (**جاداً.**) سبـاون، انظر إلى عـيني: مـاذا صنعت ببنت المقرض؟

ســـباون: لم أجد غير أبيها، وأقسم لك على ذلك.

مايرهوفر: إذاً، فسرّ لنا هذه المعجزة!

ســـباون: أيّة معجزة؟ تبيّن أن الجرة من جرار سيڤر الأصلية.

المـــدام: آه منك ياحقير! إذاً، أنت سارقها؟ دعوه لي! سوف أخنقه.

كـينّـــر: (**معترضاً سبيلها.**) كلنا شركاء. ومعذرة منك!

المـــدام: ألهذا كانت باقة البنفسج؟ (**تلقي بها في وجهه.**) لصوص! كلكم لصوص!

مايرهوفر: أرجوك، يامدام... لنتفّق على ألا نلوّث هذه اللحظة السامية. حانت ساعة السجق، يارفاق. تعالوا نقله!

المـــدام: لا توجد لَدَينا قطرة زيت.

مايرهوفر: إذاً، نأكله مشوياً!

المـــدام: لم يبقَ لدينا قبضة من حطب.

مايرهوفر: بابلو! هات هذا الكرسيّ. (يَرفع السجق عالياً ويتقدّم منشداً مَارش النصر.)

المـــدام: الكرسي؟ لا، والله! هو آخر كرسي عندي. (تلحق بهما صارخة أشدّ الصراخ. شعورها بالإهانة ينفجر على لسانها بلغتها الأصلية.) أوه! تبّاً لكم ياقذرون! تبّاً لكم يا أوباشاً وسخين! قوّض بيتي كله! . . . هذا عصر الطوفان. . . يا إلهي! مايرهوفر!

فرانز وتيريسا.

تيريســا: ألا تقول شيئاً؟ تبدو كالمبهور.

فــرانــز: ماذا يجري في داخلي، يا تيريسا؟ تثلج على المدينة، وأنا أحترق من الداخل. نحن في تشرين الثاني، وأرى الأشجار مزهرة! شيء ما يريد أن يتفجّر داخل دمي!.

تيريســا: لعلّك محموم.

فــرانــز: لا! ليست الحمّى. إنه فعل الإيمان! أنا أؤمن بك وبنفسي. أؤمن بالبشر، وأؤمن بالحياة. وفوق ذلك، أنا ثري. ألا تعلمين؟ معي عشرة فلورينات من فضة. انظري إليها! (حالماً). بعشرة فلورينات أستطيع الحصول كل سبت على مقعد في الأوبرا.

تيريسـا : لا ، يافرانز . بعشرة فلورينات تستطيع الحصول على قليل من الحطب يكفيك كل الشتاء .

فـرانــز : بعشرة فلورينات، أستطيع الحصول على شمعتين كــل ليلة تضيئان لـي وأنـا أعـزف عـلى البيـانو حتى الصباح .

تيريسـا : لا ، يافرانز، بعشرة فلورينات تستطيع الحصول على زجاجة حليب كل ليلة .

فـرانـز : رائـع مـا يمكـن الحصول عليـه بعـشـرة فلورينات! (يشـرق وجهـه فجأة .) الآن، وجدتـهـا! تيريـسـا غـروب : أمـررتِ ذات مـرة بـأركــان (مركادو آلتو .)؟

تيريسـا : نعم، يافرانز، وكنا معاً .

فـرانــز : أوتوقفتِ ذات مرة للنظر إلى واجهة محل ميندكِ؟

تيريسـا : نعم، يافرانز . وكنت بصحبتك .

فرانز : وفيـهـا بزة خطوبة ناصعة البياض، ومطرّزة بأشكال أزهار الليمون . أتتذكرينها؟ فـي طـرفـهـا الأدنى بطاقـة صـغـيـرة غـامـضـة كتب عليـهـا : «عـشـرة فلورينات . »

تيريسـا : (متأثرة، ترتمي بين ذراعيه .) فرانز!

فرانز : عشرة فلورينات . . . وأنتِ!

ستار

الفصل الثاني

في حانة (تاج هنغاريا) التي يرتادها الطلاب والبوهيميّون. في الجانب الأيسر حاجز من الخشب، ورفوف طافحة بالزجاجات والسجق، إلى جانب الحاجز برميل له صنبور. الفراغ خلف الحاجز يفترض فيه أنه يتصل بالمطبخ والقبو. في الطرف الخلفي من الجانب الأيمن بيانو صغير. في الخلفية باب وواجهة زجاجية تطلّ على فسحة ذات أعمدة. خارج الحانة يتلألأ مصباح شارع إلى جانب الواجهة. على العتبة، تلمح بوضوح لوحة تعرّف بالمحل بأحرفٍ غوطية كبيرة. مجموعة أجراس من البلور تتحرك كلما فتح الباب. طاولات وكراسيّ دون مساند ضرورية للعمل. المسرح خالٍ من الأبواب الجانبية. ليلة يوم الفصل السابق ذاته.

يُشاهد على المسرح فريتزُ صاحب الحانة يتكلّم عند الحاجز بينا ينظّف بعض الآنية، وبنته غريتِل. وهي يافعة لطيفة ذات ذوائب وتلبس زيّ فلاحة هنغارية تقليدياً؛ والمايسترو هولزر جالساً إلى منضدة يجرع جعة. ويطقطق أصابعه وينظر إلى ساعته وقد عيل صبره.

فريتز: . . . وهذا الرقص المقنّع، وهذا الكرنفال الليلي، وكل هذه العربات الأجنبية، وكل هذه التيجان في الساحات، أليس ذلك كله بأمر هامٍّ وخطير؟ مالك؟ أراك نافد الصبر، يا سيد هولزر. أكلّمك ولا تصغي إليّ.

هولزر: أكنت تكلمني؟

فريتز: أقول سيبقى شتاء ڤيينا هذا في الذاكرة. متى رأيت هذا الجمهور محتشداً هنا؟ وأكرمْ به من جمهور! إنه يمثل صفوة المجتمع الأوروبي! هذا الصباح، دسْتُ في السوق على أقدام ثلاثة أشخاص. وكان عليّ في المرّات الثلاث أن أقول: «معذرة صاحب السيادة!» أليس ذلك ساحراً؟

هولزر: لا أدري لِمَ يكون الدوس على قدم كونتيسة هنغارية أمتع من الدوس على قدم بائعة من ڤيينا.

فريتز: افهمني، سيد هولزر. أقصد. . .

هولزر: أنا على علم. تقصد أن المدينة كلها تحولّت إلى فرجة ومهرجان. وأن المال سيجري كالسيل. . . وتستطيعون- أنتم التجار- أن تضاعفوا السعر ثلاث مرّات.

فريتز: نضاعفه على الأجانب فقط.

هولزر: طبعاً! فالوطن غالٍ مقدّس.

فريتز: وفوق ذلك، أشعر بالفخر كمواطن. كل ذلك تقدّم. مارأيك بقانون السير الجديد؟ على الناس أن يلتزموا الأرصفة، والعربات الإسفلت. آه! سيادة ميترنخ جدير بتمثال.

هولزر: ولاتبالِ. سيُنصب له تمثال. هو نفسه سيأمر بإقامته.

فريتز: والإنارة العامة؟ انظر، أمرت الحكومة بوضع مصباح أمام واجهة حانتي.

هولزر: ولسوف تدفع الثمن ضرائب.

فريتز: أتعتقد...؟

غريتِل: على كل حال، المشهد عجيب. الليلة الفائتة، غصّت الحانة بالغرباء. وكانت اللغات من شتى البلدان تقفز على المناضد كالنقود. ماكان يفهم منها شيء. لكن، كان يبعث سماعها على السرور. (حالمة.) ما أشبه ذلك بالرحيل!

فريتز: (**يترك الحاجز مشغول البال.**) إذاً، أتحسب أن تُفرض ضرائب جديدة؟

هولزر: ومن أين سيُعطى هذا البذخ؟ انظر، يافريتز: الحكومة تشبه زوجك. إذا بذّرت زوجك مالك، فهو سيّىء. وإذا بذّرت زوجك مال آخر غيرك، فهذا أسوأ.

فـريتـز : ياللشيطان! ياللشيطان! ياللشيطان!

هـولـزر : (**ينظر إلى ساعته مرة آخرى ، وينادي .**) غريتِل!

غـريتِـل : أذاهب ، ياسيد؟

هـولـزر : (**يدفع ثمن ما استهلك .**) أريد أن أعرف النتيجة لأنقل الخبر ، إلى أمّ فرانز . المسكينة على شفا نفاد الصبر . لكن ، أتحسبين أنه سيأتي الحانة بعد هذه الحفلة؟

غـريتِـل : يقيناً! سيأخذ مكانه في هذا الجانب .

فـريتـز : بالطبع ، سيأتي . السيد شوبرت امرؤ جادّ ويعرف واجبه . ألا أدفع له كيما يعزف هنا؟ إذاً ، سيأتي .

هـولـزر : أأكون غير حصيف لو سألتك كم تدفع له؟

فـريتـز : كورونين كل أسبوع إضافة إلى ما يشاء شربه من البيرة .

هـولـزر : بذلك لن تفلس أبداً .

فـريتـز : كثيرون يرضون بهذا الأجر كبداية وانطلاق . (**يدخل البرجوازي الطيب وزوجه الصمّاء. الصماء تحمل سماعة معلقة في عنقها و تستخدمها من حين لآخر .**)

المذكورون سابقاً والبرجوازي والصماء.

البرجوازي: أهلاً، عزيزي العازف! مساء الخير، يافريتز! كيف أحوالك؟

هولزر: لابأس عليّ. . . ياسيدي. **(يجلسان إلى المائدة.)**

البرجوازي: أرأيت في حياتك شيئاً يشبه مايجري؟ ما أعظم هؤلاء الناس! أنا دَهِش من هذه الأسهم النارية، والحفلات الكرنفالية، وسيرك الضواري والأوبرا الإيطالية.

غريتِل: ألن تتناولا شيئاً؟

البرجوازي: كالعادة: مستحلب اللوز للسيدة، أما أنا، فأريد جعة وسجقاً أبيض. قلت لك دائماً، عزيزي عازف الأرغن: سيادة ميترنيخ سيجعل من مدينتنا عاصمة الدنيا. مؤتمر ڤيينا هذا سيدخل التاريخ. ألا تشعر بالفخر؟ **(تبتعد غريتِل.)**

هولزر: لا أدري . . . هو كرنفال كبير.

البرجوازي: ليس كرنفالاً. بل سياسة راقية. ميترنيخ يفكر جيداً: الإمبراطورية الفرنسية ستوزّع؛ والوفود سيلهون، وستكون المغامرة سهلة عليهم إذا دارت الخمرة برؤوسهم. ونحن أثناء ذلك، سنكون يقظين. وإذا ما اقتُطعت حصة كبيرة، فستكون من نصيبنا. إنها سياسة عظيمة.

الصمّاء : أتتحدّثان عن ثلج هذا الصباح؟

البرجوازي : (صارخاً في أذنها .) عن المؤتمر! أؤكّد لكَ، منذ مكيافيلّي لم يُولد حاكم مثل حاكمنا . هو شعلة ذكاء .

هولزر: قل مكرو خداع .

البرجوازي : هما سواء . المكر هو الشكل السياسي للذكاء . وشعب ضاحك، يدفع الضرائب بيسر .

الصمّاء : وهذا المؤتمر، أهو شيء خطير؟

البرجوازي : بل رائع! على المستوى الداخلي، ماذا بإمكاننا أن نطلب أكثر مما حصلنا عليه؟ فقد غرس ميترنيخ في ڤيينا كلّ أشكال التقدم العصرية . كلها! حتى الرقابة على الصحف .

هولزر: وشرطة سرّية رائعة لملاحقة الأفكار .

الصمّاء: **(التي تقرع دائماً ذراع زوجها قبل أن تتكلّم .)** اسمع! ومن أجل أي شيء عُقد هذا المؤتمر؟

البرجوازي : لمحاكمة نابُليون .

الصمّاء : من؟

البرجوازي : نابليون! هذا ما يهمنّا اليوم، ياصديقي : القضاء على نابليون . وخاصة القضاء عل فرنسا . القضاء عليها مرة واحدة! هذا الشعب الفرنسي كالقطط : كيفما ألقيت بها، تقع على قوائمها دائماً .

هـولـزر: ياه! صارت الثورة شيئاً ميْتاً.

البرجوازي: هذه سذاجة خطرة. الثورة الفرنسية في عقر ديارنا اليوم. شبيبتنا تحملها في لبّ عظامها. ولا بد من سحقها هنا.

الصمّاء: اسمع! نابليون هذا، أمتزوّج أم عازب؟

البرجوازي: متزوّج. متزوج مرتين. تأمّلْ طلابنا: هم يعبدون الطبيعة. ولا يعرفون الحديث عن أيّ شيء سوى الحرّية والعقل. هم موسوعيّون خلّص. ثم انظر إلى فنانينا من الشباب الصغار.

الصمّاء: اسمع! إذاً، هو كان أرملَ؟

البرجوازي: من؟

الصمّاء: نابليون.

البرجوازي: آه! لا! لم يكن أرملَ، لم يكن! أقول لكَ، انظر إلى هؤلاء الفنّانين المولعين بالشعر والموسيقى الشعبية... وكل ذلك جاء من فرنسا. وتحديداً من هذا الساعاتي اللعين المسمّى روسّو الذي جعل حب الغابات أسلوب حياة. حتى الأرستقراطيون صاروا يقصدون الريف لتناول الطعام فيه.

هـولـزر: لتناول الطعام. هذا صحيح.

الصمّاء: لكن، إذا لم يكن أرملَ، فكيف تزوّج ثانية؟

البرجوازي : كان ذلك من تدبير البابا .

الصمّاء : (**تصبح أكثر هدوءاً .**) آه!

غريتِل : (**التي تصل لتقديم الخدمة .**) جعة ، سجق أبيض ، مستحلب اللوز .

البرجوازي : عجباً! ماهذه البزّة، ياغريتل؟ أريني! (**يضع نظّارته .**)

غريتِل : بزّة فلاحة هنغارية من أجل رفع شأن المحلّ .

فريتز : كانت من فكرة هؤلاء الفنانين الذين يرتادون الحانة . وإذْ كانوا صفر الأيدي من النقود، فإنهم يدفعون لي ثمن مايستهلكون، أفكاراً .

البرجوازي : لكن الزيّ المجري الأصيل شيء مختلف عن هذا .

فريتز : لا ، ياسيدي . هو هكذا أجمل . الأجانب أكثر إعجاباً بالأشياء الشعبية إذا كانت مزيّفة .

البرجوازي : حقاً! (**يرفع نظارته .**) ألم أقل لك، ياهولزر؟ أترى إلى هذه البزّة الشعبية المزوّرة؟ من هنا تبدأ الثورات! (**يشرب ويشعل غليونه الضخم . يدخل مايرهوفر وكينّر مشرقي الوجه وصاخبَين .**)

المذكورون ومايرهوفر وكينّر

مايرهوفر: مايسترو، هولزر!

كينـــر: مايسترو!

هولـــزر: (ينهض مستعجلاً.) ماذا وراءكما؟ أخبراني...

كينّـــر: أعجوبة!

مايرهوفر: نجاح مجيد! الخبر يجري في أنحاء ڤيينا كالبارود.

كينـــر: لم يسمع هؤلاء الناس في حياتهم شيئاً يشبه هذه الموسيقى. حَسْبُكَ التصفيق حتى تعلم.

مايرهوفر: ليلة مجيدة، يامايسترو هولزر.

هولزر: كنت أتوقّع ذلك، وكان لابدّ من أن يكون كذلك... وفرانز؟ ألمّا يُنْهِ عزفه؟

كينّـــر: أنهى القسم الأول. الحضور قيد الاستراحة الآن.

هولزر: سأزفّ البشرى إلى أمه. وداعاً! (**يودّع البرجوازيّين.**) وداعاً، ياعجوز. وداعاً، يا سيدتي!... إنه تلميذي. ألا تعلمان؟ وقد حقّق النجاح.. حقّق النجاح! (**يخرج راكضاً حاملاً عصاه.**)

المذكورون سابقاً ماعدا هولزر.

فــريتــز: إذاً، الحفلة لم تُختتم بعد؟

كــينّـــر: الآن، يتناول الحضور مرطبات.

فــريتــز: (محترزاً.) وأنتما، بالطبع، جئتما لتتناولاها في حانتي.

كــينّـــر: أونعرف مكاناً خيراً منها؟ نجاح شوبرت نجاح لمحلّك في آن واحد.

فــريتــز: غريتل! هاتي دفتر الحسابات المتأخّرة.

مايرهوفر: لاحاجة بك إلى ذلك. فذاكرتي تحفظ الأرقام جيّداً.

فــريتــز: إذاً، لعلّك تتذكر أنك مدين لي بثماني وجبات غداء، وأربع وعشرين وجبة عشاء.

مايرهوفر: وكيف أنساها، يافريتز؟ سأظلّ مديناً لك بها مدى الحياة!

كــينّـــر: تعالَ إليّ، أيها الخمّار القذر. أتستطيع أن تنكر علينا إبريقاً من الجعة في ليلة النصر هذه؟ أترضى بذلك؟

فــريتــز: وإذا رضيت؟

مايرهوفر: أترفض أن تقدم لنا جعة! أترفضها؟ من جعل حانة تاج هنغاريا مشهورة؟

فـريتـز : دفعت لكم ما يفيض عن أتعابكم. سدّدوا دَيْنَكم أولاً، ثم نبدأ دَيْناً جديداً.

مايرهوفر: فكرْ في التاريخ، ياتافه! غداً ستصبح مشهوراً بفضلنا. وعلى هذا الجدار ستُعلّق لوحة من البرونز يكتب عليها: «قف، أيها السائح! من هنا مرّ الشاعر مايرهوفر!»

فـريتـز : يقيناً. وستجد اللوحة ذاتها في كل مقاهي ڤيينا: «من هنا، مرّ مايرهوفر. وأكل وشرب. ولم يدفع. سامحه الله!»

مايرهوفر: برجوازي نتِن!

كـيـنـر : خفّاش، مصاص للدماء! **(سكون. يلطّف مايرهوفر من لهجته.)**

مايرهوفر: فريتز، إذا قدّمت لي إبريقاً من الجعة، أمنحك فكرة.

فـريتـز : أنا الخاسر!

كـيـنـر : غريتل! إذا مددتني بجرّة من الجعة، فسوف أطبع على جبينك قبلة.

غـريـتِـل : شكراً لك، يابابلو، لكن أبي هو الجابي هنا.

مايرهوفر: عديني على الأقل، أنك ستقدّمين لي إبريقاً من الجعة إذا مات والدك.

فـريـتـز: هيّا! كفاكما! ألديكما نقود؟ أهلا وسهلاً بكما. ليس لديكما نقود؟ فدونكما الشارع. **(يهلّ سباون من الباب.)**

سـباون: أسرع، يامايرهوفر! بدأ فرانز العزف مرة أخرى.

مايرهوفر: أحقاً؟ هيا بنا. **(يبدأ بالتحرك. يلتفت ويتجه مباشرة إلى طاولة البرجوازي.)** بالإذن منك! **(يشرب كأس الجعَة بجرعة واحدة.)** شكراً، ياسيدي! **(يأخذ السجق أيضاً. ويقسمه نصفين نصفاً له والآخر لكينر.)** هيا! **(يخرج الثلاثة.)**

فريتز وغريتل والبرجوازيان

البرجوازي: **(الذي لم يُوفّق في ردّ فعله نتيجة المفاجأة.)** أرأيتم وقاحة كهذه الوقاحة! فنانون، أليس كذلك؟

فـريتز: شاعر ثوري يحبه أصدقاؤه جداً. «إلى أين ذاهب، يا مايرهوفر؟ إلى السجن. من أين أنت قادم؟ من السجن!»

البرجوازي: معشر سوء. لا ينبغي لشخص محترم مثلك أن يقبلهم في محلّه.

الصماء: اسمع، لماذا قدّمت كأس الجعة لهذا الرجل؟

البرجوازي: هو صديق طفولة! ثم، ما أكبر مظاهر العظمة عندهم! فما إن يكتب أحدهم أربعة أبيات مريضة،

حتى يلبس سترة حمراء، ويحسب نفسه من عرق متفوّق. ويسمّون كل من لا يفكر تفكيرهم «علجاً.»

فريتز: علج؟ وهذه ماذا تعني؟

البرجوازي: مفردة جديدة جلبوها من باريس. وكل الشر يأتي من باريس حتى الأطفال أنفسهم. هاتي كأساً من الجعة، ياغريتل!

الصمّاء: على كل حال، هذا فعل بربري.

البرجوازي: نعم، هي الكلمة الملائمة: بربري!

الصماء: ولو وافق البابا، لا يحق لأحد أن يتزوّج مرتين إن لم يكن أرملَ.

البرجوازي: (أخذ ينفد صبره.) اسمعي ياعزيزتي: لمَ لا تلعبين بالورق منفردة؟ (سكون.) وهذا الموسيقيّ الذي كنتم تتحدّثون عنه، من هو؟

فريتز: هذا شيء آخر. أحياناً يفور دمه أيضاً. لكنه شاب جيّد. وهو الذي يعزف في حانتي.

البرجوازي: نعم، يعزف موسيقي شعبية، وأغاني قصيرة. أو تسمّون اليوم كل هذا فناً؟ وا ضيعة التراث! لا يوجد اليوم بيننا موسيقيّ ذو شأن كبير.

غريتل: (التي تصل لتقدم الخدمة.) ألا تؤمن بعبقرية بيتهوفن؟

البرجوازي : لا تحدّثيني عن بيتهوفن! هو أسوؤهم! وهو الذي سمّمهم جميعاً. ثوري أصمّ!

غريتل : ومع ذلك، تقول الصحف...

البرجوازي : نعم، أعلم أنه جاء المؤتمر بدعوة من الحكومة، واستُقبل استقبال الأبطال. هي شؤون وطنية صغيرة! أو جاء هذا الأطرش ليعلّمنا الموسيقى؟

غريتل : معذرة!

البرجوازي : محزن قول ذلك. خلت الساحة اليوم من فن عظيم، إذا استثنينا الأوبرا الإيطالية. فأزيلي عن عينيك هذه الغشاوة، يا صغيرتي. لا يوجد اليوم في العالم سوى ثلاثة موسيقيين عظام: أولهم روسيني، وثانيهم روسّيني، وثالثهم روسيني.

الصماء : اسمع! أوتظن أنه سيُحكم عليه بالإعدام؟

فريتز : على من؟

الصمّاء : على نابليون.

فريتز : (يائساً.) فريتز، هاتِ ورق لعب للسيدة! (**يشرب. يدخل أحد أفراد الشرطة السرية ملثّماً. يسير وينظر بهذه الهيئة الغامضة التي تتخذها الشرطة السرية دائماً لكي يعرفهم الناس جميعاً.**)

المذكورون سابقاً والشرطي السري.

غـريـتـل : ألن يتناول السيد شيئاً؟

الشرطي : لا!

غـريتـل : أتبحث عن أحد؟

الشرطي : ربما!

غـريتـل : ألا تريد أن تجلس؟

الشرطي : لا! . . . **(إشارة صارمة لها بأن تنسحب.)**

غريتـل : مـعــذرة! . . . **(تنسـحب غـريتل مـضطربة. يرفع الشرطي اللثام، ويحيّيه البرجوازي بانحناءة، يجيبه عليها بغطرسة.)**

فـريتـز : ما أغرب هيئة هذا الرجل! أتعرفه، ياسيد؟

البرجوازي : **(رافعاً إصبعه إلى شفتيه.)** إنـه مـن شـرطة ميترنيخ السرية.

فـريتـز : شـرطة سـرية؟ يا إلهي! جـاءت الضـرائب! **(يدعوه الشرطي إليه بإشارة من أصبعه، يهرع فريتز مرتعداً خائفاً.)** سيدي! **(يكشف الشرطيّ عن هوّيته ويبرز بطاقته.)** بالأمر، صاحب السيادة.

الشرطي : علمت أن بعض الفنانين يرتادون حانتك.

فـريتـز: يأتون هنا؟ لـم يحـصل . . حـانتي لا يرتادها غـيـر الأشخاص المحترمين .

الشرطي : قلت يأتي بعض الفنانين .

فـريتـز: معذرة! لن يحصل ذلك مرة أخرى .

الشرطي : اسمع جيداً . أمر من صاحب السيادة ميتـرنيخ . (**انحناءة من فـريتز .**) سيكون الفنانون خير حلفائنا مادامت احتفالات المؤتمر .

فـريتـز: ماذا؟

الشرطي : اسـمع واسكت . مـا نحـتـاج إليـه أن يكون المؤتمرَ مناسـبـة للهـو والموسـيقى والخـمـر . كـلمـا أسكرتَ مندوباً أجنبياً، تقدّم بذلك خدمة للوطن .

فـريتـز: ماذا؟

الشرطي : اسكت، قلـت لك . قـرارات سيـادته فوق مسـتـوى عـقلك . (**انحناءة من فـريتز .**) أمـا الفنّانون، فلهم مطلق الحرية بالغناء الدائم والأكل والشـرب كـمـا يشـتـهـون . كل مـا يسـتـهلكون سيكون على نفـقـة الحكومة . أتفهم؟

فـريتـز: تحت أوامرك، ياسيدي .

الشرطي : (**يضع اللثام متهيّئاً للخروج . ثم يلتفت .**) شـيء آخر . أيتكلّمون عـادة في السياسـة؟ دعـهم يصرخـوا

بهـا صـراخـاً، خـاصـة إذا تم ذلك أمـام الأجـانب ينبـغي لـنـا أن نـعـطـي انطبـاعـاً للعـالـم بأننا نعـيش ديمقراطية كاملة .

فـريـتـز : لكن، إذا هتفوا بمعاداة سيادته؟

الشرطي : ولـو كـان الهتـاف مـعـاديـاً لـسيادته! الأمر قـاطع! الحـريـة المطلقـة للفنانين. سنضـعـهـم في السـجن بعـدئذ. (**يضع السبابة على شفتيه مهدّداً.**) والـزم الصـمت! ديمقراطية كـاملة! (**ينحني انحناءة خفيفة للبرجوازي ويخرج. فريتز أخرسته الدهشة. يناديه البرجوازي إلى طاولته وقد ملئ فضولاً.**)

البرجوازي : ماذا قال لك؟

فـريـتـز : شـيء لا يمكنك أن تشـتـبه بـه أبداً. تخـيّل مـاذا قـال لي . . . (**متذكراً التهديد فيقطع النجوى بجفاف.**) قـال لي أن أسكـت. (**يشمّر كمّيه وينفـجر صـافراً سعيداً بأغنية شوبرت للأطفال، وترجمتها: «أنا أرملة الكونت لاورِل». . . يحيي القادمين الجدد بانحناءة.**) أصحاب السيادة! . . (**تدخل كارولينادهِ إسْتِرْ هـازي ومـاريـا أختها يـرافـقهما البارون ده ليانكور.**)

فريتز، غريتل، البرجوازيان، كارولينا، ماريا وليانكور

ليانكور: عفواً منك، ياكونتيسة: هذه حانة بائسة!

كارولينا: يرتادها الطلاب والفنانون الفقراء. لم أرَ قطّ هؤلاء الناس عن قرب.

ليانكور: لكن، ماذا ستقول أمك؟ إذ شرفتني أن عهدت إليّ بأمر مرافقتكما.

كارولينا: آمل ألا تشي بي إلى أمّي. كن طيّباً، ياليانكور. أنا ضجرة جداً من حياة الصالونات. وهذه أول ليلة من الحرية أتمتع بها في ڤيينا.

ليانكور: عساها تكون نزوة! (**يجلس الثلاثة.**)

غريتل: أصحاب السيادة...

ماريا: مشكلة أولى: ماذا ينبغي لنا أن نطلب في مكان كهذا؟

كارولينا: قولي لنا، يافتاة: ماذا يتناول أفراد الشعب في العادة هنا؟

غريتل: الشعب يأكل إن استطاع، «غولاشا» مع تورتة بطاطا.

كارولينا: رائع! لم أذق في حياتي غولاشا بتورتة البطاطا.

غريتل: ألن تتناولوا خمراً؟

ليانكور : ألديك خمر توكائي؟

غريتل : لا ، ياصحب السيادة . ليس لدينا منه .

كارولينا : يُفَضّل ذلك . هاتي لنا زجاجة من أردأ الأنواع .
(**تنسحب غريتل .**)

ماريا : أرأيت ما أجمل البزّة التي ترتديها يا كارولينا؟ إنها بزّة شعبية تبدو فيها فلاحة من فلاحات أرضنا .

كارولينا : واسم المكان ، ألا ترينه؟ تاج هنغاريا . إذاً ، نحن في منزلنا .

فريتز : غولاش مع تورتة بطاطا؟

غريتل : هذا ما طلبته . ومع ذلك هي كونتيسة .

فريتز : والمشروب ، أطلبوا خمراً أم جعة؟

غريتل : بل خمر .

فريتز : لابأس!

غريتل : زجاجة من أردأ الأنواع .

فريتز : اللعنة على من يفهم هؤلاءالأرستقراطيين! (**يضع زجاجتين على الحاجز .**)خذي الخمر فوراً .

غريتل : لم يطلبوا غير زجاجة واحدة .

فريتز : (**برصانة .**) غريتل : قرارات أبيك فوق مستوى عقلك . (**يأمرها بصرامة ، وإصبعه ممدودة .**)

ماريا : منذ أمد لم أرك بهذه السعادة.

كارولينا : أنا متحفّزة لمعرفة هؤلاء البوهيميين عن قرب.

ليانكور : لا، ليسوا بعد. هم حتى اليوم مجرد مثاليين. وبالتالي، ثوار بالقدرة والإمكان.

كارولينا : أنا معجبة بالثوار. لو لم أولد كونتيسة، لربما كنت ثورية أيضاً. ذلك جميل.

ماريا : لكننا لن نستطيع القول لأمّنا إننا كنا في مكان كهذا المكان.

كارولينا : سنقول لها إننا كنا في، في، في... أين كنا ياماريا؟

ماريا : في حفلة ساليري!

كارولينا : رائع! أليس لديك دعوات؟ إذاً، هذا هو الجواب الصحيح. كنا نستمع إلى هذا... ماذا يُدعى هذا الموسيقيّ الذي قُدّم اليوم؟

ليانكور : لا أتذكره. اسمه غريب.

غريتل : (التي جاءت لتقدم الخدمة.) عفواً... أتشيرون إلى السيد شوبرت؟

كارولينا : ماذا؟

غريتل : فرانز شوبرت.

كارولينا : بالضبط . فرانز شوبرت . شكراً لك، ياصغيرتي.
أنت لست هنغارية إن صح حدسي .

غريتل : أنا من ڤيينا . (تنسحب .)

كارولينا : كنت أتخيل ذلك . سكان ڤيينا هؤلاء يعرفون كل موسيقيّي العالم حتى المولودين منهم في ڤيينا . ما أكبر جموحهم! أرأيت الصراع بين أنصار السيمفونية الألمانية وأنصار الأوبرا الإيطالية؟ اصرخْ في مقهى من المقاهي : «عاش بيتهوڤن»، يقذفك بالزجاجات نصف روّاد المقهى . اصرخ : عاش روسيني! يقذفك النصف الآخر بها . ما أروع هذا البلد! **(يدخل مايرهوڤر وسباون صاخبين، تتبعهما تيريسا غروب ومدام سان سوسي، ثم شغّالتان وطلاب يأخذون بإشغال مختلف الطاولات .)**

المذكورون ومايرهوفر، كينّر، سباون، مدام، تيريسا شغالتان وطلاب .

مايرهوفر : قد نجح شوبرت!

كينروسباون : نجح شوبرت!

مايرهوفر : **(لفريتز .)** أتسمع ذلك، ياضفدع؟ **(مشيراً إلى طاولة كارولينا .)**أسمعتم أنتم، يا دخلاء متحذلقين؟ **(متوجهاً لطاولة البرجوازي الذي بادر**

إلى حماية كأس الجعة.) وأنتما، ياحشرتين حقيرتين؟ فلتدوِّ هذه الصرخة في العالم. (بصوت عالٍ مفصّلاً الكلمات.) قـ ـد نـ ـجـ ـح شوبرت.

جـمـيـعاً: عاش صديقنا شوبرت!

مايرهوفر: عزيزتي، تيريسا! (يتعانقان.)

كـيـنّـر: مدام سان سوسي!

تيريسا: شكراً لك، يامايرهوفر، شكراً.

شغالة١: غريتِل، أريد قهوة بالكريما.

شغالة٢: جعة سوداء و «شوكروت». (**يسود جو من الحيوية. يلقي الطلاب بمعاطفهم على المقاعد ويطلبون طلباتهم معاً وفي آن واحد. غريتل تقدم لهم مايطلبون وتضحك متجنّبة القبلات. أصدقاء شوبرت يعلّقون بأصوات عالية مراكمين الجمل فوق بعضها.**)

كـيـنّـر: لم يَدَعوه يخرج. إنهم يأكلونه أكلاً.

سـباون: أرأيتم الدهشة التي علت وجوه النقاد؟

مايرهوفر: ماذا سيقول الآن أنصار الأوبرا الإيطالية؟

سـباون: شاهدت سيدة تلقي إليه بزهرة ليحتفظ بها، وعانقه سالييري أمام الحضور جميعاً.

شغالة١ : حتى بيتي كان يُسمع التصفيق.

المـــــدام : أحقّ أن أخت الإمبراطور قبّلته؟

كـــينـــر : أنا رأيتها. كانت سيدة عجوزاً ضئيلة الحجم، ذات شعر أشيب. طبعت قبلة على جبينه! أنا رأيتها من شجرة كنت أتسلّقها.

المـــــدام : لكن، مالك يافتاة؟ أوتبكين الآن؟

تيـريســا : ذلك فوق طاقتي! أنا جدّ خائفة. **(تنفجر باكية بعصبيّة.)**

المـــــدام : ماذا جرى يافتاة؟ ماذا جرى لك؟ **(تُجلسها وتخفف عنها. ينضم إليهما سباون وكينّر).**

كارولينا : صديقي ليانكور، يبدو أنك لست مرتاحاً.

ليانكور : سمّانا دخلاء متحذلقين.

كارولينا : لكنه قال ذلك بود. **(خلال المشهد التالي تقدم غريتل الغولاش على طاولة كارولينا. يتقدّم مايرهوفر إلى وسط الخشبة ويدعو فريتز بإشارة صارمة.)**

مايرهوفر : أنت، يا أبله! تعالَ إليّ! أسمعت يا جيفة عفنة؟ أحد الألحان التي عزفها شوبرت، كان حول قصيدة من قصائدي. أتجرؤ الآن أن ترفض طلباً لي بجرّة من الجعة؟

فـــريتـــز : وكيف أرفضه يا سيد مايرهوفر؟ زادت حانتي شرفاً بحضور شاعر.

مايرهوفر : ماذا؟

فـــريتـــز : لكن، لِمَ الجعة؟ ألا تفضل الخمر؟

مايرهوفر : ماذا؟

فـــريتـــز : وما أهون ذلك في ليلة جد مجيدة! ألا تريد أن تتعشّى شيئاً أيضاً؟

مايرهوفر : **(متأثراً.)** أتكون قادراً على فعلها؟

فـــريتـــز : لك كل ما تحب. قبو خموري وحانتي كلها بتصرفّك. **(بلغ التأثر بمايرهوفر مداه. يمرّ بيده على جبينه ويحرك جمّته التي تشبه لبدة الأسد وينادي.)**

مايرهوفر : بابلو! سباون! **(يهرعان إليه ويحوطانه كل من جانب. يضع يديه على كتفيهما.)** صديقّي: من أنا؟

ســـباون : خوان مايرهوفر!

كـــينّـــر : شاعر ومواطن حر!

مايرهوفر : هذا حسن! وشكراً. أسمعت من أنا؟ إذاً، أجبني أولاً: لديك هنا جبن من باﭭاريا، لطالما أغرمت به.

فـريتـز : و «جامبون» أصلي من إنتاج سيليزيا .

كـــينّـــر : (قافزاً، لمايرهوفر .) أقال «جامبون»؟

مايرهوفر : (برصانة .) بابلو، إذا لم تخنّي الذاكرة، الجامبون نوع من اللحم المعالج يؤخذ من فخذ الخنزير .

كـــينّـــر : أذكر أني سمعت بهذه النظرية .

مايرهوفر : (بحنان فرنسيسكاني .) فريتز، أخي فريتز، إذا طلبت إليك قطعة من هذا الجبن و . . . ؟

فـريتـز : قطعة واحدة؟ غريتل! هاتي جبناً بافارياً، وخمر الراين، وطبقاً من الجامبون يكفي ثلاثة . . . أصحاب السيادة! (**يحيي بانحناءة ويعود إلى حاجزه صافراً. يتبادل الأصدقاء الثلاثة النظرات بصمت .**)

كـــينـــر : ألا يريد أن يسمّمنا؟

مايرهوفر : هاكم برجوازياً تائباً. ما أسمى قوّة الفنّ!

غـريتـل : (حاملة صينيّة .) اللحم! (**يجلسون إلى مائدة ويشربون، ويزدردون طعامهم بفرح .**)

مـاريـــا : مارأيكما أن ننصرف الآن؟

كـارولينا : لكن، لماذا؟

ليـانكور : أرجوك! هذا الوسط ليس مما يلائمك .

كارولينا : أقسم لك إني مفتونة. ليتك تعلم كم أحسدهم! آي! لِمَ ولدت في قصر؟ أتتذكرين ياماريا لما كنا صغيرتين؟ ذات يوم، كنا على وشك أن نهرب من البيت مع الغجر. ما أجمل الطواف في العالم بصحبة دبّ وكمان! والنوم كل ليلة في مكان مختلف فوق العشب وتحت القمر الساطع!

ليانكور : ليست كل الليالي مقمرة، يا كونتيسة. وأحياناً يكون الطقس بارداً.

كارولينا : ياه! في بلدي هنغاريا، كنت متعودة أن أجري بالحصان حتى جبال الكربات وسط الثلوج.

ليانكور : لكنك كنت تعودين إلى القصر.

ماريا : وعند عودتك توقد المدفأة الكبرى في الصالون.

غريتل : ألن تتناولا شيئاً؟

تيريسا : أنا لا أريد شيئاً. وشكراً.

المدام : أنا نعم. أريد هذه الليلة شيئاً ولن أفوّت الفرصة. قولي لي ياغريتل: ماذا يطلب الأرستقراطيون في العادة؟

غريتل : يطلبون خمر «توكائي». لكن، ليس لدينا منه شيء.

المدام : إذاً، هاتي عرق كرز أسود باليانسون. انتظري! ألا تستطيعين أن تأتيني بزجاجة حليب؟

غريتل : أحليب وخمر؟

المـــدام : أنا أعرف شغلي . **(تنسحب غريتل .)**

تيـريسا : أليس الحليب من أجل فرانز؟

المـــدام : بلى ، يا بنيّتي . إضـافـة إلى المجـد، من الملائم له أن يتناول قليلاً من الحليب قبل النوم .

تيـريسا : شكراً لك، يا مـــدام . **(تشد على يديها . يظهر شوبرت في العتبة .)**

المذكورون سابقاً وشوبرت .

كـيـنّـر : هاكم فرانز!

مايرهوفر : عـاش فـرانز! **(تصفيق وصياح . يندفعون جميعاً صوبه ويعانقونه ويهنئونه . يتملّص فرانز بالقوة تقريباً من حلقة الطلاب والأصدقاء .)**

فـريتـز : دعوني! . . . دعوني الآن! اتركوني! **(يهرع لمعانقة تيريسا .)** تيريسا ، ألستِ مسرورة؟

تيـريسا : بل سعيدة . ألم تسمعني أصفّق من الحديقة؟

فـريتـز : لابد من نقل الخبر فوراً إلى أمي . متى أنهِ عملي هنا، نذهبْ إليها معاً .

تيـريسا : إلى البيت؟ لكن ، ألن تدخله؟

فـريتـز : بل أنت ستدخلين. قولي لها إني حققت نجاحاً وأنا أفكر فيهـا، ولتطلّ عليّ من النافذة، مثلما كانت تفعل تلك الليالي.

المـدام : وأنا لن أكـون دون أخت الإمـبـراطور. **(تطبع قبلة ذات صدى على جبهته. ثم تلتفت إلى الحضور جميعاً مفتخرة.)** إنه ضيـفي. أتعلمون ذلك؟ كل هذه الأغاني التي عزفها الليلة، كان عزفها في بيتي، في بيتي!

شغالة ١ : عـاشت مدام سان سوسي! **(تحيي المدام الجمهور وكأنها بطلة المشهد ثم تجلس مرة أخرى. يتخلّص فرانز من أصدقائه الذين يتحلّقون حوله مرة أخرى.)**

فـرانـز: لا، لا، لا، ليس كـذلك! دعوني. جسمي هدّه التعب. أرجوكم، دعوا الكلام عنّي. **(يوجه الكلام إلى فريتز.)** اعـذرني لتأخرّي عنك قليلاً. أنا تحت أمرك.

فـريتـز : أوسوف تعزف هذه الليلة هنا؟

فـرانـز : أنا لا أسرق أجري سرقة. عليّ أن أكسبه يوماً فيوماً.

البرجوازي : هذا فخر الكلام. اعزف لنا يا «موسيقي» شيئاً مرحاً. **(كلمة يا «موسيقي» وقعت موقعاً يشي بالازدراء. فرانز الذي كان يتجه صوب البيانو يقف ويلتفت.)**

فـرانـز: إيه! لم يحصل لي شرف معرفتك. لِمَ تعاملني دون احترام؟

البرجوازي: معذرة، يارجل. لا تغضب هذا الغضب. جئنا هنا للتسلية. هيّا أسمعنا بعض أغانيك القصيرة.

فـرانـز: لا أريد!

البرجوازي: (ناهضاً.) ولِمَ...؟ أنّى لك هذا الغرور؟

فـرانـز: بل هي كرامة! لو كنتُ ماسح أحذية وطلبت مني بهذه الطريقة أن أمسح حذاءك لما فعلت.

كـينّـر: (وازناً كلماته.) شوبرت ليس أحد «الموسيقيين». بل هو الموسيقى ذاتها.

مايرهوفر: ولـن يضيـرك شيـئـاً لـوخلعت قبّعتك. هـذه نصيحة نصوح.

البرجوازي: (متجنّباً النزاع إزاء الموقف العدائي للمجموع.) لابأس عليكم! لابـأس! (يجلـس، لكنه لا يخلع القبّعة، بل يغمسها في رأسه إذا لم يره أحد.)

مايرهوفر: تعساً لكم يا جزّارون! حدثهم أنت، يافرانز! تحدّث إلى هؤلاء البرجوازيين المتخمين بالسجق والأوبرا الإيطالية. قل لهم ما هي الموسيقى الحقيقية!

كـينـر: فليتكلّم شوبرت!

جـميـعاً: فليتكلم!

مايرهوفر: سكوت! شوبرت سيتكلّم. أنصتوا إليه، يا طلاب! وأنتم أيضاً، أيها الأرستقراطيون، وأنتم يا علوج!

البرجوازي: عجباً! صار العلوج هنا.

سباون: اسمعوا وعوا! **(يسود صمت تام. لحظات سكون قصيرة. يتكلّم شوبرت بانفعال منضبط.)**

فرانز: أصدقائي، خلق الله العالم في ثلاثة أيام.

البرجوازي: في ستة أيام. **(ينظرون إليه جميعاً بقسوة فارضين عليه التزام الصمت. لحظات سكون جديدة.)**

فرانز: خلق الله العالم في ثلاثة أيام. في اليوم الأول خلق السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم. وجعل النور والظلمات. وفصل البر عن البحر وخلق الحيوانات والنباتات كلها، والرجل والمرأة. واستراح في اليوم الثاني ثم خلق الله في اليوم الثالث بيتهوفن [1].

جميعاً: أحسنت! عاش بيتهوفن! **(تصفيق. ينهض البرجوازي مستكراً.)**

البرجوازي: أطلب الكلام! **(ترقّب وصمت. يتقدم مايرهوفر بوضع لايدع مجالاً للشك.)**

١- عبارة مأخوذة من تقريظ في شكسبير. (المؤلف.)

مايرهوفر: أهو احتجاج منك؟

البرجوازي: (الذي كان اتخذ موقفاً خطابياً، ينكمش بوضوح.) أنا؟ أنا أحتجّ؟ لا، يا شباب إنما هو مجرد فضول. يسرني أن أعرف... يسرني أن أعرف أي شيطان هو «علج»؟

سباون: علج كل ماهو ليس جمالاً ولا حساسية.

فرانز: علج من يقتل عندليب الحديقة ليأكله.

مايرهوفر: (يتقدّم على شكل عدائي.) علج من يخفي قلب ثور تحت جلد فيل.

كينّر: (من الجانب الآخر.) علج... علج هو أنت!

البرجوازي: أنا، أنا علج؟

مايرهوفر: نعم، أنت. وسبق لي أن نصحتك بأن تخلع قبّعتك إذا كنت لا ترغب في أن ننزعها ورأسك معها.

البرجوازي: (مهدّداً.) اسمع، ياشاب...

المدام: (تنهض باستياء قابضة على زجاجة في موقف من سيقذف بها). ألم تسمع؟ اخلع قبّعتك.

البرجوازي: (يسلّم بالأمر لما رأى نفسه محاطاً بالأعداء.) لابأس عليكم! لابأس! (يخلع القبّعة دون رغبة ويجلس.)

الصـمّــاء : هؤلاء الشباب يبدون لطفاء. أليس كذلك؟

البرجوازي : بل ظرفاء سارّون. (**يضغط على أصابعه.**)

الصماء : على العكس منهم، هذا الوحش نابليون. أيتزوّج بأخرى ولمّا تمتِ الأولى! (**تعود إلى لعبها المنفرد.**)

ليانكور : (**ينهض.**) أما آن لنا أن ننصرف؟ ستكون أمكما قلقة عليكما.

ماريا : اهدأ، يا بارون. أنا سعيدة، سعيدة! يبدو لي أنّ ساعة التراشق بالزجاجات تقترب. (**يجلس ليانكور مرة أخرى.**) ألا تحسين بدبيب الانفعال في نفسك، ياكارولينا؟ (**كارولينا لاتنتبه إليها. فمنذ أن بدأ شوبرت الكلام وهي ذاهلة متعلّقة به. تقرع ماريا على مرفقها.**)كارولينا!

كارولينا : ماذا...؟ (**مستيقظة.**)

ماريا : لكن، أين كنت يا أختي؟

كارولينا : لا أدري!

البرجوازي : (**الذي لم يكد يبلع الإهانة، ينهض بغتة صاخباً.**) اعلمْ أني خلعت القبّعة إرضاء للسيدة! (**لا يعيره أحد أدنى اهتمام، ويضحكون فوق**

طاولاتهم.) آه! . . . **(يجلس وقد صار أهدأ بعد أن أنقذ كرامته.)**

مايرهوفر: استمعوا إليّ الآن.

كينـّـر: أنصتوا! سيتكلّم الشعر. **(يسود الصمت. يصعد مايرهوفر كرسيّاً.)**

مايرهوفر: رفاقي، أحس بأنّ فناً جديداً أخذ يولد بيننا هذه الليلة المجيدة. فلْنلتفّ جميعاً حول شوبرت. نحن سنحرق البلاغة الأكاديمية، وسنعود إلى التراث الشعبي؛ وسنجعل من الفقر ديناً، ومن التمرّد واجباً. سنضفي الأسطورة على التاريخ، والجمال على الحقيقة، والعاطفة على كل الأشياء، وسنسمّي هذا الفنّ. . . ماذا نسميه، يافرانز؟

فرانز: سمّه اسماً موسيقياً؛ فن الرومانس.

مايرهوفر: الرومانس؟ جيد جداً. سنسمّيه «الرومانتيكية».

البرجوازي: **(يجتر الكلمة الجديدة، ويعدّ مقاطعها بأصابعه.)** رو - مان - تيـ - كية. طويلة جداً. لن يُكتب النجاح لهذه المفردة السخيفة.

ماريـا: رومانتيكية! وقعها ليس سيئاً. أليس كذلك، ياكارولينا؟ كارولينا!

كارولينا: (مستيقظة مرة أخرى.) ماذا؟

ماريا: مرة أخرى؟ لكن، فيما تفكرين؟ ألم تستمعي إلى ماقاله الشاعر؟

كاورلينا: لا!... هو رجل يثير الإعجاب... وذو شأن.

ماريا: الشاعر؟

كاورلينا: بل الآخر... الموسيقي. ربّما سُررتُ بأن أحيّيه، لِمَ لا تدعوه إلى طاولتنا؟

ليانكور: لكن، مالك ياكونتيسة؟

كارولينا: كن طيّباً معي، سيد ليانكور. اسمه شوبرت. فرانز شوبرت. (ينهض ليانكور.)

تيريسا: ما أوقحها! إنها تأكله بعينيها أكلاً!

المدام: من؟ عما تتحدّثين؟

تيريسا: لا عن شيء.

ليانكور: (يصل طاولة شوبرت الجالس مع أصدقائه مولياً ظهره الآخرين.) سيّد شوبرت: اسمح لي بأن أقدّم نفسي: أنا بارون ليانكور.

فرانز: أهلاً بك، يا سيد.

ليانكور: الكونتيسة ده إستر هازي يسرّها أن تدعوك إلى طاولتها.

فرانز: كونتيسة ده إستر هازي؟ آسف! ذلك أني بين أصدقائي. نحن منذ مدّة بعيدة لم نلتق.

ليانكور: (**مدركاً حقيقة الوضع.**) معذرة! ربما لم أحسن التعبير. ليست الكونتيسة ده إستر هازي من تدعوك. وإنما ببساطة امرأة تحبّ الموسيقى. أعني الموسيقى الحقيقية.

فرانز: أحق؟ هذا شيء آخر. من هي؟ (**ينهض.**)

تيريسا: أرأيتِ؟ أرسلت تدعوه إلى طاولتها.

المدام: حقاً... حقاً...

ليانكور: (**يقدّمهما إليه.**) كارولينا ده إستر هازي. ماريا ده إستر هازي.

كارولينا: شكراً لمجيئك، سيد شوبرت. ألا تشرفنا بالجلوس إلى طاولتنا؟

فرانز: آنستي!

كارولينا: منذ قليل، كنت تتحدّث عن بيتهوفن بحماس يكاد يكون دينياً. لم أسمع قط فناناً يطري فناناً آخر. حدثني قلبي مذ سمعتك تتكلم بأننا سنكون صديقين. أتسمح لي بأن أصافحك؟ (**تمدّ يدها التي يقبلها فرانز.**) أتحب أن تجلس معنا؟

فـــرانز: شكراً لك! (**يجلس. تيريسا تفرط بالترويح على وجهها بالمنشفة.**)

المـــدام: هدّئي أعصابك، يا فتاة!

تيريسا: لكن، ألا تحسين بحرارة لا تطاق داخل هذه الحانة؟

المـــدام: بلى! بلى! بلى!

الصماء: والآس... والملك... ولا هذان أيضاً! ينقصني دائماً حصان! (**تبعد ورق اللعب.**) اسمع، ماذا كان اسم المرأة الأولى؟

البرجوازي: (**شارداً.**) حوّاء.

الصـمـاء: ماذا؟

البرجوازي: حوّاء.. (**يتنبّه فوراً.**) آه! بل جوسفين!

فـرانـز: لكن، أتتناولون «غولاشاً»؟

كارولينا: يسحرني كل ما هو شعبي. أليس هو الطريق التي يسلكها الفن اليوم؟

فـرانـز: عـلـى الأقل، هي الطريق التي ينبـغي له أن يسلكها. وكونوا على ثقة بأني لم أتعلّم الموسيقى في الجامعات. بل تعلمتها مستمعاً إليها تُغنّى من أفواه الشعب.

ليانكور: وهـذا الحـب للشـعب، أهـو شيء فـني، أم فـكـرة اجتماعية؟

فـرانـز : الشيئان معاً . أغنّي مـع شعبي وأمقت الظلم لأنـه يؤذيني .

كـارولينا : أفهـم ذلك . الظلم نـقص فـي «الـهـارمـونـي» . لا يستطيع أحد أن يحس بمظالم العالم كما يحس بها الفنان .

فـرانـز : لِمَ تتحدّثين عن هذه الأمور؟ ألعلك تعرفينها؟

كـارولينا : لم يُسمح لي برؤيتها عن قرب . لكني أعلم أنها موجودة . فإلى جانب الاحتفالات الإمبراطورية توجد أفنية مجاورة غاصة بالأطفال الحفاة ، وحجيرات يموت فيها الفنانون جوعاً وبرداً . أتعرف هذه الحجيرات تحت سقف الجمالون؟

فـرانـز : (لحظة سكون قصيرة ومرة . يشرع في تنظيف نظارته .) نعم ، أعرفها قليلاً .

كـارولينا : وأعلم أنكم تزدروننا ؛ بل تكرهوننا في قـرارة أنفسكم وكأننا مسؤولون عن ذلك .

فـرانـز : على هذا ، لا أوافقك .

كـارولينا : ولِـمَ لا؟ أنـا أدرك ذلك أيضـاً . وإن كنتم غـيـر محقّين دائماً .

فـرانـز : كونتيسة . . .

كارولينا: دعْك من الألقـاب. أرجـوك! اسـمي كـارولينا.
(**لحظة سكون قصيرة.**) لِمَ تنظر إليّ هذه النظرة؟
أنت منفعل، ياسيدي. منذ عشر دقائق، ما انفككْتَ
تنظف نظارتك.

فـرانـز: أوه! معذرة! (**يسرع بوضعها على عينيه. يدخل الشرطي السري الذي يتناول شيئاً ما وهو واقف عند الحاجز مراقباً الحضور جميعاً من طرف خفي. أصدقاء شوبرت والطّلاب يغنّون جماعياً أغنية أطفال قارعين الأقداح بالسكاكين والشوكات. وبعد ذلك يتضاحكون ويتبادلون الأنخاب.**)

المذكورون سابقاً والشرطي السري.

كـيـنّـر: نخب المؤتمر الإمبراطوري!

مايرهوفر: (**يكبحه ضارباً الطاولة بقبضة يده.**) أعترض على هذا النخب! أقسم لكم إن كل هذا المؤتمر قصة لصوص. ورأس العصابة ميترنيخ نفسه.

سـبـاون: خفِّض من صوتك. في الحانة جاسوس.

مايرهوفر: جاسوس؟ أين هو؟

كـيـنـر: هو ذاك. أنا أعرفه. إنه أحد عيون ميترنيخ.

مايرهوفر: آه! أحقاً؟ ذلك يفرحني. هذا اليوم كان يوماً سعيداً: حقّقنا نجاحاً، وأكلنا لحماً وشربنا خمراً!

(**ينهض ويشرب كأسه حتى الثمالة.**) لن أكون أنا من أنا، إن انقضى هذا النهار دون أن أبيت في السجن.

كينّر: اهدأ! ماذا أنت صانع؟

مايرهوفر: دعني! (**يصعد كرسياً فارضاً الصمت على الطلاب الذين يضحكون ويشربون الأنخاب.**) اسكتوا ياصعاليك! واسمعوني جيداً.

البرجوازي: أخطبة أخرى؟

مايرهوفر: ياعبيد ميترنيخ! يا عملاء ميترنيخ! يا جواسيس ميترنيخ! هاكم شاعراً ومواطناً حراً سيصرح بالحقيقة. (**ترقّب.**) أتتصوّرون جرواً وُلد من ثعلب عجوز وضبّة؟ هذا هو ميترنيخ. أتتصوّرون غرور طاووس، ورياء فرّيسي، وخبث عانس؟ هذا هو ميترنيخ. إنه كيس مليء مكراً وقذارة. تثقّف بثقافة الثورة الفرنسية وخانها. وكان قوّاد نابليون، واليوم يقدم على إدانته. وُلد ليكون قاتل النهضة أو قرصاناً على الطريقة الإنكليزية أوقاطع طريق على الطريقة الإسبانية. لكن، خانته الشجاعة واكتفى بالدبلوماسية. أيها المواطنون: لما نصبحْ في الدانمارك، ومع ذلك، تنتشر رائحة العفن في ڤيينا! إنها رائحة صاحب السيادة ميترنيخ. قلتُ قولي.

(يقف مكتوف الذراعين بشجاعة منتظراً شرف الشهادة. صمت مقلق. وحده الشرطي ينفجر بالتصفيق.)

الشرطي: أحسنت! خطيب مفوّه! (يلقي بقطعة نقدية على الحاجز.) فليتناول هذا الشاب ما يشاء على حساب ميترنيخ. (يحيّي بانحناءة ويضع اللثام وينصرف. تستولي عليهم الدهشة جميعاً، خاصة البرجوازي الذي كان يستمع ناظراً إلى الشرطي طافح الوجه بالبسمات وآملاً بحل سعيد. بعد خروج الشرطي فقط، تواتي الآخرين الجرأة على التصفيق.)

المذكورون سابقاً ماعدا الشرطي.

سباون: أحسنت، يا مايرهوفر!

كينّر: لافضّ فوك!

البرجوازي: لكن، ماذا يجري هذه الليلة، هنا؟!

مايرهوفر: (يترجّل عن المنصّة مهاناً.) إذاً، لا يرغبون فيّ في السجن؟ سحقاً وسوأة لهم! فلنشرب، يا أصدقاء!

كارولينا: ماذا تقول لي الآن، يا ليانكور؟ أليس ساحراً هذا الهواء من الشعر والحرية الذي نستنشقه في ڤيينا؟

فريتز : (**الذي جاء المائدة بزجاجتين.**) آه. يا سيدتي! نحن نعيش ديمقراطية حقيقية! (**يضع الزجاجتين وينصرف صافراً.**)

تيريسا : لا تقولي لي: لا! رأيتهما يتبادلان النظرات. أما هي فكانت تبتسم، بينما هو ينظّف نظّارته بالمنديل. أعرف مغزى هذه الحركة جيّداً.

المدام : هدئّي من روعك، واجلسي!

كارولينا : أخمّنها تخميناً. ومع ذلك، لا أعرف أغنية من أغانيك حتى اليوم. ألا تعزف بعضاً من هذه الأغاني؟

فرانز : هي أغانٍ لا يؤبه بها. لكن، إن كان يسرّكِ سماعها...

ماريا : أوه، نعم نرجوك رجاء. (**ينهض فرانز. يدنو منه مايرهوفر.**)

اعزف يافرانز. ارتجل ارتجالاً. فلتسمع سيدات هنغاريا كيف يغنّي رجال ڤيينا!

فرانز : نعم، سأرتجل. ذلك خير لي.

مايرهوفر : أتسمع، يا سباون؟ شوبرت سيرتجل. يجب ألا يضيع شيء من هذا العزف. ألديك ورق هنا؟

سـبـاون: عندي منه دائماً. (يُخرج ورقة موسيقى. وينشرها على الطاولة ويستعدّ لينسخ بقلم رصاص. يسود الصمت. يدنو شوبرت من البيانو ويداعب واقفاً المفاتيح باحثاً عن فكرة. يعثر على موضوع «اللحظة الموسيقية». يجلس حينئذ ويبدأ العزف. سكون طويل بينا تصدح الموسيقى.)

الصمّـاء: اسمع، وماكان اسم الثانية؟

البرجوازي: أية ثانية؟ (يطلب الحضور جميعاً التزام الصمت ملتفتين إليهما بقسوة. يبادر البرجوازي إلى إلقاء الذنب على زوجه مبيّناً بالإشارات أنها صمّاء.)

الصمّـاء: ماذا حدث؟ ماذا يقول هؤلاء؟

البرجوازي: (بصوت خفيض.) أن نسكت.

الصمّـاء: ماذا؟

البرجوازي: (صارخاً بيأس.) أن تسكتي! (يلتفتون جميعاً وكأنهم إزاء تدنيس حرمة مكان مقدّس. يوقف فرانز العزف وينهض ناظراً من فوق البيانو.)

جميعاً: هـّ ـسـّ سّ!

البرجوازي: لابـأس عـلـيـك! لا بأس! (يجلس بجبن وقد ملئ مرارة.)

مايرهوفر: تابع عزفك، يافرانز. (تعود الموسيقى. يتظاهر البرجوازي الآن بالإصغاء الشديد متابعاً الإيقاع أحياناً بيديه. وفي حركة متعثرة منهما تسقط الزجاجة. عند محاولة إيقافها يُسقط الأقداح والملاعق. وتسقط منه قبّعته. تساعده زوجه ببراءة على كارثته. يشير الرجل بحركات يائسة بالصمت إلى كل ما يسقط. يطمئن الحضور بإيماءة، ويأخذ بالتقاط الأغراض بحرص كبير. تُستأنف الموسيقى. ولما فرغ من التقاط كل ما سقط، يلتفت بحركة صبيانية تنّم عن النصر.)

البرجوازي: هاقد جمعناها! (لكن، لما فتح ذراعيه اصطدمت قبّعته بالزجاجة التي سقطت مرة أخرى. يتقدّم مايرهوفر صوبه مرغياً.)

مايرهوفر: اخــرج! (يخرس البيانو مرة أخرى. ينظر البرجوازي إليهم جميعاً وهو على وشك أن ينتحب غضباً. يحس بعداء جماعي.)

البرجوازي: لابأس عليك! لا بأس عليك! (يضع بعض القطع النقدية على الطاولة ثم يخرج على رؤوس أصابع قدميه بينا يُستأنف العزف.)

مايرهوفر: تابع، يافرانز! (لما تعالت الأنغام الأول، يعود البرجوازي الذي كان وصل حتى الباب، بتصميم

إلى وسط الخشبة. يغمس قبعته في رأسه بتحدٍّ صريح خارقاً الصمت.)

البرجوازي: عاش روسّيني ي ي!

أصوات: يسقط العلوج! اخرج! اخرج! اخرج! (تضربه المدام على قبعته بالمظلّة. يخرج هارباً. كل منهم أخذ يرميه بشيء ما، وتنفجر في آن واحد القهقهات والتصفيق لشوبرت الذي يترك البيانو.)

السابقون ماعدا البرجوازي والصمّاء.

فرانز: كما رأيتم، هذا ليس خير مناخ لسماع الموسيقى.

كارولينا: لا تهتم. اللحن غاية في الجمال.

ماريا: لحن رقيق.

فرانز: ياه! هو مجرد لعبة.

كارولينا: يدهشني أن تستطيع ارتجال لحن من هذا المقام في لحظة واحدة.

فرانز: «لحظة؟» شكراً لك للعنوان. اكتبه ياسباون: «لحظة موسيقية.»

ليانكور: بالفعل، هذه موسيقى حقيقية... ياشاب. تهانّي إليك! ما الحساب، يافتاة؟

غـريتـل : سآتيك به فوراً. **(تذهب إلى الحاجز.)**

فــرانــز : الحساب علينا. آمل أن تقبلوا وجودكم هنا على أنه دعوة منا.

ليانـكور : أوه، لا نستطيع قبول الدعوة، رجاء.

فــرانــز : إنها العادة. ڤيينا مدينة مضياف. وأنتم غرباء.

فــريتــز : **(يناقش غريتل الحساب إلى جانب.)** أقول لك: ستة فلورينات.

كارولينـا : في هذه الحالة، سنحترم العادة، وشكراً.

غـريتـل : لكن، يا أبي، أســتـــة فلورينات لوجــبــة من الغولاش؟

فـريتــز : ألــم تسـمـعي أنهـم مــن الـكـونتـات وغـرباء؟ هذه سياسة عليا! **(يقترب هو نفسه.)**

فــرانــز : ماحساب هذه الطاولة؟

فـريتـز : ستة فلورينات، يا سيدي.

فــرانــز : **(يسلّمه النقود دون أن ينظر.)** لابأس عـلـيك! مـاذا تنتظر؟

فـريتـز : أعطيتني أربعة فلورينات زيادة.

فـرانـز : هي لك .

فـريـتـز : شكراً، صاحب السيادة! . . . **(يتجه صوب الحاجز وهو يعدّ نقوده.)** عشرة فلورينات!

تيريسا : مـايجري فـوق طاقـتي . هيّا، يا مـدام! أخـشى أن يروني باكية .

المـدام : نعم، يابنيّتي، هيّا بنا . **(تنهضان. لا تستطيع المدام كبح غضبها فتتكلم بصوت جد عالٍ ليسمعها فرانز.)** فـريتـز! في واجـهـة مـحلّ مندل بزّة عـرس جميلة، ثمنها عشرة فلورينات . اشترها لابنتك! .

فـرانـز : أذاهبة، يا تيريسا؟ انتظري قليلاً!

تـيـريـسا : لاتزعـج نفـسك من أجلي . سـأذهـب وحـيـدة . أنا متعوّدة على ذلك .

المـدام : اهتمّ أنت بآنسـتيك . لا فـقـدتهـمـا أبداً! ويكفـينا مـانـحن فـيــه . مـضى الآن زمن زجـاجـات الحليب . . . يا سارقي الجرار! سـيـري يابنيّتي وجـبـينك مرفـوع جـداً . **(تخرج تيريسا يرجّها النحيب لكن جبينها في السحاب.)**

السابقون ماعدا تيريسا والمدام. ثم المايسترو هولزر.

كينّر: أفرغت من نسخ المقطوعة؟ سنعزفها مرة أخرى.

مايرهوفر: سنغنيها جميعاً.

سباون: هاقد فرغت! (**يتجه صوب البيانو. توقفه كارولينا.**)

كارولينا: أتسمح لي؟ (**تأخذ المقطوعة منه. يتحلّقون جميعاً حول البيانو. يدخل المايسترو هولزر.**)

فرانز: أهلاً بالمايسترو هولزر!

هولزر: الواجب يقضي بأن تذهب معي، يافرانز. والدك يدعوك إليه.

فرانز: أأذهب الآن؟ قد علم أنني حققت نجاحاً. إذاً، قل له إني مازلت غير غنّي، ومازلت ابناً سيئاً وغير نافع ألحق العار بأسرتي. وإني مازلت أشعر بآثار أصابعه في وجهي!

هولزر: (**بقوة.**) لا تتكلم هكذا الآن! وليس من حقك ذلك. (**غاضّاً من صوته ومقترباً منه.**) اسمعني، يافرانز: أمك توفّيت منذ قليل.

فرانز: لا أصدّق!

هـولزر: ستجدها والبسمة تعلو وجهها. فقد وصلتُ في الوقت الملائم وقلت لها: صغيرك فرانز. حقّق النجاح!

فرانز: ماتت!... (**يشرع في تنظيف نظارته بالمنديل، تضطرب يداه.**) ماتت!

هـولزر: عد إلى البيت، يافرانز... افعل ذلك من أجلها.

(فرانز الذي غاب صوته، يوافق محركاً رأسه ببطء. يسقط منتحباً على مقعد.)

فرانز: ماما ايزابيل! (**لم يدرِ أحد بالنبأ ماخلاهما. كارولينا تقطع الصمت بالعزف على البيانو لحن «اللحظة الموسيقية». يرافقونها جميعاً صافرين.**)

الفصل الثالث

المنظر الأول[1]

في قصر زيليتز في هنغاريا. وهو مقرّ ريفيّ للكونت دِه إستر هازي. البناء من طراز غوطي نبيل مؤثّث من الداخلَ بذوق فرنسي سائد في ذلك العصر. صالون فسيح بنافذة كبيرة مفتوحة تطلّ على حديقة من الدردار، تبدو منها جبال الكربات البعيدة بسمائها الزرقاء. في الجانب الأيمن مخرج إلى الحديقة. في الجانب الأيسر مخرج إلى الغرف الداخلية. في الخلفية رواق، وبيانو أبيض كبير مغطّى بنسيج هنغاري وفوقه جرة أزهار. في مكان بارز صورة كبيرة معلقة على الجدار، على شكل رسم نافر من طراز باروكيو مزين بورودٍ ورموز موسيقية تشكّل نقشاً باسم «ف. جوزيف هايدن»، حتّى يستطيع الجمهور قراءة النقش بوضوح تام. تحت اللوحة مقعد كبير عتيق ذو مسند عالٍ موضوع فوق دكة خشبية ومحاط بحاجز كما هي العادة في حفظ التذكارات المشهورة في المتاحف. ذات صباحٍ مشرق من حزيران. على الخشبة، الكونتيسة ده إسترهازي التي تضع نظارة ذات

---

(١) جزء من فصل يتغيّر فيه الديكور، ويسدل في نهايته الستار.

ذراع، وإلى جانبها عصا ذات مقبض من فضّة. تلعب الورق مع الكونت ليانكور. ماريا البنت الصغرى تعزف على البيانو «الأرجوحة» لشوبرت- مدّة سكون طويلة.

مـــاريـــا: (**دون أن تتخلّى عن العزف.**) أتعجبك، يا أمي؟

الكونتيسة: لمن هي؟

مـــاريـــا: لشاب تعرفنا عليه الشتاء الماضي في ڤيينا. إنه موسيقي عظيم! (**تفرغ من العزف.**) ألا تعجبك؟

كـاروليـنا: ليست سيئة. تبدو لي سهلة للغاية. هاقد حانت ساعة النظام!

مـــاريـــا: أهو النظام مايحمله إلينا الأستاذ الجديد؟

الكونتيسة: هذا ما آمله. لا شيء بعد اليوم من «الليدر»، ولا البولونيزات ولا الألحان الخفيفة، الآن سينصبّ الاهتمام على الهارمونيا، والطباق الموسيقي... والفن العظيم. أنا أرى ورقك.

ليانـــكور: أوه، معذرة! أتحبين أن نعيد خلط الورق؟

الكونتيسة: لا! ولأيّ شيء؟ أعدك أني سأتابع لعبي وكأني لم أره. إنه النظام، يابارون. (**يلعبان.**) ماريا، غطاء البيانو مجعّد.

مـــاريـــا: لا، يا أمي!

الكونتيسة: ويميل إلى هذه الجهة. أيُعقل أنك لا ترينه؟ أنا أحسّ به من هنا دون أن أنظر إليه.

مــاريــا : (تسوّيه.) أهكذا؟

الكونتيسة : نعم، هكذا. والآن، هذه الجرّة ليست في مقرّها الصحيح. سيد، ليانكور أرجوك غطّ ورقك.

ليانــكور : عفواً! **(يدخل الكونت ده إسترها زي الذي يظهر عليه الشيب لكنه ما يزال قوياً وعنيفاً. وهو رجل ذو أهواء خشنة لم تؤثر في شيء على سلوكه الارستقراطي الذي انحدر إليه من سلالة كان لها حظّ من الثقافة منذ أمدٍ طويل. يلبس بزّة صيد.)**

المذكورون سابقاً والكونت

الكونت : أين رهطي؟ مرحباً، ياصغيرتي!.. مرحباً، صديقي ليانكور! صباح الخير، يا عزيزتي! **(يقبل يد زوجته.)**

الكونتيسة : أراك عدت اليوم باكراً جداً.

الكونت : الحرارة خانقة، والكلاب فقدت الأثر سريعاً. الصيف وقت سيّء للصيد في الجبل.

ليانــكور : وكيف كانت حصيلة الصيد؟ أراضٍ عنها؟

الكونت : رائعة! أربعة أيائل كانت تشقّ طريقها عبر الوادي، ورشأ أدركته إحضاراً على الحصان.

مــاريــا : أجلبته حيّاً؟

الكونت: من أجلك، يا صغيرتي، هو في جناح الصيد.

ماريا: شكراً، يا أبي! . . . شكراً! **(تخرج راكضة باتجاه الرواق.)**

الكونت: وكارولينا، أليست هنا؟

الكونتيسة: خرجت على الحصان كعادتها كل صباح.

الكونت: لله درّها! تعجبني جرأتها. ذلك أني أريد دماً قوياً لأحفادي. ماذا يقول عن ذلك ضيفي العزيز؟ آمل ألا توحشك فرنسا الغالية في هذه العزلة. **(تدخل الخادم باليريا حاملة مشروباً.)**

ليانكور: أقسم لك إني لن أنسى ضيافة هذا القصر خلال الصيف. كل مافي داخل القصر جميل. ومنظر أرض هنغاريا خاصة يبعث على الإعجاب.

الكونت: والخمور، أهي رديئة؟

ليانكور: هي الأخرى، لن أنساها أيضاً.

الكونت: **(يناوله كأساً.)** شكراً. إذاً، بصحتك!

ليانكور: بصحتك!

الكونتيسة: هذه المرآة، أليست مائلة، ياباليريا؟

باليريا: لا أظنها، سيدتي الكونتيسة.

الكونتيسة: لكن، أليست لك عينان؟ هي مائلة إلى جهة اليمين.

بـاليريـا : معذرة! (تسوّيها.)

الكونتيسة : لا أطيق الأشياء المائلة، فهي تسبب لي تشنّجاً. وقولي للجنائني ألا يغني في الأصباح حين يسقي السرو. وإمّا لا، فليتعلّم الغناء جيداً. (تخرج باليريا.)

الكونت : أنا أوثر البندقية والصيد. لكن، إن كنتَ تُسعد بالموسيقى، فسوف يكون لك ذلك عاجلاً. سنقيم حفلاتنا الموسيقية.

الكونتيسة : كما في الأيام الخوالي: لما كان هايدن يعزف هنا، وأذاع اسم هذا القصر في كل أنحاء أوروبا.

ليانكور : قالت لي زوجك إن الأستاذ في طريقه إلى هنا. من هو؟

الكونت : مايزال شاباً غضّ الإهاب. لكنه أخذ يلفت إليه الانتباه في ڤيينا. اسمه... لا أدري ما اسمه... اسم من أسماء الشيطان!

الكونتيسة : مالكَ، يانيكول؟

الكونت : أرسله إليّ ساليري. يبدو أنه كان طالباً في معهد كونبيكتو، وفي المدرسة الإمبراطورية. وهو مؤلف موسيقي. ولا يطلب أجراً سوى فلورينين في اليوم. يدعى... اللعنة على كنيته! إلى الجحيم هي بصحبة مئة ألف زوج من الشياطين!

الكونتيسة : **(تنهض مذعورة.)** مالك، يانيكول؟

الكونـت : **(متأثراً بحركة زوجه الجليلة.)** ماذا جرى؟

الكونتيسة : ماهذه اللغة! سمحت لك أن تدسّ شيطاناً أو آخر في أحاديثك. لكنّ مئة ألف زوج لم آلفه منك قط!

الكونـت : معذرة! **(يُسمع صوت كارولينا داخل القصر.)**

كـارولينا : لا تدعْه يشرب الآن، ياموريثيو. فهو مايزال ينضح عرقاً. لكن، أطعم كلاب الصيد سكّراً. **(تدخل مشعّة بالحيوية وقد سفعتها الشمس. تلبس بزة ركوب للرجال وتضع ربطة عنق عريضة مطرزة.)**

السابقون وكارولينا.

كـارولينا : صباح الخير جميعاً. **(تحيّي تحيّة عسكرية.)** بالأمر، يا أبي!

الكونـت : تعالي هنا، يابنيّتي. قفي باستعداد. أجرى بك الحصان طويلاً؟

كـارولينا : ثلاث ساعات دون ركاب.

الكونـت : هل اجتزت حقول القمح عبر الدروب؟

كـارولينا : لا، يا أبي، بل عابرة فوق السنابل.

الكونـت : أوعبرت النهر فوق الجسر؟

كـارولينا : لا! بل قافزة فوق الشلال.

الكونـت : هكذا ينبغي لك أن تصنعي! **(يربّت على وجنتها. تحيي كارولينا مرة أخرى. وتتجه لتجلس.)** أليست ابنتي شجاعة، ياليانكور؟

الكونتيسة : أكثر مما ينبغي. لو ولدتْ ذكراً، ماكنت ربّيتها أسوأ من هذه التربية. كارولينا، ماهذه الجلسة؟ **(كارولينا التي جلست وساقاها فوق ذراع المقعد، تهرع إلى تصحيح جلستها.)**

كـارولينا : معذرة، يا أمي! ألم يصبح الغداء جاهزاً؟ أحس بجوع شرس.

الكونتيسة : وماهذه اللغة يافتاة؟ الشعور بالجوع ذوق رديء جداً. ولا ينبغي لفتاة أن تقول: شرس، حتى لوكانت تتحدّث عن نمر. شرس كلمة ذكرية.

كـارولينا : وماذا أصنع لك إن كنت أشعر بجوع ذكري؟

الكونـت : **(ينظر ذاهلاً إلى ابنته.)** هذه فتنة من فتن النساء!

ليانكور : وروعتهن! **(تلقي كارولينا بالقبّعة والقفّازين والسوط على مقعد هايدن.)**

الكونتيسة : كارولينا! مالك، يابنت! أتلقين بها على مقعد هايدن؟

كـارولينا : على أية شياطين تريدين أن ألقي بها؟ **(تأخذ بجمعها.)**

الكونتيسة : أو ينبغي لك الإلقاء بها في مكان ما؟ أوه، ثم قلت شياطين! أرأيت ذلك يانيكول. كل الذنب يقع على عاتقك.

كارولينا : معذرة! أيمكنني أن أقبّلك قبلة ياأمي؟

الكونتيسة : شرط ألا يُسمع لها صوت.

كارولينا : أهكذا؟ بوجودي معكم، أيمكنني أن أشرب كأساً؟

الكونتيسة : هذا شأنك. أنا لم أشرب قط! (**كارولينا رفعت الكأس إلى شفتيها ثم تتخلّى عنها متنهّدة.**) آه، ما أكبر رغبتي في أن يصل الأستاذ! إذا لم يستطع إشاعة النظام والانضباط في هذا البيت فلن أستطيع مزيداً من التحمّل.

كارولينا : سنلتقي هذا الأستاذ. يقيناً سيكون نموذجاً أكاديمياً. لكنّ الأكاديميات اليوم تسير في طريقها إلى الموت. أليس كذلك، ياليانكور؟ اليوم يسود العالم فن جديد من الحرية والفانتازيا، يدعى رومانتيكية.

الكونت : ماذا؟

كارولينا : رو- مان- تيـ كية.

الكونت : تبدو لي طويلة جداً.

كارولينا : بالله عليك، يا أبي! أنت تتكلّم كالعلج.

الكونت : مثل ماذا؟

كارولينا : (**ضاحكة** .) مثل لاشيء. إنها شؤون من ڤيينا . (**يُسمع صوت جلاجل** .)

الكونت : إنها عربة البريد. باليريا! (**يدق جرساً صغيراً. تغطّي الكونتيسة أذنيها** .)

الكونتيسة : اترك هذا الجرس . . . أذناي تنفجران . (**يخمد الكونت الصوت بيده. تدخل باليريا** .)

باليريا : سيدي . . .

الكونت : آتني بالبريد فوراً.

كارولينا : وبصحف ڤيينا . (**تخرج باليريا. ضوضاء الأجراس تخمد عند باب القصر** .)

ليانكور: عجباً! عربة البريد ماكانت تصل قط حتى المساء .

الكونت : إنه نظام الخدمة الجديد. تخرج العربة اليوم من ڤيينا وبعد أسبوع تقريباً تحطّ رحالها في جبال الكربات، يُبدل خلاله الحرس اثنتي عشرة مرة وعربة البريد أربع مرات . إنه عصر الدوار! (**تعود ماريا** .)

ماريا : أتعلمين أن لدي رشأ حياً ياكارولينا؟ ليتك ترين كيف ينظر إليّ بخوف وكأنه يطلب مني الصفح . عيناه عينا طفل . ألا تأتين فتريه؟

كارولينا : هيّا بنا! (**تتأهّبان للخروج ثم تتوقفان لما سمعتا باليرياتعلن من الباب** .)

بـاليريـا : أستاذ الموسيقى وصل!

الكونـت : أحقاً؟ فليدخل . . فليدخل!

مـــاريـــا : أما نحن، فلْنهربْ!

كــارولينا : تشجّعي يــامـاريـا! جـاء النظام حتى هنا حـامـلاً لحية أكاديمية.

المذكورون سابقاً وشوبرت.

فـــرانـــز : (**يتقدّم مكبوح الخطا. يحيي بانحناءة عميقة.**) سادتي . . .

كــارولينا : لكن، أليس هو مـوسـيـقي تلك الليلة؟! (**تهرع نحوه وذراعاها مفتوحان.**) سيد، شوبرت!

الكونتيسة : كارولينا!

كــارولينا : (**تتوقف مضطربة.**) معـذرة، يا أمي . . . إنه وقع المفاجأة. السيد شوبرت صـديق قـديم من ڤـيـينا. تعــارفنا الشــتــاء الماضي في . . . (**توقفها ماريا بإيماءة.**) في . . . أين تعارفنا ياماريا؟

مـــاريـــا : في حفلة ساليري.

كــارولينا : بالضـبط، في حـفلة سـاليـيـري . . . وطلبت «غولاشاً» وتورتة بطاطا.

ليانـكور : صديقي العزيز! (**يشد على يده.**)

الكونت : آه! أو تعرفه أنت أيضاً؟ ذلك خير لنا. أما أنا فأرى من العبث أن أقدّم نفسي. زوجتي...

فرانز: سيدتي... (**يتقدم ليقبّل يدها.**)

باليريا : أأصعد بمتاع السيد؟

فرانز : (**يلتفت فيما يشبه الصرخة.**) لا! أظن أني لم أجلب متاعاً معي.

الكونت : ألم تجلب متاعاً؟

فرانز: أعني سقط متاع.. أشياء صغيرة، أوراقاً.

الكونت : كانت ما كانت سلّميها إلى القهرمان. ولتجهّز له غرفة. (**تخرج باليريا.**) ماكنا نتوقّع مجيئك باكراً، أكان سفرك شائقاً؟

فرانز: الطريق تثير الإعجاب.

الكونت : والناس ليسوا سيئين. وسوف تتحقق من ذلك. ليسوا بثقافة أهل ڤيينا بالطبع. وأنا أعلم أنكم تطلقون علينا «برابرة الشرق». لكنك ستتعود عاداتنا. (**يظهر القهرمان في عتبة الرواق.**)

القهرمان: سادتي: المائدة صارت جاهزة.

الكونت : شكراً لك. (**يخرج القهرمان. يتحدث الكونت إلى زوجه، بينا يسلم شوبرت على كارولينا وماريا.**) لابأس عليه، أليس كذلك؟

الكونـت : أيّ شيطان يُدعى؟

الكونتيسة : شوبرت .

الكونـت : سيد شوبرت ، لن تسوءك الإقامة هنا . صدّقني . نحن- آل إستـرهازي- كنا منذ قـرون من هواة الموسيقى الراقية . وقصر زيلتز يحمل إرثاً طويلاً من الفن . أتعرف صاحب هذا الرسم؟

فـرانـز : هايدن العظيم!

الكونـت : هايدن العظيم عاش ثلاثين عاماً هنا . كان أستاذ أجدادي في الموسيقى .

الكونتيسة : كان يجلس ها هنا لإلقاء الدروس . وبعد وفاته لم يجلس أحد مرة أخرى على هذا المقعد .

الكونـت : نحتفظ بمقطوعات عدة له وتواقيع . سيكون لديك فسحة من الوقت لرؤية ذلك كله . والآن ، هيّا بنا إلى المائدة . (**يخرجون تتقدّمهم الكونتيسة وليانكور ثم ماريا . يلتفت الكونت إلى شوبرت الذي عزم على أن يتبعهم ببراءة .**) تفضل ، يا سيد ، إلى جناح الخدمة . لابد من الامتثال للقاعدة . وسوف تجد هناك آنيتك .

فـرانـز : إلى جناح الخدم؟!

الكونـت : بالطبع ، لست هنا خادماً كالخدم الآخرين . هؤلاء لا يحق لهم شرب الخمر على الطعام . أما أنت ، فلك ملء الحق بذلك .

فـــرانـــز: (مهاناً.) شكراً لك.. ياسيـد. (**يخرج الكونت. تحس كارولينا بإذلال فرانز في وجهها ذاتها. تدنو منه متوسّلة.**)

كـارولينا: معذرة! ماكنت أعلم أنك الأستاذ القادم.

فـــرانـــز: كـونتيسـة!... (**ينحني ببـرود. كـارولينا التي كانت شرعت في مدّ يدها، تتردّد مضطربة.**)

كارولينا: معذرة!... (**تخرج، يظل فرانز وحيداً يعضّ على الكلمات ضاغطاً على قبضتيه.**)

شوبرت وحيداً. ثم باليريا.

فـــرانـــز: مع الخدم! ليتني كنت أعلم ماذا جاء بي إلى هنا! أهم خدم من كانوا يعلّمون أبناءهم القراءة؟ وخدم من يحملون الموسيقى على أطراف أناملهم؟ (**يظل يتأمل اللوحة.**) آه، ياهايدن المجيـد! وأنت أيضـاً كنت خادماً في هذا البيت! ومع ذلك، لم يجلس أحد مرة أخرى على مقعدك هذا. (**لحظات سكون. تدق أجراس العربة التي تبتعد. فرانز يداعب بانفعال مخمل المقعد العتيق. تدخل باليريا حاملة حقيبة بسيطة وملفاً من أوراق الموسيقى. هي امرأة جميلة غضّة الجسم والابتسامة.**)

بـاليريـا: ماذا تصنع، ياتعيس؟ لا تلمس شيئاً هنا.

فـــرانـــز: ولِمَ؟

باليريا: لا أدري. لم يقُل لي السبب قط. لكن المقعد شيء مقدس. تنظفه الكونتيسة نفسها. ألا تتفضّل فتتناول الطعام؟

فرانز: ولِمَ تعاملينني باحترام؟ ألسنا خادمَيْن كلينا.

باليريا: لسنا سواء. أنت لست خادماً كالخدم الآخرين.

فرانز: نعم، أعلم ذلك، أنا لي الحق بتناول الخمر على الطعام. خاطبيني دون كلفة ولا رسميات، وسأشكر لك ذلك.

باليريا: عسى ذلك يكون نكتة!... (**تضحك بقوّة وهي تنظر إليه. ثم تصمت.**) ماسمك؟

فرانز: فرانز. وأنتِ؟

باليريا: باليريا.

فرانز: على الأقل نستطيع أن نكون صديقين بحق. والآن، هيّا بنا إلى الطعام، هيّا بنا إلى المطبخ إن شئنا الدقّة. لكن، اسمعيني ياباليريا: سأجلس ذات يوم على هذا المقعد. (**يمسك بها من ذراعها. تضحك باليريا وهما خارجان.**)

ستار

المنظر الثاني

في ذات المكان وبعد أشهر من ذي قبل. الوقت أواخر الصيف. على الخشبة: الكونت والقهرمان.

الكونت: لم أصل إلى فهمك. أنت لا تشرب ولا تلعب ولا تخرج قطّ من القصر. إذاً، لِمَ هذا الطلب؟

القهرمان: ذلك أن زوجتي على وشك أن تضع مولوداً آخر، سيدي الكونت.

الكونت: مولود آخر؟

القهرمان: الابن السابع، يا سيدي. **(يدخل شوبرت)**.

المذكوران وشوبرت

فرانز: أأرسلت في طلبي، يا سيدي؟

الكونت: نعم، انتظر لحظة! **(فرانز ينتظر واقفاً باحترام، ومنتحياً عنهما شيئاً قليلاً)**. سبعة أبناء! لكنّ هذا بشع جداً، يا مور يشيو! هذا جريمة! إذا كان المرء فقيراً لا ينبغي له أن يُرزق بالأبناء الذين يريدهم.

القهرمان: معذرة، يا سيدي... المصيبة مصيبتي!

الكونت: حسن! حسن! سأصدر أوامر إلى مدير الأعمال. منذ ولادة ابنك ستقبض خمسة فلورينات زيادة.

القهرمان: شكراً لك، يا سيدي.

الكونت: شرط ألا يتكرّر ذلك! **(يخرج القهرمان)**. أسمعت يا سيد؟ ثم يأتي بعد ذلك البؤس والتمرّد... بالطبع. خادم وله سبعة أبناء! وأنا كونت ليس لديّ سوى ولدين! **(مدّة سكون صغيرة)**. **ألك أخوة يا سيد؟ (فرانز الذي فوجىء بوضوح، يبطىء في الإجابة)**. ألا تسمعني؟ أسألك إنْ كان لك أخوة.

فرانز: نعم، سيدي الكونت. لي بعض الأخوة.

الكونت: كم هم؟

فرانز: **(دون تردّد، ويرفع رأسه)**. أربعة عشر، يا سيد.

الكونت: ماذا؟ أقلت أربعة عشر!... وبما يطعمهم والدك؟

فرانز: **(جاداً)**. أحياناً، لا يطعمهم شيئاً.

الكونت: **(بهدوء)**. معذرة! **(سكون. يروح ويجيء للحظة)**.

فرانز: أتبغي شيئاً آخر؟

الكونت: نعم. خلال الأشهر الأربعة التي قضيتها هنا، لم أجد عندك ما يلفت الانتباه. لكن، اليوم نعم.

فرانز : تحت أوامرك!

الكونت : يبدو أنك تخرج من القصر ليلاً بين حين وآخر ولا تعود حتى مطلع الفجر. يبدو أنك تقضي هذه السهرات بمرح في «نُزُل الطاحون» حيث ترقص الكساردا، وتغنّي وتشرب مع ناس من العامّة؛ ومن النزل تخرجون مع الفتيات إلى حقول القمح وسط الطبيعة.

فرانز : أنا أحبّ الطبيعة.

الكونت : وبنت الطحّان؟

فرانز : بنت الطحّان... هي ثمرة الطبيعة.

الكونت : سيد شوبرت، أنت تعلم جيداً أن المسألة الخلقية ليس ممّا يشغلني. أنت شاب وتبحث عن ناس من الشعب بالغريزة.

فرانز : أنا ابن الشعب، يا سيد.

الكونت : لكنك هنا أستاذ ابنتيّ. ولا يبدو لي هذا الاختلاط مع الطحّانين والفلاحين حسناً لأستاذ ابنتي. من اللازم أن ينتهي هذا الوضع فوراً. أيكفي هذا الرجاء؟

فرانز : **(يخنق حركة احتجاج)**. بالأمر، يا سيد.

الكونت : شكراً لك. يمكنك الانصـــراف. (**يخرج فرانز، تـدخـل الكونتيسة في نهاية المشهد وبينا تتحدّث لا تكفّ عن تنظيم تفصيل صغير، محدقة بنظّارتها في كل الزوايا**).

الكونت والكونتيسة، ثم كارولينا

الكونتيسة : أكنت توبّخ الأستاذ؟ لاتكنْ قاسياً عليه.

الـكونت : تزعجني أذواق هذا الشاب العامية.

الكونتيسة : ومع ذلك، روحه روح نبيلة، وهو ذو موهبة. أتحسب أنه يعيش بيننا كما يرغب؟

الـكونت : ولِمَ لا؟

الكونتيسة : لا أدري! لعلها ذكرى الوطن والحرية. أخيراً، سنرى إن كان هؤلاء الأصدقاء القادمون من ڤيينا يبثّون فيه شيئاً من العزيمة.

الـكونت : أوسيصلون اليوم؟

الكونتيسة : أُعدّت غرف للمدعوّين فيما لو جاؤوا. (**إذ تراه متكئاً على البيانو**). أرجوك، جعّدت غطاء البيانو.

الـكونت : معذرة!

الكونتيسة : وهذه اللوحة ألا تراها مائلة قليلاً؟

الـكونت : نعم، هي مائلة قليلاً.

الكونتيسة : أتريد أن تصلحها؟ ولِمَ لا توجد أزهار في الزهرية؟

الكونت : عفواً، يا عزيزتي، إلى أية جهة تميل؟ إإلى اليمين؟

الكونتيسة : بل إلى اليسار، يا نيكول. وما هذا؟... يا إلهي الكريم!

الكونت : ماذا هناك؟

الكونتيسة : غبار! غبار كثيف حتى يمكنك التوقيع به بإصبعك! هؤلاء الخدم سيقضون عليّ. **(لما رأته يمسك بالجرس، غطّت أذنيها صائحة بفزع)**. اترك الجرس! هو يمزّق أذني، اتركه. أفضّل أن أسعى وراءهم بنفسي. **(لكارولينا التي تدخل حاملة حضناً من الزهر البريّ)**. ما هذه الأزهار التي تحملينها، يا بنت؟

كارولينا : زهرة الزعرور البري الشائك! **(الكونتيسة التي كانت على وشك أن تأخذها تسحب يدها صارخة)**. أجرحتك، يا أمي؟

الكونتيسة : لا. وإنما جرحت أذني لما سمعت اسمها. أقسم لك، يا نيكول: أعصابي منفلشة! وما إن سمعتها تقول: شائك! حتى شعرت بشيء يخزني في جسمي كالإبرة. شاااائك! كلمة حادّة.

الكونت: هدئي من روعك! أنت لا تنامين نوماً جيداً. لا تنامين نوماً جيداً. (**يخرجان معاً. كارولينا تُلقي بقبّعتها الصيفية على أحد المقاعد. وتشرع في تنسيق الزهور في فخّارة البيانو. تدخل ماريا. تتكلّم منذ البدء. بتحفّظ كبير**).

كارولينا وماريا

ماريا: ماذا جلبت؟ زهر الزعرور البري الأبيض مرة أخرى؟

كارولينا: ألا ترينه؟

ماريا: أزهار الزعرور البري هي ما يُعجب بها شوبرت. أليس كذلك؟

كارولينا: لا أدري! أظنّ ذلك.

ماريا: وهي لا تنبت هنا. فلابدّ من البحث عنها في حقول الكرمة أو في الجبل. أذهبت بنفسك؟

كارولينا: أنا أحبّ المشي.

ماريا: فعلاً! اليانكور على العكس منه معجب بأزهار أذن الفأر. ولم تجلبي له منها قط.

كارولينا: وأنا ما شأني بليانكور؟ أجلب ما يطيب لي أن أجلب.

ماريا: فعلاً!

كارولينا: (تتخلّى عن تنسيق الباقة. وتلتفت إليها للحظة). ولِمَ تقولين فعلاً؟ ولِمَ تسألينني بهذه النغمة؟

ماريا: لا لشيء! (تستأنف كارولينا تنسيق أزهارها). اسمعي، يا كارولينا: ولِمَ أصبحتِ لا تركبين الحصان لابسة بزّة رجل؟ ولِمَ تقرئين اليوم كل كتب أمّك؟

كارولينا: أو ينبغي لي أن أبيّن لك الأسباب؟

ماريا: أوه! ذلك بأن شوبرت مفتون بالكتب، ولا يعجبه أن تمتطي النساء الجياد.

كارولينا: (تلتفت إليها بقسوة). لكن، أي كلام هذا كلامك؟ هلا سكتِّ؟

ماريا: وإذا لم أسكت؟ أم تحسبينني مازلت صغيرة تلقين عليّ الدروس وتعلمينني تصريف الأفعال صارخة؟ أتحبين أن ألقّنك اليوم درساً؟

كارولينا: ماريّا!

ماريا: أتريدين أن أبوحِ لك بشيء رهيب مازلت تجهلينه أنت نفسك؟ إذاً، سأصرخ به بملء فمي لكي تعلمي أني قد كبرت!

كارولينا: اخرسي!

مـاريـا : ما يجري لك، يا أختي، أنك عاشقة خرقاء.

كارولينا : اخرسي، قلت!

مـاريـا : مغرمة بهذا الأسيتيذ الذي له وجه طالب بائس، وعينان حسيرتان تشبهان عيني سمكة تروتشا مذعورة، وأصابع ضخمة تجري فوق البيانو كجرذان بيض.

كارولينا : ليس صحيحاً!

مـاريـا : نعم، صحيح. وهو أيضاً مغرم بك. إذا نظرت إليه، يرتعد كيانه كله كورقة شجرة. وإذا عزفتما معاً، يخطىء العزف دائماً. هو لا يعيش إلا من أجلك، ولا يفكر إلا فيك.

كارولينا : أقول لك: اخرسي!

مـاريـا : **(تصرخ بصوت أعلى)**. لا أريد أن أسكت!

كارولينا : **(ممسكة بها من يديها ومحاولة إخضاعها)**. أنا لست عاشقة. أتسمعين؟ لست كذلك. لكن، حتى لو كنت عاشقة، فما شأنك أنت بي؟ ولِمَ تتكلمين بكل هذا الحنق عليه؟

مـاريـا : ولِمَ؟

كارولينا : نعم، ولِمَ؟

مـاريـا : **(مضطربة، تفقد فجأة كل اتّزانها)**. ولِمَ؟ **(تتردّد وتنفجر باكية)**.

كارولينا : ماريّا! لكن، ما معنى ذلك كله؟ هيا، ارفعي رأسك. ماذا تعني هذي الدموع؟

مـاريـا : **(فزعة من مشاعرها ذاتها)**. لكن، ماذا يدور في ذهنك عنّي؟

كارولينا : برح الخفاء!

مـاريـا : لا، يا كارولينا. أقسم لك، أنا لستُ عاشقة، لست كذلك. **(يدخل شوبرت حاملاً محفظة مدرسية كبيرة)**.

السابقتان وشوبرت

فـرانـز : كونتيسة: أنستطيع أن نبدأ الدرس؟

كارولينا : **(بصوت كالصراخ دون أن تلتفت)**. لا!

فـرانـز : أجرى لكما شيء؟

كارولينا : لاشيء... **(تتماسك)**. ذهبْنا نبحث عن بعض الزهور، فوخزت ماريا شوكة. لكنها لم تكن سوى سحجة خفيفة برئت منها فوراً. أليس كذلك يا ماريا؟

مـاريـا : بلى! وخزة غير خطرة. وها قد ذهب الألم عني.

فـرانــز : إذاً، أنبدأ الدرس؟

كارولينا : لا ، ومعذرة . لأني اليوم ... اليوم سأدرس وأختي . **(تقودها من يدها وهي تؤنّبها)** . ما أكبر حماقتك!

مـــاريـــا : أقسم لك إني ليس كما تخمنين .

كارولينا : اسكتي الآن . **(تحييان معاً بانحناءة كبيرة وبسمة مصطنعة)** .

الاثنتان معاً : بالإذن منك، يا أستاذ . **(تشرعان في الحركة)** .

كارولينا : الآن فهمت ماذا تعني عينا السمكة والجرذان البيض التي تجري فوق مفاتيح البيانو .

مـــاريـــا : لكن، يا كارولينا ...

كارولينا : اسـكـتـي! **(انحناءة جـديدة وابتسـامة من عتبة الباب)** .

الاثنتان معاً : بالإذن، يا أستاذ . **(تخرجان . تدخل باليريا من الرواق حاملة منفضة ريش في ختام المشهد . تتقدم الآن صوب البيانو لتنفض الغبار عنه)** .

شوبرت وباليريا

فـرانــز : شيء ولا أعجب! ماذا يجري اليوم هنا؟

بـالـيـريا : اليوم؟ مايجري هنا ليس ابن هذا اليوم .

فـرانــز : يبدو أن البنت الصغرى جرحت جرحاً خفيفاً .

باليريا: نعم، والكبرى أيضاً.

فرانـز: أوخزتها شوكة أخرى؟

باليريا: بل الشوكة ذاتها. **(تدنو منه)**. سيد شوبرت، أنت الإنسان الوحيد الذي نظر إلي بصفاء وصدق، وأنا مدينة لك بما تمليه الصداقة عليّ. أتريد أن تسمع مني نصيحة؟

فرانـز: قوليها!

باليريا: ألن يصل رفاقك هذا اليوم؟ إذاً، عدْ معهم إلى ڤيينا. أنت هنا لست في مكانك الصحيح. **(تسمع أصوات جلاجل)**.

فرانـز: اسكتي... قد وصلوا! **(يهرع إلى النافذة الكبيرة)**. نعم. إنهم هم! ها هم يترجّلون... وقد بدؤوا السير. **(يحييهم هاتفاً)**. مايرهوفر! اهرعي يا باليريا، وافتحي لهم باب الحديد.

باليريا: سأذهب. **(تخمد ضوضاء الجلاجل أمام القصر. تصل باليريا حتى باب الحديقة)**. ولِمَ أفتح الباب، إذا كانوا اجتازوه قافزين من فوقه؟ **(تخرج صائحة بهم)**. إيه!... مالكم! أية آداب هذه؟ قفوا، قفوا عندكم! **(حوشكة[1] من الأصوات داخل الحديقة يبرز بينها صوت ماير هوفر الهادر)**. قفوا! لايمكنكم دخول البيت على هذا الشكل.

---

(١) - الحُوْشكَة: ماتسمعه في ناحية من الدار.

مايرهوفر: ألا يمكننا الدخول؟ هيّا يا رفاق! حطّموا هذا الجدار. **(تعود باليريا متدحرجة بين أذرع مايرهوفر، وكينّر وسباون. مايرهوفر يرتدي سترة أنيقة جداً)**.

المذكوران سابقاً ومايرهوفر وكينّر وسباون

مايرهوفر: أين يختبيء هذا الأمير الأسير؟

كينّر: فرانز!

فرانز: صديقي! بابلو، سباون! **(يتعانقان)**.

كينّر: تعال اعانقك!

مايرهوفر: تعالَ إلى ذراعيّ، أيها البائس المنفي.

فرانز: لحظة، لحظة... باليريا!

مايرهوفر: أهي صديقة أيضاً؟ باليريا! **(يمدّ لها ذراعيه. تضحك دون أن تقبل بالعناق)**.

فرانز: إنهم رفاقي، أعلمي السيدين الكونتين بوصولهم.

مايرهوفر: قولي لهم: جاء الفن إلى عقر دارهما. **(يصفعها على ردفها. تخرج ضاحكة)**. امرأة جذّابة! وهي مكتنزة اللحم.

سباون: حسبناك ميتاً. أربعة أشهر دون أن ترسل رسالة واحدة بائسة؟!

فـرانـز: كنت مكتئباً.

كـيـنّـر: أتكتئب هنا؟ لكنّك في قصر من الأساطير وسط غابة من الدردار وأقواس غوطية، وجبال الكربات تشكّل خلفية لها.

مايرهوفر: والله، أنت في مقام كريم. أليس هو البيانو الأبيض الذي طالما حلمت به! وغطاؤه من نسيج فاخر، ثم هذه الفخارة!

فـرانـز: حذارِ! إنها من جرار سيفر. **(يضحكون جميعاً ماعدا مايرهوفر)**.

مايرهوفر: لا، ليست كذلك. لقد انطوت تلك الأزمان.

كـيـنـر: أتعيش محزوناً هنا؟ أليس لك أصدقاء؟

فـرانـز: أخرج بعض الليالي إلى الطاحون. وفيها كتبت أغنية حلوة: «الطحانة الجميلة».

سبـاون: أتعمل كثيراً؟

فـرانـز: بل قليلاً. ألّفت بعض أغاني «البلاد»، و«كابر يتشو» هنغارية ... وأنا أيضاً بصدد كتابة سيمفونية كبيرة لا نهاية لها.

مايرهوفر: لانهاية لها؟ أنت تقول ذلك؟ ومع ذلك، تكتب أقل مما ذي قبل.

فــرانــز : لكن، على شكل أفضل. لكن، ماذا ترى عيناي؟ أأنت مايرهوفر بلحمه وشحمه؟ أراك تلبس كما يلبس السادة الكبار!

مايرهوفر : هذا موضع السوء فيّ. ليتك تعلم كل ما يختبىء تحت هذه البزّة! (**يطأطىء رأسه بحزن. يشير كينّر إلى فرانز بأن يسكت**).

ســباون : تعال إليّ مرة أخرى. لابدّ لي من أن أعانقك عناقاً كبيراً أحمله إليك من الطلاب ومن المايسترو هو لزر ومدام سان سوسي وأحمل لك عناقاً خاصاً كبيراً، كبيراً جداً من ڤيينا.

كــينّــر : ڤيينا! رفاق، قفوا دقيقة صمت إحياء لذكرى : نحن في حانة تاج هنغاريا ... تشرين ثانٍ مثلج ... فرانز شوبرت يقدّم حفلته الأولى ... اصعد الخشبة أنت يا مايرهوفر!

مايرهوفر : (**وقد عَدَتْه حماسة زملائه**). سباون! خذْ هذه الفخارة إلى المقرض! والمعطف أيضاً! (**يصعد على مقعد هايدن. يأخذ سباون الفخارة وغطاء البيانو. كل منهم يقلّد بحركة كاريكاتورية كبيرة المشهد الذي تستعيده الجمل المختلفة. تختلط أصواتهم جميعاً في تدفّق سريع**).

كـينّـر: أنا البرجوازي: غريتِل، هاتي مستحلب اللوز وسجقاً أبيض.

مايرهوفر: أيها الطلاب، فنّ جديد أخذ يولد بيننا اليوم!

سباون: كل شيء خرج من هذه الفخارة. قسم الأغنية: تورتة بالعنب، وكستناء مشويّة...، (**يأخذ بإخراج الزهور ويلقي بها في الهواء**).

مايرهوفر: لقد ماتت الأوبرا الإيطالية!

كـينّـر: إني أعترض! هذي هي الثورة! (**يطرق المنضدة، ملقياً بالأقداح**).

سباون: أزهار بنفسج للمدام... والآن، السجق!

مايرهوفر: (**يحرك الجلجل**). اسكتوا يا أوباش! شوبرت حقق النجاح!

كـينّـر: ونابليون تزوّج للمرة الثالثة. (**يغمس قبّعة كارولينا الصيفية في رأسه. شوبرت الذي انتعش قليلاً وسط الذكريات، يندفع صوب البيانو ويشرع في عزف «اللحظة الموسيقية» بإيقاع سريع. تظهر الكونتيسة في الخلفية. تطلق صرخة ذعر حتى تحطّم المشهد كله كالزجاج. ظلّوا جميعاً جامدين في الوضع الذي فاجأتهم به. تتقدّم الكونتيسة رافعة نظارتها إلى عينيها**).

المذكورون سابقاً والكونتيسة

الكونتيسة: لكن، ما هذا الغزو؟ أبُعث حصان آتيلا؟ ماذا تصنع أنت واقفاً على مقعد هايدن؟

مايرهوفر: معذرة!

الكونتيسة: إلى أين ذاهب أنت بهذه الفخارة؟

سباون: معذرة!

الكونتيسة: وأنت مالك ولقبّعة بنتي؟

كينّر: معذرة! **(يُعاد كل شيء إلى وضعه الأول)**.

الكونتيسة: سيد شوبرت، أتستطيع أن تبيّن لي أية شياطين يعني ذلك كله؟ **(تُذعر من كلماتها ذاتها)**. معذرة منكم! أصبحت لا أعي ما أقول.

فرانز: سيدتي الكونتيسة! اعذريهم... إنهم رفاقي. **(يحيّونها جميعاً بتهذيب رقيق)**. وصلوا منذ قليل. ومازالوا يحملون معهم مرح ڤيينا.

مايرهوفر: تذكرنا يوماً مجيداً، ولزمنا دقيقة صمت عليه.

فرانز: لكنني أعدك بأنك لن تسمعي مرة أخرى هسيس طيران ذبابة مابقوا هنا.

الكونتيسة: **(غير مطمئنة كثيراً)**. حسن! حسن!... ليكن ذلك! تفضلوا رافقوني، سأقدمكم إلى زوجي، ولا

تحدثوا ضوضاء عند سيركم. **(تتقدم آخذة حيطتها)**.
باليريا! فلتسحب التماثيل من الرواق. أنذهب؟
(تخرج. يتبعونها سائرين على رؤوس أصابع أقدامهم. فرانز يوقف مايرهوفر).

فرانز ومايرهوفر

فرانز: انتظر، أنت.

مايرهوفر: **(يحاول أن يتملّص من المشهد)**. سنتكلم فيما بعد.

فرانز: بل الآن. لابد لي من أن أسألك هذه اللحظة ذاتها. هذه التحيّات التي حملتموها من ڤيينا تنقص منها تحية واحدة. لماذا؟

مايرهوفر: من تعني؟

فرانز: من سيكون؟ أعني تيريسا.

مايرهوفر: آه، نعم! تيريسا غروب. أكنت تحبها كثيراً، يا فرانز؟

فرانز: لِمَ تقول لي ذلك؟ ماذا جرى؟

مايرهوفر: لاشيء خطيراً... تيريسا غروب تزوّجت. وبالأحرى، زُوِّجت. كان عليك أن تتوقّع ذلك. أنت تركتها تحت رحمة إرادة والدتها. وهما

امـرأتـان فـقـيرتـان ووحـيـدتـان. ولـم تـكتب لهـا رسالة واحدة. أكنت تحبها حقاً؟

فـرانـز: لا أدري ... كـانـت كـأنها شـيء من ذاتي، كـانت أختاً، ربما. ومع ذلك يؤلمني ...

مايرهوفر: وآلمنا جـمـيعـاً. لم يشأ أحـد أن يحضر عـرسهـا. والمايسترو العجوز هولزر الذي عزف على الأرغن في كل أعـراس حي ليشـتنتال رفض أن يعزف ذلك اليوم أيضاً.

فـرانـز: ربما كـان من الخـير أن فـعل ذلك. وبـعـد كل شيء كان لامناص لهذا الأمر من أن ينتهي.

مايرهوفر: لِمَ لم تكتب لها؟

فـرانـز: لأنـي لا أعـرف الـكـذب. هـنـا أدركـت أن ذلك الحب لم يكن حبّي الحقيقي.

مايرهوفر: آه! أهناك امرأة أخرى؟

فـرانـز: دعنا من الكلام عن هذا.

مايرهوفر: لابأس. أليست تلك الكونتيسيتا التي عرفناها تلك الليلة في حانة تاج هنغاريا؟

فـرانـز: دعنا من هذا. وحدّثني الآن عن الأصدقاء فقط ... وعن نفسك أيضاً.

مايرهوفر: عن نفسي؟ من الخير ألا أتكلّم عن نفسي أيضاً. أنا حقير، يا فرانز. ألم تقل لي أني ألبس كالسادة الكبار؟ إذاً، أنا ألبس هكذا لأني حقير.

فرانز: أنا لا أفهمك.

مايرهوفر: خنت تاريخ حياتي كله. أنا الآن في خدمة ميترنيخ.

فرانز: في خدمة ميترنيخ؟ أنت! وفي أي مجال؟

مايرهوفر: في مجال يؤلمني أشدّ الألم: في رقابة الكتب.

فرانز: خوان!

مايرهوفر: كنت أعاني الجوع، وأنا ذو قريحة. وهما مرضان لايمكن أن يتعايشا. وبعت نفسي ببؤس. قل لي إني رعاعة حقير، يا فرانز، والآن، يلزمني أن أسمعها منك.

فرانز: اسكت! ... **(لحظات سكون مقلقة)**. والآخرون؟ بابلو؟ وسباون؟

مايرهوفر: هما مايزالان طاهرين نقيين يقطنان حجيرتين بائستين ومايزالان يعاملانني بتسامح نظراً لماضيّ. لكنني أعلم أنهما يحتقرانني في قرارة نفسيهما.

فرانز: أو يعملان؟

مايرهوفر: بابلو سيكون شيئاً عظيماً. نشر قصيدة ثورية عصماء كانت جد ثورية حتى اضطررت إلى أن أفرض عليه مئة فلورين غرامة.

فــرانــز: مئة فلورين!

مايرهوفر: دفعتها عنه. فالقصيدة تساوي هذا المبلغ حقاً.

فــرانــز: والآخرون؟ ألم تعد إلى حانة تاج هنغاريا؟

مايرهوفر: مرة واحدة فقط. كانت غاصّة بطلاب يتناقشون صراخاً. وعلى البيانو كان يعزف فتى آخر يتجلّى الجوع في عينيه. ولما دخلتها صمتوا جميعاً. ولم يحيّني أحد منهم. (**بمرارة كبرى وقاسية**). وبذلك أحسنوا صنعاً. يمكن لك أن تمدّ يدك للعدو. وأما الخائن فلا.

فــرانــز: ومدام سان سوسي؟

مايرهوفر: تعيش الآن وحيدة، وقد ازدادت بؤساً على بؤس. ذهبت ذات يوم لأدفع لها ديوني، فصفقت الباب في وجهي. ولم تقبل النقود لأنها مني، وهي التي نفتها الثورة! آه، ليتني أستطيع العودة مرة أخرى إلى تلك العلية وأرتعد من البرد وسط تلك الأغطية، لكن بروح نقية طاهرة. (**يشرع في مداعبة أزرار سترته**). أتتذكر هذا الزر؟ خاطته أمي لما خرجت من البيت. ولعلك وجدته على كل بزّاتي البائسة كأنه

إرث مقدّس. ذلك كل ما بقي من مايرهوفر الشاعر والمواطن الحر! لكنني بهذه البزة التي ألبسها الآن، لا يحقّ لي أن أحمل هذا الزر. (ينزعه منها) احتفظ به أنت! (يدنو منه. بصوت مكبوت). ألن تغفر لي، يا فرانز؟ (**فرانز يشدّ على يديه بصمت متأثراً**). هكذا! وشكراً لك... ولا تقل لي شيئاً. ذلك خير لي. (**يشرع في الحركة، يتوقف عند الباب**). وإذا علمت ذات يوم بأني أطلقت طلقة على رأسي، فأرسل هذا الزر إلى أمي، وسوف تدرك حقيقة الوضع. (**يخرج. فرانز يمكث منطوياً على نفسه حزيناً. يتهاوى على مقعد**).

فرانز: خوان مايرهوفر... تيريسا غروب... صارا صدى! (**سكون. تُدق ساعة ذات أنغام. تدخل كارولينا. تظلّ تتأمله مدّة ما دون أن يتنبّه**).

كارولينا وشوبرت

كارولينا: سيدي الأستاذ!

فرانز: (**ينهض بسرعة**) أهلاً، يا كونتيسة!

كارولينا: تستطيع أن نبدأ الدرس متى شئت.

فرانز: تحت أمرك. ألن تأتي أختك؟

كارولينا: لا. ظلت في حجرتها محتبسة وراء باب مقفل

فــرانــز : محتبسة؟ ولأي شيء؟

كــارولينا : لأنها أضعف مني . **(تأخذ بعض الأوراق من فوق البيانو)**. تبدو حزيناً . ألم يحمل إليك أصدقاؤك الفرح من ڤيينا؟

فــرانــز : بلى! جلبوا لي فرحاً كبيراً. هذا اليوم كان مملوءاً بالفرح . فلنبدأ درسنا .

كــارولينا : ما رأيك لو بدأنا بهذا : مرغريتا على مغزلها؟

فــرانــز : لابأس بها! هي أغنية جميلة فيها انفعال وفانتازيا .

كــارولينا : هي من أغانيك .

فــرانــز : من أغانيّ؟ آه، نعم! عفواً منك!

كــارولينا : وهي مهداة إلى شخص . **(تقرأ)**. «إلى تيريسا غروب . فرانز» . يندر أن أفتح ورقة من أوراقك دون أن أعثر كل مرّة على الكلمات ذاتها : «إلى تيريسا غروب . فرانز» . أحسب أني أتذكر هذه الفتاة . من هي؟

فــرانــز : لا أحد ... كانت صديقة حميمة لي، وقد ماتت . **(يمزّق المقطوعة)**.

كــارولينا : ولِمَ تمزّق هذه الورقة؟

فــرانــز : لأنها من الماضي . أنا لا يعجبني ما كنت كتبته قط . بل أوثر عليه ما سوف أكتبه .

كـارولينا : أويجري لك في الحياة ما يجري في الفن؟

فـرانـز : لا أدري! ربما.

كـارولينا : لا أصدق! مذجئت هنا، تكاد لا تكتب شيئاً، ولا تعيش تقريباً. عيناك تتطلّعان دائماً إلى مكان آخر بعيد، تبحثان عن شيء وراء الجبال. وأنا أعلم عمّا تبحث بعيداً جداً. أنت تبحث عن حبّك الكبير!

فـرانـز : حبي الكبير؟

كارولينا : نعم؛ تبحث عن ڤيينا! أنا أدرك ذلك. هنغاريا بلد خشن أسمر وهي أرض رجال. أما ڤيينا، فعلى العكس منها، لها عينان زرقاوان، وهي علبة أنغام. والأطفال فيها يتعلّمون الغناء قبل أن يعرفوا الكلام، والفتيات إذا سِرْنَ يطرقن بأعقاب أحذيتهن بإيقاع راقص، والدانوب ليس نهراً، وإنما هو لحن ينساب ماء. وعند المساء تشتعل الحباحب فوق الحقول، والقناديل في المدينة، فتتحول ڤيينا كلها إلى سيمفونية من الكمنجات تحت قبّة النجوم. ڤيينا! **(سكون)**. أتحب أن تعود إليها؟

فـرانـز : الآن، لا.

كـارولينا : أيوجد شيء «الآن» يحجزك هنا؟

فـرانـز : هنا؟ أنبدأ الدرس، يا كونتيسة؟

كـارولينا : آه، نعم! فلنبـدأ الـدرس فـوراً! (**تبحث عن ورقة أخرى**). ولِمَ تدعـوني دائماً كـونتيسة؟ كـارولينا، أليس له وقع أفضل؟

فـرانـز: سأحاول ذلك.

كـارولينا : شكراً. مـا رأيك لو درسنا هذه الورقـة؟ إنهـا لبيتهوفن.

فـرانـز: نعم: هذا حسن جداً.

كـارولينا : وهي مهداة أيضاً إلى امرأة. والطريف أنها تدعى تيريسا أيضاً. تيريسا برونسويك. ما أكبر التشابه الـذي أجـده بينك وبين بيتهوفن! وكأنكما أخوان لا يعرفان واحدُهما الآخرَ. كلاكما نفور وحزين وخجـول من الخارج، لكنه يخفي كبرياء شديدة. أنتـما تتشابهان في كل شيء. قل لي: أحقاً كان بيتهوفن مغرماً بصمت بإحدى الكونتيسات؟ (**شـوبرت لا يجيب، يرتعـد دون أن يجـرؤ على النظر إليها، يشرع في تنظيف نظارته**). أحقاً؟

فـرانـز: نعم، كان يحبها بصمت.

كـارولينا : ولِمَ كان يحبهـا بصمت؟ بعد كل شيء، هي لا تحمل غير لقب واحد موروث. أما بيتهوفن فعلى العكس منها، كان يحمل بسيمفونياته تسعة ألقاب عظيمة.

فــرانــز: كارولينا... معذرة! كونتيسة: أنبدأ الدرس؟

كـارولينا: آه، نعم، لنبدأ الدرس. ولِمَ تنظّف نظارتك كلما اضطربت؟

فــرانــز: أوه، عفواً منك! **(يضعها على عينيه مسرعاً)**.

كـارولينا: لنبدأ! «سوناتا حميمة بالسي مينور»، **(تُطبق ورقة المقطوعـة مرة أخرى. يأخذ الظلام بالانتشار)**.
وماذا إذا لم آخذ اليوم درساً؟

فــرانــز: أأنت متعبة؟ أتريدين أن تسلّمي على أصدقائي؟

كـارولينا: خرج أصدقاؤك بصحبة أمي وليانكور.

فــرانــز: أتفضّلين النزهة في هذه الحالة؟ أندعو أختك إلينا؟

كـارولينا: ماريا محتبسة في حجرتها. يا لها من مسكينة! وأبي في محل الحدادة مع الجياد. والخدم في جناحهم، يبدو لي غريباً أن ظللنا كلانا في وحدة كاملة. ماذا يجري لك؟ أتحس بسوء؟

فــرانــز: أحس بالحرارة.

كـارولينا: لنتكلم كصديقين حقيقيين.

فــرانــز: لا تسخري مني. أنا لا أحسن الكلام، وإنما أعرف الكتابة فقط.

كـارولينا : إذاً، اكـتب! لـم لا تكتب شـيـئـاً مـن أجلي، مـن أجلي وحدي؟

فــرانــز : أنا بصدد كتابة سيمفونية منذ مجيئي هنا. لكنها سيمفونية عظيمة، ويبدو لي كل شيء ضئيلاً من أجل إتمامها. أريدها أن تكون جديرة بك.

كـارولينا : شـكراً لـك. لـكـن، لـم لا تكتب لـي شيئاً أبسط متـى فرغت من هذه السيمفونية؟

فــرانــز : سيكون لـك ذلك. هذه الليلة نفـسـهـا سـأكـتب من أجلك؟

كـارولينا : أتريد أن أحدّد الموضوع؟ انظر من هذه النافذة: في الحديقة دردارة ذات أغصان عالية. أغصان الدردارة تريد بلوغ السماء، لكنها لا تجرؤ على الارتقاء. غير أن في الـدردارة عـصـفـوراً، وإذا كـانـت أغـصـان الشجرة لا تقوى على الصعود عالياً حتى السماء، فإن صوت العصفور يبلغها. أتريد أن تكتب لي غناء هذا العصفور؟

فــرانــز : **(ينظر إليها بانفعال عميق)**. شكراً لك.

كـارولينا : غـاب ضـوء النهـار تقـريبـاً. انتظر. أنا سـأجلب الشمعدان بنفسي. **(تخرج. فرانز يردّد وحيداً)**.

فـرانـز : أغصان الدردارة المسكينة لا تقوى على الوصول عالياً جداً ... **(يعزف واقفاً على البيانو الإيقاعات الأولى من السيريناتا)**، لكن صوت العصفور يبلغ السماء. **(يأخذ ورقة وقلم رصاص، ويتأهّب للكتابة مستنداً إلى البيانو نفسه.)** صوت العصفور! **(يسود الظلام المسرح. وجه شوبرت وحده يضاء وهو يكتب، بضوء أبيض ينحدر من علٍ. حينئذ ينبثق من الكلمات صوت العصفور منشداً السيريناتا الخالدة. فرانز يظل يكتب. تعود كارولينا. يتوقف عن الكتابة. يُرى وجهُهُ فقط على ضوء الشمعدان. تنادي بصوت خفيض).**

كـارولينا : سيد شوبرت! **(شوبرت لا يسمعها. يستمر في الكتابة. واللحن يتدفّق. تتقدم كارولينا بضع خطوات. تناديه مرة أخرى).** سيد شوبرت! **(يسمع صوت العصفور وحده. حينئذ تتراجع كارولينا في صمت. تتوقف في العتبة بينما يسقط الستار).**

المنظر الثالث

في ذات المكان وبعد شهر من ذلك. أي في تشرين الثاني، تُرى من النافذة الأشجار التي صارت جُرْداً الآن، وقمم جبال الكربات المغطّاة بالثلوج. على الخشبة الكونت والكونتيسة وليانكور.

ليانكور: انطوى كل شيء. وعاد الهدوء إلى فرنسا، وقصري وحقولي في البروڤانس عادت إليّ أيضاً.

الكونتيسة: حسبما قرأت، البروڤانس أرض العجائب.

ليانكور: ستسحرك يا كونتيسة، وستكون فتنة لكارولينا. وهي مهد الشعراء والأبطال منذ القديم.

الكونت: لنشرب الأنخاب يا ليانكور. نخب تحالف سيختم إلى الأبد صداقة دامت سنين طوالاً. لنشرب نخب فرنسا الحلوة.

ليانكور: نخب هنغاريا الودود. نخب سعادة كارولينا.

الكونتيسة: إن شاء الله! (يشربان كلاهما).

الكونت: رافقي البارون يا عزيزتي. كارولينا ستكون بين الكروم. أنا سأصدر أوامر إلى الخدم.

الكونتيسة : فليهرع هذه الليلة إلى القصر كل رعاتنا وفلاحينا متوّجين بالورود.

الكونت : وليجلبوا معهم خبز القمح، والجداء كما في الزمان الأول.

الكونتيسة : لا أريد ماعزاً هنا يا نيكول، هي ذات رائحة كريهة.

الكونت : لكنها التقاليد!

الكونتيسة : ينبغي لنا التخلّي عن التقاليد إذا فاحت منها رائحة كريهة. فليجلبوا حملاناً ، هذا أكثر شاعرية وأنظف. هيا بنا يا بارون. **(يخرجان معاً. يصل شوبرت حاملاً بعض أوراق الموسيقى. يُقبل صافراً بمرح).**

الكونت وشوبرت

الكونت : أراك مبتهجاً جداً، يا أستاذ. ألديك استعداد للعمل؟

فرانز : أكثر من أي وقت آخر.

الكونت : أتسير بهذه السيمفونية إلى الأمام؟

فرانز : الآن نعم. سأختمها هذه الليلة نفسها.

الكونت : لا. ومعذرة منك. اليوم لا أريد شيئاً من الموسيقى الراقية! هذه الليلة سيُعزف على الرباب والفلاوت والتامبوريل.

فــرانــز: أستقام حفلة في القصر؟

الـكونت: نعم، ستـقـام. وسـتكون حـفلة كـبرى. عـزيزي البروفسور: شرفني الكونت ده ليانكور بأن طلب يد كريمتي. سنحتفل بالخطوبة هذه الليلة. نعم، أريدك أن تأتي هذه الليلة برفــاقك المرحين من ندمــاء الطاحون ليغنّوا الأغاني القديمة ويرقصوا التساركا الهنغارية ويعبّوا الخمر عباً من الجرار.

فــرانــز: **(ينظّف نظارته)**. سـيدي الـكـونـت، هـل لـي أن أسألك: أي كريمتيك تعني؟

الـكونت: ومن سـتكون؟ مـاريا مـاتزال صـغـيـرة. أعني كارولينا! احتفظْ بهذه الموسيقى الجادة إلـى يـوم آخـر. اليـوم أريد أن يكون شعبي إلى جـانبي. تولَّ تنظيمه، ودعنا نرَ كيف يتصرّف. تنظيم حفلة هذه الليلة يقع على عاتقك.

فــرانــز: أنا تحت أوامــــرك! **(يخــرج الكونت. لحظات سكون. ينظر شـوبرت من النافذة ويقول بمرارة)**. تشـرين الثـاني! **(تسـمع داخل القـصـر ضـحكة كارولينا. تنادي)**.

كـارولينا: سـيد شـوبرت! **(تدخل حـاملة سلّة من أغـصـان الصـفـصـاف وتضع منديلاً على رأسها كما تفعل الفلاحات)**.

شوبرت وكارولينا

كـارولينا: سيد شوبرت! ها قد بدأ موسم قطاف العنب! ولا مناص لي من أن أحمل سلّتي مملوءة بعناقيد العنب على رأسي كما الفلاحات. بين الأعناب ينمو الزعرور الشائك! أتريد أن تذهب معي؟

فـرانـز: لا.

كـارولينا: أتفكر في العمل الآن؟

فـرانـز: لا، قلت لا!

كـارولينا: ولِمَ تكلّمني هكذا؟ (**تضع سلّتها، وتدنو منه**). أجرى لك شيء؟

فـرانـز: لم يجرِ شيء. وإنما كنت أفكر فقط أننا في شهر تشرين الثاني.

كـارولينا: أو هذا ما يجعلك حزيناً؟

فـرانـز: كل الأمور الحاسمة في حياتي جرت في هذا الشهر. ذات صباح من تشرين الثاني غُنّي في الكنيسة عملي الأول «القداس بالفا». كان يعزف على الأرغن المايسترو هولزر، وكانت تغنيه تيريسا غروب. وقدّمتُ ذات ليلة من تشرين الثاني حفلتي الأولى في ڤيينا.

كـارولينا: كانت ليلة تعارفنا فيها.

فــرانــز : وكانت ليلة وفاة أمي أيضاً .

كـارولينا : واليوم، أجرى اليوم شيء خطير؟

فــرانــز : جرى أيضاً! لأنني اليوم سأعود رجلاً . هذه الليلة لن أبيت في القصر .

كـارولينا : ماذا تقول؟ أتتخلّى عنا يا سيد؟

فــرانــز : أولاً ، سأغني في الحفلة على صوت التامبوريل شارباً من خمر أعنابك . وبعد ذلك سأحطّم كأسي على الأرض وسأطلب حريتي صارخاً بملء فمي : لن أحمل جلاجل مهرّج بعد اليوم! وداعاً ، يا كونتات هنغاريا! فقد أذللتموني دائماً ، وجعلتموني أرقص لتضحكوا كما يفعل مهرج يُلقى إليه بالنقود في الدُّف . لكن قلبي لا يرقص هنا . وكل مالديكم من مالٍ لا يكفي لشرائه!

كـارولينا : لكن ، ما الداعي إلى ذلك كله؟ ماذا تريد بذلك؟

فــرانــز : كـاروليناده إسترهازي، أهنّئك : هذه الليلة حفلة خطوبتك . فقد خطبك البارون دِه ليانكور .

كـارولينا : أنا خطيبة ليانكور؟ أنا؟ (**تحاول أن تضحك**) . من قال لك هذا؟

فــرانــز : أبوك .

كـارولينا : محال!

فــرانـــز : أمــا كـنـت تعلمين ذلك؟ فـقـد أصــدر أوامــره بإقامة الحفلة.

كـارولينا : إذاً، إذاً، أحق ما تقول؟ (**لحظات سكون صغيرة. تخلع منديلها. تبادر إلى ردّ فعل بارد مرّ**). حسن جداً! هذا يعني أن أبي أنشأ قلبي عصفوراً طليقاً ليعمد إلى حبسه بعد ذلك؟ أيتصرّف بمقاديري حتى دون أن يستشيرني وكأنني شيء بلا روح؟ حسن جداً! لن تحطّم كأسك وحدك، يا شوبرت! أنا أيضاً سأحطّم هذه الليلة كأسي أمام عيني والدي!

فــرانـــز : معذرة منك! حسبت أنك كنت على علم.

كـارولينا : كيف أكون على علم ثم أريد أن أغنّي وسلّة العنب فوق رأسي؟ كيف أكون على علم وقد جئت ألقاك بالبشر يطفح من وجهي؟ أهذا كل ما استطعت معرفته عني؟

فــرانـــز : معذرة!

كـارولينا : ولِمَ تهجر القصر؟

فــرانـــز : (**خارجاً بعنف من سلطان خجله**). لذات السبب الذي جاء بي إلى هنا! لذات السبب! أم تحسبينني جئت هنغاريا طمعاً بأجر مقداره فلورينان فقط؟ لا! جئت لأنني تعرّفت ذات ليلة من تشرين الثاني على امرأة كانت تعشق الفن وتبغض الظلم. وهنا ذقت

كل أنواع الهــوان من أجلهــا ... هنا خنقت كل الصرخات التي تضطرم في داخلي ... هنا لحست كالكلب سلسلة أحتقرها ... كل ذلك من أجلها فحسب! لكن مضى زمن السكوت لأني تحرّرت من قيودي مرة أخرى. وأستطيع أن أصيح اليوم بملء فمي في وجه العالم كله: إنـي جئت مـن أجلك، يا كارولينا ... لأنني أحببتك بيأس، وإن كُتب عليّ أن أكون كأغصان هذه الدردارة البائسة التي لا تبلغ عنان السماء، لكنّ فيها عصافير تغنّي غناء يبلغ مسمع الجوزاء.

كارولينا: فرانز! **(تلقي بنفسها بين ذراعيه صارخة صرخة هوى لا يُكبح. يتبادلان القبل. يفاجئهما الكونت وهما على هذا الوضع).**

شوبرت وكارولينا والكونت

الكونت: كارولينا! **(يتقدّم صوب فرانز وهو يرتعد من الغضب والكبرياء)**. اخرجْ من هنا! اخرج فوراً! وإما لا، فسوف أطردك ضرباً بالسياط.

كارولينا: **(التي تثور منتحبة بانفعال، لكن بطاقة لا يمكن السيطرة عليها)**. لن تفعل ذلك! شوبرت رجل حرّ، وسوف تصافحه يداً بيد مودّعاً.

الـكونت : اسكتي أنت! أهذا هو الاحترام الذي تبدينه مراعاة لاســمك، ومع خــادم بائس! أنســيت الدم الذي يجري في عروقك؟

كـارولينا : لا يا أبي، لم أنس. من هذا الجانب لا تخش شيئاً. دم النبالة يجري في عروق آل إسترها زي منذ ثمانمئة عام. وإني لأعلم كم تزن هذه السنون! أنا سأحافظ عليه مادمت حيّة دون أن أجعله يحتكّ بدم آخر إلى أن يتعفّن في عروقي الجافّة، ودون حبّ ودون بنين. لكن قلبي ملكي. فبأيّ حقّ تبيعه لشخص آخر؟

الـكونت : ومنذ متى رأيت نفسي ملزماً باستشارة أبنائي؟ أهذه هي دروسك يا أستـاذ؟ اعلمْ أننا هنا لسنا في ڤيينا. بنتي ملكي. أتسـمع؟ وأستطيع أن أهديهـا إلى من أشـاء. أسـتطيع أن أمـزّق تنّورتهـا أمـام خـدمي. أستطيع أن آمر بجلدها إن رغبت في ذلك.

كـارولينا : لا ضـرورة لمزيد من القـول. ومـا الفـائدة؟ إذا كـان سكان ڤيينا يعلمـون من نحن. ألا يسمـوننا : برابرة الشرق؟!

الـكونت : كارولينا!

كـارولينا : اسكت الآن، يا أبي! **(قوة لهجتها تكبح من جماح الأب للحظة. تتقدّم بعد ذلك باتجاه شوبرت وقد استعاد صوتها حلاوته)**. وداعاً يا فرانز! لقد جلبت إلى هذا البـيت الحـزين حبّ الفن وحب الحـيـاة الجـديدة. واليـوم إذ تتركنا بإرادتك الحـرة، أشكرك

باسمي واسم أبي. وإذا ما ابتسم لك الحظ والمجد ذات يوم، فتذكّر هذه المرأة البائسة التي لم يكن لها من المجد سوى أنها كانت صديقتك.

كارولينا: كفى! اخرج من هنا!

فرانز: انتظر لحظة، يا سيد. ينبغي لي قبل أن أخرج، أن أهدي إلى ابنتك شيئاً. هو ذكرى من معلم الموسيقى. **(يكتب شيئاً على أوراقه. تسمع بحلاوة النوتات الأكثر شهرة من «سيمفونية دون ختام»).**

الكونت: ماذا ستصنع؟ أفترض أنك لن تجرؤ على كتابة إهداء.

فرانز: ليس إهداء، يا سيدي الكونت. هو ببساطة عنوان. **(يسلم المقطوعة إلى كارولينا)**. احتفظي بها. إنها سيمفونيتي. إنها الشيء العظيم الوحيد الذي صنعته في حياتي: كتبتها حباً بك فقط. ولن أختتمها أبداً حفظاً لذكراك. وداعاً يا كارولينا.

كارولينا: وداعاً، يا فرانز. **(تمدّ له يدها التي يقبلها بانفعال. ثم ينحني ببرود أمام الكونت، ويتجه للخروج ببطء بينا كارولينا تقرأ وسط دموعها)**. «سيمفونية دون ختام». دون ختام كحياته وحياتي. كحبنا! **(تسقط على مقعدها منتحبة)**. فرانز! فرانز! **(تسمع الموسيقى قوية)**.

ستار

الفهرس

١٥٠٠ ط١ /٥/ ٢٠٠١



مطابع وزارة الثقافة

دمشق - ٢٠٠١

سعر النسخة داخل القطر

١٢٥ ل.س

في الأقطار العربية

٢٥٠